التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 383
تموز: 2016

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشترك في مجلة الثقافة الجديدة منذ العدد الأول 2000 وابدأ بالحصول على (100) هدية مجانية من دار الرواد المزدهرة (50) هدية مجانية من مجلة الثقافة الجديدة.
للاشتراك يرجى الاتصال بالعنوان أدناه:

رقم الحساب: 11153
MBIVIQBA :السويفت كود

رقم الحساب: 30721
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Althakafa Aljadida Magazine

البريد الإلكتروني:
thakafajadida@hotmail.com
البريد الإلكتروني:
thakafajadida4u@gmail.com

الموقع الإلكتروني:
http://www.althakafaaljadeda.com
للإعلان في مجلة الثقافة الجديدة - منصور بنك للاستثمار - بغداد.
للاشتراك في مجلة الثقافة الجديدة.
العدد الحالي: 781
عدد المشتركين: 1288

* يتم توزيع المجلة مجانا على المشتركين في المحافظات العراقية كافة ويتم إرسال المجلة بالبريد المسجل إلى المشتركين خارج العراق.
* سعر النسخة الواحدة 4000 دينار عراقي.
* للإعلان في المجلة يرجى الاتصال بالعناوين أعلاه.
* تحتفظ المجلة بحق قبول أو رفض أي إعلان لا يتناسب مع سياستها.
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد
7- تهنئة هيئة تحرير"الثقافة الجديدة" للزميل ابراهيم الخياط بمناسبة حصوله على شهادة الماجستير بامتياز.

مقالات

9- حَوكمة الحكومة والحكم الرشيد..... حاكم محسن محمد الربيعي
19- قراءة في ازمة الديون الخارجية للبلدان النامية وبلدان الاتحاد الاوربي..... عودت ناجي الحمداني
29- موارد الوقف المتراكمة بحاجة لتنظيم حديث ورقابة جادة..... مجيد مسعود
33- قاع المدينة - خصوصيات تمايز "الفئات الهامشية" في البلدان النامية ضمن النسق الرأسمالي العالمي.....صالح ياسر
44- وقفة مع كتاب: "الدين والسياسة من منظور فلسفي"..... محمد سيف الإسلام بوفلاقة

نصوص قديمة

52- أوضاع العراق عشية ثورة تموز في تقارير السفارة البريطانية.

نصوص مترجمة

64- (من أرشيف الكومنترن) رسالة رقم 5 من عاصم فليح (صائموف) الى الكومنترن..... ترجمة : عبد الله حبة

حوارات

68- حوار مع الشاعر والناقد عبد القادر جبار ..... اجرى الحوار: سعدون هليل

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

76- الأغنية.. هوية الشعوب ومضامين الوجود الجمالي ..... كاظم غيلان

في الحدث الادبي والفني

78- وداعا... زائية الوجد..... كلمة في رحيل الأديب عبد عون الروضان

دراسات نقدية

80- الأشياءُ شعراً، الشعرُ أشياءً (القسم الأول)..... ياسين النصير
90- المكـان والمقدس ..... جاسم عاصي
97- جدلية الوعي السائد والمتحول في ثلاثية نجيب محفوظ..... صبيح الجابر

شعر

106- رفرفات من المشرق ..... عادل مردان
108- فائض الشاعر ..... واثق غازي

قراءات وقصص

109- قصص (فرج ياسين) القصيرة جدا...قصة (أفواه) إنموذجا ..... جمال نوري
112- شخصية الطفل بين المكان الأليف والمكان المعادي ،قراءة في قصة "الطائر ذو الرأس الأصفر"... محسن ناصر الكناني

118- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية..... ترجمة: جودت جالي

مكتبة «الثقافة الجديدة»

134- ختان البنات في المجتمعات الإسلامية بين الرفض والفرض (المجتمع العراقي انموذجا) ..... عرض: سلام القريني

لوحتا غلافي العدد: للفنان محمد مهر الدين

كلمة العدد

الى الذين يراهنون على تفتيت الحركة الاحتجاجية.. لا تلعبوا بالوقت!

لكل حركة احتجاجية تاريخ محدد، لحظة بدء وامتداد مسار من البناء وتراكم الخبرات ولحظات تحول يحسم تاريخها وحضورها في المشهد العام.

وتبين تجارب عدة، وأيضا ما يقوله الدرس السوسيولوجي إن شروط إنتاج الحركات الاجتماعية تظل مفتوحة في الغالب على عوامل الإقصاء والتهميش واتساع الفساد وإخفاقات التنمية وتعاظم الفقر.. الخ. فاتّساع الشرائح والفئات التي تعيش تحت عتبة الفقر أو تظل مهددة به، فضلا عن سيادة واقع من لا تكافؤ الفرص وعدم احترام الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغير ذلك، كلها مولّدات أساسية للاحتجاج الذي يتطوَّر إلى مستوى الابعاد الاجتماعية، التي تتَّخذ أكثر من صيغة وواجهة للتعبير عن مطالبها. وبالطبع فالهدف المركزي لأي فعل احتجاجي يظل هو تغيير الأوضاع الراهنة، فالاحتجاج ممارسة تنشد التغيير، من أجل صياغة واقع آخر، إنها ممارسة مسكونة بالتغيير.

تكتيك "العصى والجزرة" تجاوزته الحياة

وبالرغم من طيف واسع من الاجراءات التي اتخذها النظام المحاصصي السائد في بلادنا ومحاولات احتوائه للحراك المجتمعي باستخدام تكتيكات تجمع بين "العصى والجزرة" فان التجربة الملموسة خلال الاشهر الاخيرة بينت ان موجات الحركة الاحتجاجية تتصاعد.. وقاعدتها المجتمعية تتوسع وتدخلها قوى جديدة متنوعة المشارب والمرجعيات، وسقف مطالبها يتجذر. والمتابع لتاريخ هذا الحراك يلاحظ أن الاحتجاجات بدأت مطلبية/ خدمية، لكنها سرعان ما تحوّلت الى احتجاجات سياسية/ اجتماعية وطنية ترفع مطالبها بحل الرئاسات الثلاث ومحاسبة الفاسدين، وإنهاء المناصب التي استحدثت لإرضاء الكتل المشاركة في الحكومة أصلاً. فلم يعد المتظاهرون يقبلون بإصلاحات شكلية "ترمم" نظام المحاصصة وتكتفي بإعادة توزيع الادوار والمناصب والثروة والنفوذ بين قواه وأقطابه ورموزه.

ومع تطور الحركة الاحتجاجية وتعاظم بأسها وتنامي روحها الاقتحامية يبدو ان النظام المحاصصي وفي مواجهة هذه التطورات بدأ يراهن على الخيار الامني وهو خيار خطير. ومن الطبيعي الاشارة هنا الى ان نوعية الاحتجاج ودرجته هي التي تحسم الاختيار وتبرر حتمية طلب خدمات الأجهزة الأمنية أو الإيديولوجية. فإذا كان الاحتجاج بسيطا، كان اللجوء إلى آليات التطبيع والاحتواء، أما إذا كان الاحتجاج "فوق حدود المتوقع" ومن الممكن أن يهدد مصالح القوى المتنفذة، فإن استخدام العنف

"المشروع" وغير المشروع سيكون المنهج الأقرب بالنسبة لهؤلاء، في سبيل تحصين وحماية مصالح القوى المتنفذة. وهذا ما شهدناه خلال الاسابيع الاخيرة عندما اقدمت القوى الامنية على استخدم العنف وإطلاق الرصاص، بنوعيه المطاطي والحي على المحتجين الذين حاولوا اقتحام "المنطقة الخضراء" فحولتها هذه القوات الى منطقة حمراء مغمسة بدم العشرات بل والمئات من الجرحى والعديد من الشهداء، تحت ذريعة الدفاع عن هيبة الدولة، وكأن هيبتها لم تتضرر عندما اجتاحت قطعان "دولة العراق والشام الاسلامية – داعش" في حزيران 2014 عدة مدن واحتلت ثلث مساحة البلاد.

لا خيار للتغيير سوى إدامة زخم الحركة الاحتجاجية

ويبدو ان الجولة الجديدة من الصراع تدور باتجاهات متعددة: داخل الائتلافات الكبرى وفي ما بينها. ومن المؤكد اننا سنشهد جولة جديدة من الصراعات بين المتحاصصين الكبار تساهم في مد عمر هذا النظام الى حين. والطريق المجرب، ضمن تناسب القوى الحالي، هو ادامة زخم الحركة الاحتجاجية وتطويرها وترقية اشكالها وابتكار جديدة منها، والحفاظ على سلميتها بما يتيح الضغط على النظام المحاصصي وقواه المتنفذة لإجبارهما على اتخاذ اجراءات اصلاحية عميقة والقضاء على الفساد.

تتعاظم اذن روح التحدي لدى الحركة الاحتجاجية وتنامي مطاولتها مما يتيح منع تذبذب الماسكين بالسلطة والقرار ومنعهم من الرهان على عامل الوقت لتفتيت هذه الحركة أو تدجينها لتبقى تراوح في مكانها وتفقد زخمها.

الخوف وتعميم اليأس ونشر "ثقافة" القبول بالراهن وتأبيده.. صناعة القوى المتنفذة بامتياز

طبعا في مثل هذه السيرورة المعقدة والمفتوحة هناك بعض "الخائفين" على الحراك وتطوره وتجذره، ممن يحاولون تبرير ترددهم بالخوف من "المجهول"، علما ان الخوف هو صناعة القوى المتنفذة بامتياز، والمجهول صناعة ابتكرتها هذه القوى. فقد اعتاد النظام المحاصصي على تعميم اليأس ونشر "ثقافة" القبول بالراهن وتأبيده، بحيث يبدو طبيعيا العيش مع الأزمات بلا حلول ولا سقوف لتجاوزها.

وإذا كانت السلطة تراهن على العنف لتحجيم الحركة الاحتجاجية وحصرها في زوايا ضيقة وكسر شوكتها فقد بيّنت التجربة أنه وفي اكثر من مناسبة خسرت السلطة هذا الرهان، وان كان هذا لن يمنعها على الاقدام عليه ثانية. غير أن الخطر يكمن في امكانية نجاح السلطة ومن معها، من قوى النظام المحاصصي، في تشويه سمعة الحراك الاجتماعي، أو شيطنته، أو تفتيته إلى مجموعات متنافرة. ولهذا فإنه لا طريق لتجاوز هذه المخاطر وإفشال هذا المخطط، إلا باليقظة والترتيب الصحيح للتناقضات، والتمييز بين ما هو سياسي مباشر وما هو ايديولوجي، ومكافحة نزعات الاستئثار وادّعاء حصرية التمثيل لهذا الطرف او ذاك في لحظة الصعود، والتنكر لهذه الحركة عند انحسارها، فقديما قيل: للنصر آباء عدة أما الهزيمة فيتيمة!

لا شك ان هذا الحراك، الممتد عبر معظم محافظات العراق، يمثل العراقيين والعراقيات الراغبين والراغبات حقا في استعادة بلدهم من سارقيه وفاسديه، والمراهنين والمراهنات على شعبهم عبر خوض معركة نضالية مفتوحة ومتدرجة ستُلزم النظام المحاصصي وسلطته ان عاجلا أم اجلا بالخضوع لإرادة الشعب وتحقيق مطالبه العادلة والمشروعة في الحرية والديمقراطية والكرامة والعدالة الاجتماعية وبناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية كبديل لدولة الطوائف والهويات الفرعية.

إنها معركة طويلة، صعبة ولكنها نبيلة وتستحق التضحية.

خالص التهاني للعزيز إبراهيم الخيّاط
محرر باب أب وفن
بمناسبة حصوله على شهادة الماجستير بامتياز

في يوم الخميس المصادف 19 ايار 2016، وعلى قاعة السيد الصدر في كلية الاعلام بجامعة بغداد، جرت المناقشة العلنية لرسالة الماجستير الموسومة: (مجلة الثقافة الجديدة ودورها الثقافي في العراق، دراسة تحليلية في فنونها الصحفية لمرحلة العهد الملكي) والتي تقدم بها الطالب (ابراهيم حيدر عزيز الخياط) الى قسم الصحافة في كلية الإعلام بجامعة بغداد، ونال على اثرها شهادة الماجستير بامتياز.

تألفت لجنة المناقشة من الأساتذة: أ.م.د. محمد رضا مبارك رئيسا، أ.م.د. نزهت محمود الدليمي عضوا، أ.د. عباس محمد رضا البياتي عضوا خارجيا (من جامعة بابل)، أ.م.د. عبد المنعم كاظم الشمري عضوا ومشرفا.

تنتهز هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) هذه المناسبة الطيبة لتتقدم بخالص التهاني والتبريكات للعزيز ابراهيم الخياط، متمنين له موفور الصحة والعطاء المثمر وعقبال شهادة الدكتوراه.

هيئة تحرير الثقافة الجديدة
حزيران/ 2016

مقـــــالات

حوكمة الحكومة والحكم الرشيد

أ. د. حاكم محسن محمد الربيعي – أكاديمي

حاكم حسن الربيعي دكتوراه في فلسفة إدارة الاعمال، عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثماني سنوات، وعميدا للكلية لمدة زادت على خمس سنوات. عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة وجمعية الاقتصاديين العراقيين والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك د. الربيعي في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية. كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية. وله خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. كما اشرف على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير، وهو عضو هيئة استشارية في مجلات عديدة.

مقدمة:

تُعد الحكومات هي الهيئة الفوقية في الدول التي تمارس الحكم فيها وهذه الحكومات مصادرها متعددة؛ البعض منها يأتي عن طريق الانقلابات العسكرية، ومثل هذه الحكومات تفرض نفسها على الشعب وتحكم بقوة الحديد والنار، حيث تمارس السجون والاعدامات وكل اشكال القهر السياسي والجسدي وخير مثال على ذلك انقلاب 8 شباط عام 1963 وانقلاب 17 تموز عام 1968، في العراق، وانقلاب بينوشيت (أوغستو بينوشيه – المحرر) عام 1973 في شيلي بدفع ودعم من المخابرات المركزية الامريكية. والامثلة كثيرة في الدول العربية وغير الدول العربية، وحكومات أخرى تأتي الى السلطة عن طريق الانتخابات. ومثل هذه الحكومات يفترض بها ان تعمل بما يُرضي الشعب الذي عمل على انتخابها، من خلال العمل على تحقيق مطالب الشعب الذي يفترض أن لا تضطره حكومته المنتخبة الى المطالبة، بل هي من ذاتها تبادر الى المساهمة في تحقيق إنجازات تعبر عن اهتمام الحكومة بالعمل الجاد، والانتقال بالبلد من حالة إلى حالة اكثر نضجا وتطورا. ويتناول هذا البحث قواعد الحوكمة والحكم الرشيد موضحا أسس ومبادئ الرشد والعقلانية في الحكم وإدارة الدولة.

أولا – الحوكمة، المفهوم والاهمية:

الحوكمة، هي الاحتكام الى القوانين والتشريعات القانونية السائدة في إدارة الاعمال والنشاطات، سواء أكان ذلك على مستوى القطاع الحكومي المركزي في الدولة، أو على مستوى مؤسسات القطاع العام. ولا يقتصر الامر على الحكومة والقطاع العام، بل والقطاع الخاص أيضا، اذ لا توجد جهة

أو مؤسسة أو دائرة يمكن ان تُستثنى من تطبيق ابعاد الحوكمة.
إنّ العمل على وفق ابعاد وقواعد الحوكمة، ستكون له نتائج إيجابية على كافة المستويات، ويعمل على إشاعة العدالة الاجتماعية عند التطبيق السليم لهذه القواعد وعلى كافة المستويات. ويتناول هذا البحث الحوكمة على مستوى الدولة ومن وحي دستور الدولة الصادر عام 2005 الذي أكدّ في مواده العديدة على أبعاد الحوكمة التي لم يتم العمل على تطبيقها (1). وعلى الرغم من أنّ الجهات التي يجب ان تعمل على تطبيقها هي من أصدرها وشرّعها. وسيتم عرض لمبادئ الحكم الرشيد ومجموعة من المؤشرات العالمية التي حددها برنامج الأمم المتحدة للتنمية الصادر عام 2013 UNDP لإدارة الحوكمة في البلدان العربية، وتكتسب أهميتها من خلال التطبيق السليم لهذه المبادئ والاحكام؛ اذ ان تطبيقها بشكل سليم يؤدي الى نتائج إيجابية. وابرز هذه النتائج هو الاتيان بقرارات واحكام سليمة لا تضر بالآخر بل تنسجم ومتطلبات العدالة الاجتماعية، أي ان اتخاذ القرارات الرشيدة يعمل على تفادي الأخطاء أو الاضرار بالآخر بل يؤدي الى النتائج التي تنسجم مع القوانين والتشريعات القانونية الهادفة الى الضبط والاستحكام القانوني والإداري.

ثانيا ـ أبعاد الحوكمة على مستوى الدولة:

1 - الرؤية السياسية والاقتصادية:
للحكومات أيا كان نوعها ومهما كان مصدرها رؤية سياسية واقتصادية. وبناء على هذه الرؤية التي يفترض ان تكون مستندة الى فكر معين أو مذهب معين، توضع البرامج السياسية باتجاه بناء مجتمع ديمقراطي يقوم على الانتخابات الديمقراطية. وقد أوضحت المادة الأولى من دستور جمهورية العراق لسنة 2005 ان جمهورية العراق نظام الحكم فيها جمهوري نيابي ديمقراطي، ويضمن الدستور ذلك. ومن خلال اتاحة الفرصة للجميع ممن تتوفر فيهم شروط الترشيح أو الانتخاب كل في مجاله، مع ضمان نزاهة الانتخابات، وعدم اللجوء الى التزوير من قبل المتنفذين والماسكين في السلطة. والخطوة التالية هي وضع برنامج تنمية اقتصادية تعكس اثارها بشكل إيجابي على تنمية البلد، وذلك من خلال تعبئة الموارد الاقتصادية المتاحة والتعامل معها برشد وعقلانية، أي ان توفّر الموارد يجب ان يستثمر في صالح التنمية التي يمكن تجسيدها في تأهيل قدرات القطاعات الاقتصادية وتنميتها، وهي قطاعات في العراق بحاجة الى تأهيل، ويمكن ان تُسهم في الإنتاج القومي الإجمالي بنسب كبيرة وموازية لمساهمة القطاع النفطي لو كانت هناك جدية في التعامل مع هذه القطاعات.

2ـ الاستقرار السياسي وغياب العنف:
ان الاستقرار السياسي عامل مهم لتحقيق الوحدة الوطنية والتآخي بين المواطنين، لأن الاستقرار السياسي يعني غياب الصراعات الحزبية والسياسية (كيف يمكن أن تغيب الصراعات الحزبية والسياسية في المجتمعات الطبقية؟ – المحرر) ، وهذا يؤدي الى الاستقرار الاجتماعي والقومي وكليهما يعكس اثره في الاستقرار الديني. وبمعنى آخر غياب الصراعات الدينية والعرقية. وبتوفر هذا الاستقرار بمختلف اشكاله سيعمل على الاستقرار الأمني ويجنب البلد العنف والاقتتال، وهذا يتطلب التعامل

مع الآخر على أساس الهوية الوطنية واستيعابه على وفق هويته الوطنية. اذ ان ذلك يعد من مستلزمات الوحدة الوطنية التي تدفع بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية الى الامام، بدلا من الصراعات التي تشكل ابرز العوائق لمسار الديمقراطية والتنمية الشاملة. وقد منعت الفقرة رابعاً من المادة 29 من الدستور العراقي كل اشكال العنف والتعسف ومنها اشكال العنف والتعسف في المجتمع. إلا ان الفترة التي أعقبت عام 2003م اشّرت وقائع مريبة ومحزنة؛ اذ اشتدت فيها الصراعات وبمختلف الاشكال والأسباب، الامر الذي أدى الى ازهاق أرواح الآلاف من الأبرياء. ويبيّن الجدول رقم (1) غياب الاستقرار الأمني واشتداد العنف حتى الوقت الحاضر حيث التفجيرات والعبوات والخطف والاغتيالات في مختلف المدن العراقية وكان مستوى غياب العنف في العراق لسنة 2011م، هو – 1،95 حسب تقرير برنامج التنمية لمنظمة الأمم المتحدة لهذه السنة. ويوضح الجدول المذكور ضحايا العنف (قتلى) خلال الفترة الممتدة من 2003 – 2016م نتيجة الانفلات الأمني خلال السنوات الأولى للتغيير، لكن العنف لم يتوقف بعد تشكيل (مجلس الحكم الانتقالي) ومن ثم اجراء الانتخابات وتشكيل حكومة عراقية واستمرار ذلك خلال الفترة المنصرمة. ويُرجع البعض ذلك الى الممارسات التي حصلتَ خلال هذه الفترة بضغط من الكتل السياسية المشاركة في الحكم وأبرزها التهميش والإقصاء بدافع إما طائفي أو حزبي أو قومي أو ديني. وكانت هذه الممارسات وما زالت عنصرا أساسيا في تصاعد العنف في العراق.

وكانت السنوات 2009 – 2011م هي الأقل لكنها بدأت بالتصاعد مرة أخرى بسبب تصاعد الخلافات بين الكتل السياسية واستغلال الارهابيين لهذه الخلافات (2).

جدول (1)

ضحايا العنف في العراق للسنوات 2003 - 2016م

السنة	عدد الضحايا
٢٠٠٣	١٢١٣٠
٢٠٠٤	١١٧٣٦
٢٠٠٥	١١٥٨٣
٢٠٠٦	٢٩٤٥١
٢٠٠٧	٢٦٠٣٦
٢٠٠٨	١٠٢٧١
٢٠٠٩	٥٣٧٥
٢٠١٠	٤١٦٧
٢٠١١	٤١٥٣
٢٠١٢	٤٦٢٢
٢٠١٣	٩٨٥١
٢٠١٤	٢٠١٥١
٢٠١٥	١٧٤٧٠
٢٠١٦	٥٧٠٦

المصدر /http://www.iraqbodycount.org/database:

3 - فعالية الحكومة:

اذا أُريد معرفة فعالية الحكومة والتي تعني مدى تحقيق الأهداف المخطط لها، فإنّها على وفقِ ذلك تظهر في مدى تحقيق الأهداف التي خطّطت لتحقيقها، اذا كان للحكومة برنامج واضح وخُطط واضحة يمكن قياس الفعالية من خلال المقارنة بين المخطط والمتحقق، وخلاف ذلك يعني عدم وضع خطط وبالتالي ليس هناك اهداف، وهذا يعد خللاً واضحا في سياسة الحكومات التي لا تضع خططاً أو برامج، تهدف إلى التقليل من معدل الفقر من 30% الى 20%. مثل هذا الهدف قابل للقياس، وبالتالي يمكن الحكم على فعالية الحكومة. وكانت فعالية الحكومة لسنة 2011م حيث كانت – 1.15 كما موضح في الجدول (2).اي ان الحكومة لم تكن فعالة بالمطلق اذ ان النسبة المقبولة + 2.5 و– 2،5 الأسوأ (3).

جدول (2)

مؤشرات عالمية لادارة الحوكمة في العراق لسنة 2011

المساءلة	الاستقرار السياسي وغياب العنف	فعالية الحكومة	الانتظام والجودة	سيادة القانون	السيطرة على الفساد
١,١٣-	١,٩٥-	١,١٥-	١,١٠-	١,٥١-	١,٢٢-

المصدر: مجلة المستقبل العربي – العدد -423 أيار/ 2014 عن تقرير برنامج الأمم المتحدة

ملاحظة: يتراوح حساب المؤشرات بين - 2.5 (اضعف أداء) و2.5 (اقوى أداء)

4 - سيادة القانون:

عندما يقال هناك قانون سائد، فإن ذلك يشير ذلك الى ان هناك دولة مؤسسات تحتكم في النزاعات الى القانون، إنْ كانت هناك نزاعات. وهناك دول يقوم المواطنون فيها بتطبيق القانون طواعية، كدافعي الضرائب في بعض الدول المتقدمة؛ اذ يعرف المواطن في تلك الدولة ان عليه ضريبة مستحقة، يقوم طواعية بمراجعة الدوائر المعنية لتسديد ما عليه من التزامات مالية، وهكذا لبقية الدوائر والالتزامات الأخرى. وفي الوقت ذاته يحصل على حقوقه من مصادرها دون عناء لان هناك قانونا سائدا. وهكذا هي فعالية سيادة القانون، وعلى جميع المواطنين في البلد. وقد أشارت المادة 14 من دستور العراق الصادر عام 2005 الى ذلك، حيث جاء فيها ما يلي: (العراقيون متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي). لكن هذا السند القانوني يحتاج الى تفعيل من خلال الالتزام بتطبيقه على الجميع دون استثناء أو تمييز، فالقانون سرى في الدول المتقدمة وبعض الدول النامية حتى على رئيس الدولة كما حصل في جمهورية غواتيمالا واسبانيا. هكذا هي دولة المؤسسات والقانون. وكان مستوى سيادة القانون في العراق – 1.51 الموضحة في الجدول (2).

5 - المساءلة:

المساءلة هي كل من يرتكب خطأ أو جريمة أو جنحة أو أي عمل يخالف القانون، مهما كان مجال وحجم المخالفة أو العمل

الذي لا يتفق مع القانون، يجب ان يخضع الى القانون ويحاسب بسبب مخالفته أو ارتكابه الأفعال التي لا تنسجم مع القانون أو متطلبات صيانة ومحافظة حقوق الناس في المجتمع، وبالتالي يصبح الموضوع غير منسجم مع التوجهات المجتمعية. يطبق القانون بشكل سليم بهدف ردع مرتكبي الجرائم لوضع حد لهذه المخالفات، وبهدف إشاعة الاستقرار والأمن والعدالة، وإشاعة ثقافة العمل الصحيح بين أوساط المجتمع. وبالمقابل كان غياب المساءلة سبباً رئيساً في تفاقم الجريمة بمختلف أنواعها من جرائم القتل والسرقة والفساد بكل أشكاله. وكان العراق ضمن مجموعة الدول العربية التي لم تتخط هذا المؤشر أو عبوره حيث بلغ بالنسبة للعراق – حسب تقرير برنامج التنمية للأمم المتحدة – ما مقداره (1،13-)، وهو حال جميع الدول العربية لسنة 2011 (4). وفي العراق وعلى مدى الفترة الممتدة من 2003 – 2016، لم يكن هذا المؤشر وفقا للمعيار المقبول.

6 - السيطرة على الفساد:

يكاد الفساد يرتبط بغياب المساءلة؛ اذ ان الذين يرتكبون حالات الفساد بمختلف اشكاله مع غياب المحاسبة والمساءلة لا يرتدعون بل تتفاقم حالات الفساد وهو ما كان هكذا في دول مختلفة ومن بينها العراق؛ حيث تتفاقم هذه المشكلة في العراق وبشكل كبير. وعلى الرغم من الإشارة من قبل مسؤولين في قمة هرم السلطة، الى تفشي هذه الظاهرة، الا انّه لا احد تمت محاسبته بسبب الفساد، الا بعد تفاقم الأوضاع الاقتصادية والسياسية وتظاهر الشعب بمختلف فصائله ضد الفاسدين، حيث تم عرض قوائم بأسماء الفاسدين، لكن ماذا بشأن اعلان هذه القوائم، وماذا سيتم بصدد محاسبتهم. وان البعض منهم موجود خارج العراق. وكانت درجة السيطرة على الفساد في عام 2011 هي (1،22 –) (حسب التقرير المشار إليه الصادر عن برنامج التنمية لمنظمة الأمم المتحدة). وفي العراق وعلى مدى ما يزيد على ثلاثة عشر عاما لم يكن هناك حساب أو مساءلة جادة للفاسدين والمتجاوزين على القانون مما أدى إلى تفشي ظواهر غريبة على المجتمع العراقي، كالخطف وابتزاز ذوي المخطوف والسرقات والتزوير... الخ من ظواهر مدانة. ان هذه الظواهر تقف عائقا امام الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية. ولذلك يجب ان تتخذ الحكومات إجراءات جادة على سبيل الإصلاح وتفعيل سلطة القضاء، مهما كانت مستويات ظواهر الفساد، واشكاله المختلفة ومهما كان مستوى الفاسدين ومرتكبي المخالفات القانونية، من الانتقال بالبلاد الى دولة القانون والمؤسسات.

7 - الانتظام والجودة:

الانتظام هو نشاط هادف لتحسين الإجراءات والسياقات والتقاليد والأعراف في مجريات النشاط العام للدولة، وبمعنى آخر، ان كل شيء يسير على وفق السياقات المحددة. ومن الجدير بالإشارة، ان مصطلح الروتين Routine الإنكليزي، والذي كان يتداوله المواطنون في العراق، يهدف الى الإسراع في الإنجاز، وهو يدخل ضمن إجراءات التسريع من خلال التعريف بمسار المعاملات كي يتم الإنجاز بسرعة، إلا ان هذه الإجراءات أصبحت في ما بعد معطلة. ولذلك اصبح اطلاق كلمة "روتين" على كل ما يشكل تعطيل المعاملات، علما

انها – وبإيجاز – تعني كلمة الانتظام. ان مسار النشاطات في الدولة منتظمة، وتسير على وفق ما محدد لها. أما الجودة فهي تشير الى أن النشاط العام للدولة يتفق مع متطلبات الجودة، وبالتالي عندما تكون النشاطات في الدولة منتظمة وتتفق مع الجودة يعد ذلك مؤشرا جيدا للدولة ومعبرا عن كونها حكومة مقبولة0 وكان هذا المؤشر في العراق قد بلغ (– 1،10) حسب تقرير التنمية لبرنامج الأمم المتحدة لسنة 2011. وهذا المؤشر هو نتيجة للبيئة العامة في العراق خلال الفترة التي أعقبت عام 2003 كما هي بقية المؤشرات التي سبقت الإشارة اليها، وبسبب استمرار عدم الاستقرار السياسي والأمني.

ثالثا - مبادئ الحكم الرشيد:

يحدد البعض مبادئ الحكم الرشيد بالمبادئ الاتية:

1 – المشاركة: تعني المشاركة في القرارات، وذلك من خلال اتاحة الفرصة للمواطنين لطرح الأفكار والطروحات التي يقدمها المواطنون، ومن اجل تحقيق ذلك يتم عقد الندوات، اذ ان ذلك يعزّز التواصل بين الحكومات وشعوبها وبين الجماهير من خلال عقد لقاءات بين المسؤولين ومن مختلف المواقع القيادية. وعلى سبيل المثال يقوم المحافظ في المحافظة وبالاتفاق مع مجلس المحافظة بعقد ندوات مع المواطنين، توضح في هذه الندوات المشاريع المنوي تنفيذها في المحافظة والاستماع الى آراء المواطنين حول هذه المشاريع وكذلك الخدمات، حيث ان أصحاب المصلحة هم المواطنون، وبالتالي فان اطلاعهم ومعرفتهم بذلك يسهل امرين هامين؛ الأول هو ان الحكومة متواصلة مع الشعب، ويعمّق العلاقة بينهما. والامر الثاني يسهل ويوضح كيفية المراقبة على اعمال هذه الجهات المسؤولة. ويفترض ان يكون التمثيل في اتخاذ القرارات معمولا به، اذ يجب اشراك جهات متعددة في المجتمع من أصحاب المصالح، لأنّ المجتمع هو صاحب المصلحة في ما يصدر من تشريعات وبالتالي ان اشراك هذه الأطراف والتشاور معها سيعمل على تسهيل تنفيذ التشريعات القانونية لمساهمة هذه الأطراف في ابداء الرأي والمشورة وعدم اقتصارها على طرف دون آخر، وبالتالي اشعار الأطراف غير المشاركة في اتخاذ القرار بانها مهمشة ولم يحسب لها حساب، لان في ذلك غياباً لأحد اركان العدالة الاجتماعية وعدم معرفة بما يصدر من تشريعات قانونية. ان مشاركة الأطراف ذات المصلحة يساعد على المساهمة مع الحكومة في تسهيل تنفيذ التشريعات القانونية، ويساعد في تحديد متطلبات المجتمع والمساهمة في تحقيق هذه المتطلبات. وتشمل هذه الأطراف:

– الإدارات الحكومية.
– الخبراء الاكاديميون.
– المؤسسات والمنظمات غير الربحية.
– جماعات المصالح المنظمة (نقابات العمال، الإدارات الحكومية، المكاتب الحكومية والمحلية).
– العاملون في القطاع العام (الأطباء، المعلمون).
– آخرون.
– القطاع الخاص (شركات وعاملين).
– المستفيدون مستخدمو الخدمات.
– دافعو الضرائب.

شكل رقم (1) خارطة تحديد الاطراف المعنية (5)

ان هذه الأطراف تشكل، مجتمعة، مكونات مجتمع الدولة، والتي يجب ان تحظى بدعم واسناد من الحكومة من حيث سماع الآراء والأفكار التي تطرح منها وهي آراء وأفكار غير ملزمة، ولكن يمكن الاستفادة منها في اتخاذ القرارات السليمة، لا سيما ما يتعلق بمطالب واحتياجات هذه المكونات كلا حسب ولايته أو محافظته، لأنّ الدولة هي الراعي لمطالب جماهيرها. والحكومة تسعى دائما الى كسب شعبها ورضاه، من اجل ان تحظى بتأييده، لا سيما في النظم الديمقراطية التي تعتمد طريق الانتخابات للوصول الى السلطة.

2 – الشفافية: هي كشف الانحرافات وتأشيرها على الآخر وقبول الآخر لهذا التشخيص لا سيما اذا كان حقيقيا وواقعيا ويفترض ان يقابل بالاعتراف من قبل المخطئين، وان يعملوا على علاجه، ويجب ان يكون هناك افصاح حقيقي أيضا. لكن الإفصاح والشفافية مفقودان في العراق، حيث صنف بالتسلسل 175 لسنة 2011 (6) وأصبح التسلسل 168 سنة 2012(7). اما في تقرير منظمة الشفافية الدولية لسنة 2015 فبلغ 161 (8). وتبين ان السبب ليس التحسن في الشفافية في العراق، وانما بعض الدول ليس لديها

بيانات ولذلك اصبح التسلسل 168 و161 حسب تقارير منظمة الشفافية الدولية. والشفافية تعني كذلك الإعلان عما تملك الحكومات سواء كانت في المركز أو المحافظات وما هي خططها وان تكون واضحة وصريحة مع الشعب ليكون مطلعا على قدراتها ومشاريعها التنموية من اجل النهوض بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي. ولتشخيص أشكال الفساد ومحاربته، ان توفر هذه الجدية في التشخيص يسهل التنفيذ والمتابعة.

3 – سيادة القانون: الدولة التي يشكل فيها القانون ركنا أساسيا لتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هي دولة المؤسسات التي يشعر المواطن فيها بالأمان، ومن يتضرر أو يتعرض للاعتداء المادي أو المالي، فهناك قانون يضمن للمواطن اخذ حقوقه، وهكذا هي المجتمعات المتقدمة. في حين، إنّ بعض الدول تصدر القوانين وتبقى دون تنفيذ، وليس هناك من يستطيع الحصول على حقوقه. وهكذا الحال حاليا، يحصل الاعتداء على المواطنين، ولكنهم يخشون المعتدي من إيصال أصواتهم الى المحاكم، كذلك تخشى المحاكم الجهات التي ينتسب اليها المعتدي، فتميل إما الى المصالحة أو غض النظر، وهكذا هو الحال الاغلب. ولكن ذلك لا يساهم في بناء الدولة، مما يستوجب إعادة النظر بسياسات الحكومة وإخضاع الجميع لطائلة التشريعات القانونية، حيث ان وجود جماعات خارجة عن القانون، مهما كانت جذورها أو اسس تشكيلها فهي غير قانونية وغير شرعية إلا أنّها لا تنسجم مع دولة المؤسسات وبالتالي ستكون مصدر مشاكل وازعاج للدولة، وبالتالي فان الدولة القوية هي التي اذا أصدرت قرارات وسياسات هدفها حماية أمن الدولة وسيادة القانون، فان هذه السياسات والإجراءات، يجب أن تكون ملزمة للجميع ولا يُستثنى منها احد مهما كان مستواه، وهذه هي العدالة في التعامل مع الآخر.

4 – الاستجابة: وهي مدى استماع الحكومات الى شعوبها عندما يطالب بالإصلاح أو يطالب بالخدمات، ويعبر الشعب بواحد من أساليب، المطالبة بالتظاهرات لإيصال صوته الى حكومته وعلى الحكومات ان تستجيب لمطالب شعبها، لان هذه الحكومات لا تملك السلطة، بل مفوضة السلطة وبالتالي عليها ان تكون راعية لمصالح الشعب، وتؤمن التواصل مع الشعب، وان تحقق مطالبه المشروعة والمنسجمة مع القوانين السائدة في المجتمع على مستوى الدولة.

5 – بناء التوافق: هو مفهوم ينطوي على مراعاة القوميات والنحل الدينية في التمثيل في البرلمان وليس على النحو الذي يريده بعض أصحاب الكتل السياسية والمتعلق بالحكومة التنفيذية، اذ يفترض ان لا تبنى الحكومات على أسس طائفية، وان تشكيلها لا يكون من خلال ترشيحات الكتل السياسية بل يتم ذلك بتكليف رئيس الوزراء بالاختيار، وعلى أساس المهنية والكفاءة والخبرة من اجل بناء الوطن بناء صحيحا، وفي هذه الحالة يكون الأساس الذي يعمل بموجبه الوزراء وبالتالي الحكومة بشكل موحد ضمن اطار المصلحة العامة للدولة دون التأثر بأية جهة أو حزب معين، ودون الانصياع لرأي الحزب وضغوطاته الفئوية، اذ ان العراق بحاجة ماسة وبشدة الى من يعمل بقرار رشيد يضع مصلحة البلد في

المقدمة. ويتطلب ذلك ترشيد الاستخدام للموارد الاقتصادية والمالية والاستفادة من القدرات والكفاءات المخلصة وهي ليست قليلة، حيث ان العراق مليء بالمخلصين، وعلى وفق أسس سليمة ومخلصة تضمن العدالة الاجتماعية في عموم البلاد دون تمييز ونبذ كل اشكال الطائفية أو أيّ شكل من اشكال التمييز. هكذا عملت الشعوب وحكوماتها للانتقال ببلدانها الى مراحل متقدمة في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية وهناك تجارب بالإمكان الاستفادة وتعلم الخبرات منها، وهي اليوم موضع التمييز ومرجع للمقارنة بما توصلت اليه من تقدم في مجالات مختلفة.

6 – المساءلة: عندما يكون الفساد ثقافة في مجتمع ما يكون مآل ذلك المجتمع الى الهاوية، وحيث يشكل الفساد ظاهرة مستفحلة وبارزة وظاهرة للعيان أيضا، ودون ان يكون هناك حساب للفاسدين لن يكون هناك اصلاح، وليس هناك أمل في أن ينتقل البلد الى الحال الأفضل. وهنا يبرز دور القضاء ودور الرقابة الشعبية لرصد حالات الفساد والابلاغ عنها، ويأتي دور القضاء عند ذاك للمحاسبة على وفق القوانين السائدة للفاسدين، ومهما كان مستوى الفساد أو من هو الفاسد. وهكذا عملت الحكومات، وهناك تجارب عديدة وفي دول عديدة في آسيا وافريقيا وفي الدول المتقدمة، لان المحاسبة وفقا للقانون هي اكبر رادع للفاسدين. اما أن يظهر الجميع ـــ وبمختلف المستويات في المسؤولية ـــ يتباكون جميعا على الفساد ويشيرون اليه ويتحدثون عنه، يبرز تساؤل عما اذا كان جميع المسؤولين ينادون بأن هناك فسادا دون الإشارة الى مكانه، أو من هو الفاسد. والسؤال من هو الفاسد، هل الفاسد الفقير أو الموظف البسيط الذي لا يملك القرار وليس تحت ادارته المال العام، أم أن الفاسد هو من يملك القرار، وتحت ادارته المال العام مع عدم التعميم. ان المحاسبة عن كل اشكال الفساد ستخلص البلد من ضياع الأموال العامة، ويجب ان يؤدي الى استعادتها من الفاسدين، بدل التوسل الى المؤسسات الدولية، ورهن البلد لهذه المؤسسات التي لا ترحم المدين، وتحمله فوائد باهظة توازي أو تزيد على المبلغ الأصلي، وليس هناك مشكلة في تطبيق القانون في حساب الفاسدين، واستعادة المال العام المسروق من قبلهم، فهو ثروة الشعب الذي يعاني من العوز والحرمان، وهو الاحقّ في هذه الثروة المسروقة التي يجب استعادتها وانفاقها في بناء وتأهيل القطاعات الاقتصادية لكي تسهم في الإنتاج الإجمالي للدولة كما كانت تسهم بالجزء الكبير، وعليه لا بد من المحاسبة بكل أشكال الحساب والمساءلة لظاهرة الفساد.

7 – الفعالية والكفاءة: يوجد فرق في المعنى بين الفعالية والكفاءة، فالأولى تعني تحقيق اهداف ما تم التخطيط له. وبمعنى آخر، يعد تحقيق الأهداف هو الفاعلية، لأن هذه الأهداف وضعت خطة لتحقيقها، وبالتالي انّ تحقيق الأهداف يشير الى فاعلية الإدارة، لان هذه الإدارة استطاعت ان تحقق الأهداف التي وضعت ضمن خطة تم رسمها وتم العمل على تنفيذها سواء على مستوى الوحدة الاقتصادية كجزء من الاقتصاد الجزئي، وهو جزء من الاقتصاد الكلي، أو على مستوى الدولة، هو أيضا فاعلية للحكومة لان الحكومة التي هي

الهيئة الفوقية في دولة ما، تمكنت من رسم خطط تنموية وتمكنت أيضا من تحقيق أهداف هذه الخطط. اما الكفاءة فهي قدرة الإدارة في أية وزارة أو مؤسسة أو دائرة – وجميعها عائدة للدولة – على الأداء المتميز أو الذي يحقق الأهداف التي رسمت من قبل المتخصصين وهو أداء مقبول ومرض للجهات وللمهتمين بهذه الأهداف. وبالتالي فإن الفاعلية والكفاءة معياران مهمان لتكون الحكومة سائرة على النهج السليم والذي يهدف الى تحقيق الأهداف المبتغاة.

8 – الرؤية الاستراتيجية: تعمل منظمات الاعمال وفق رؤية استراتيجية توضح طبيعة ونوعية الأهداف التي تسعى الى تحقيقها ومنها اهداف تكتيكية، لكن هذه الأهداف تساعد في تسهيل الوصول الى تحقيق الأهداف طويلة الأمد، وأخرى استراتيجية تحتاج الى زمن طويل. وبالتالي فإن الرؤية الاستراتيجية للحكومة هي التي تضع امامها مصلحة البلاد، وتعمل على وفق هذه الاستراتيجية للخروج من الازمات التي تواجهها. وهذه الرؤية تحتاج الى صياغة علمية ووفق رؤية بعيدة المدى، وتأخذ بنظر الاعتبار كل المقومات اللازمة لإنجاحها من اعتبارات فنية وإدارية ومالية، فضلا عن الإحاطة بالمتغيرات المحلية والإقليمية والدولية، لان رؤية بهذا المستوى ليست من السهولة صياغتها بنجاح.

الهوامش:

1 – دستور جمهورية العراق لسنة 2005.

2 – http://www.iraqbodycount.org/database

3 – مجلة "المستقبل العربي"، العدد 423 أيار 2014.

4 – المصدر السابق.

5 – Regulatory Consultation ، AMENA–OECD PRACTITIONERS . GUIDE FOR ENGAGING STAKEHOLDERS IN THE RULE–MAKING PROCESS.

6 – تقرير الشفافية الدولية لسنة 2011.

7 – تقرير الشفافية الدولية لسنة 2012

8 – تقرير الشفافية الدولية لسنة 2015 .

قراءة في ازمة الديون الخارجية للبلدان النامية وبلدان الاتحاد الاوربي

د. عودت ناجي الحمداني

الدكتور عودت ناجي الحمداني حاصل على شهادة الماجستير في الاقتصاد السياسي من اكاديمية العلوم الاجتماعية في العاصمة البلغارية/ صوفيا، ثم على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا. عمل الدكتور الحمداني عضوا في هيئة التدريس في كلية القانون بجامعة سبها، وفي معهد الادارة العالي والمعهد العالي لإعداد المعلمين في ليبيا. كتب عشرات المقالات في الاقتصاد والسياسة نشرت معظمها في جريدتي "المدى" و"طريق الشعب". في عام 2014 صدر له عن (دار الرواد المزدهرة) كتاب بعنوان: صندوق النقد الدولي ودوره في تعميق ازمة المديونية الخارجية للبلدان النامية.

إن تاريخ المديونية الخارجية يشير الى ان ظاهرة الاقتراض الخارجي لا تقتصر على البلدان النامية وانما حتى بعض البلدان المتقدمة كاليابان، وأستراليا، والولايات المتحدة الأمريكية، قد لجأت الى الاقتراض الخارجي. فمنذ أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر توجه عدد قليل من البلدان النامية المستقلة في أمريكا اللاتينية الى طلب القروض الخارجية وتبعتها بلدان أخرى كالدولة العثمانية ومصر وتونس في منتصف القرن المذكور.

فقد توجهت البلدان النامية الفقيرة الى القروض الخارجية لتمويل الاستثمارات التي تضمنتها خططها التنموية لأجل الخروج من تخلفها الاقتصادي والاجتماعي، وقد استسهلت الاقتراض الخارجي لسد الفجوة القائمة بين المدخرات المحلية والاستثمارات المطلوب تنفيذها، خاصة وأن ظروف الإقراض الدولي التي سادت في فترة السبعينيات من القرض الماضي، كانت مشجعة على الاقتراض، ما جعل بعض البلدان النامية تعتقد أن الاقتراض الخارجي مصدرا بديلا للادخار المحلي وليس مصدرا مكملا له. وقد تفجرت ازمة الديون الخارجية في أغسطس عام 1982 بإعلان كبار الدول المدينة في امريكا اللاتينية، المكسيك والبرازيل والارجنتين العصيان عن تسديد خدمات ديونها المقدرة بنحو 93، 87، 43 مليار، على التوالي.

ففي بداية السبعينيات شهدت البلدان الرأسمالية الغربية انكماشا في الطلب الداخلي على الموارد المالية بسبب ميل معدل الربح إلى الهبوط، ما دفع المصارف التجارية الى التوجه إلى البلدان النامية

لاستثمار الفوائض المالية الضخمة المتراكمة في بنوكها من الدول العربية النفطية ومن الدول النفطية في الشرق الأوسط والدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة. حيث خططت البلدان الراسمالية الاحتكارية بذكاء للاستفادة من التخمة المالية المتكدسة في خزائنها وتدويرها في البلدان النامية الفقيرة لتحقيق الفوائد والارباح الخيالية التي لم تستطع تحقيقها في بلدانها. ولتحقيق هذا الغرض ابتدعت فكرة القروض الخارجية بذريعة مساعدة البلدان الفقيرة وعملت على تشجيعها على الاستدانة الخارجية. وقد اثبتت الوقائع ان القروض التي تقدمها البلدان الرأسمالية ومؤسساتها المالية الى البلدان النامية بحجة العون والمساعدة هي حلقة من حلقات الاستيراتيجية الامبريالية لاستعمار العالم الثالث ونهب ثرواته ومصادرة ارادة البلدان التي تقع في فخ الدين الخارجي.

فقد كان مجموع الديون الخارجية للبلدان النامية طويلة الأجل 62 مليار دولار في عام 1970. وخلال الفترة بين عام 1972 و1992 اقترضت دول العالم الثالث ما يقرب من 1935 مليار دولار ولكن مجموع ما سددته من اقساط وفوائد عن هذا الدين خلال نفس الفترة تقريبا اكثر من 2237 مليار دولار (1). غير أن الديون ارتفعت الى سبعة امثالها في فترة الثمانينيات حتى وصلت إلي 481 مليار دولار في عام 1980 واستمرت المديونية في الصعود الحاد فبلغ إجمالي حجمها بما فيها الديون قصيرة الأجل أكثر من 2000 مليار دولار في عام 1996 أي بزيادة قدرها اكثر من 32 مرة عما كانت عليه في عام 1970 (2).

ومن النتائج السلبية للمديونية ما يتعلق بصادرات البلدان النامية، حيث وصلت نسبة خدمات الدين إلى الصادرات 11.1%، 14.3% في عام 1975 و32.9%، 30.86% 30.3% في عام 1986. وتشير المعطيات إلى زيادة نسبة خدمات الديون الخارجية إلى إجمالي الناتج القومي في المناطق المختلفة. فقد بلغت هذه النسبة ذروتها في مناطق شمال أفريقيا والشرق الأوسط والدول المصدرة للنفط وأمريكا اللاتينية 3.1%، 1.9%، 2% في عام 1975 وارتفعت إلى 6.9%، 6.2% في عام 1986. ووصلت نسبة خدمات الدين إلى إجمالي الناتج القومي اقل مستوى لها في جنوب آسيا وشرق آسيا؛ حيث ارتفعت من 1.5%، 0.7% في عام 1975 إلى 1.6%، 3.7% في عام 1986 (3). وأخذت الديون الخارجية بالتصاعد الصاروخي، فوصلت في عام 2010 الى اكثر من 495 مليار دولار. وتقدر التقارير الاقتصادية الدولية حجم الديون الخارجية للبلدان النامية في عام 2016 باكثر من تريليون دولار.

وتشير التقارير الدولية الى أن حجم الدين الأفريقي قد بلغ 350 مليار دولار في عام 1997 في حين أن هذا الدين لم يتجاوز 110 مليارات خلال الثمانينيات من القرن العشرين. ومن الأسباب المباشرة لهذا الارتفاع زيادة خدمة الدين التي بلغت 86 مليار دولار أي ما يقارب 25% من أصل الديون. ان حجم الدين الإجمالي المستحق على الدول الافريقية يتصاعد بنحو يزيد على 4.4 مليار دولار سنويا وهو الأمر الذي يتجاوز إلى حد بعيد القدرات الاقتصادية والمالية لتلك الدول، في ان تتخطى ازمة ديونها الخارجية. وتشير المعطيات الى ان الوضع المتردي الذي تعيشه القارة

الافريقية ناتج عن غزارة ديونها الخارجية والعجز الواضح الذي تعانيه في استثمار ثرواتها، وعدم قدرتها الذاتية على توظيف ثرواتها للنمو الاقتصادي، ما زاد من وهن قواها وعمق مشاكلها. فقد ارتفع متوسط نسبة الدين إلى الناتج المحلي الإجمالي في دول أفريقيا جنوب الصحراء من 51% إلى حوالي 100% خلال الفترة بين 1982 و1992. واصبحت دول أفريقية يزيد حجم ديونها الخارجية على ناتجها المحلي الإجمالي (4).

وبالنسبة الى البلدان العربية فقد قدرت تقارير صندوق النقد الدولي ديونها الخارجية بنحو 330 مليار دولار في عام 1990 وواصلت ارتفاعها الحاد فبلغت نحو 203.5 مليار دولار بنهاية عام 2013، مقارنة بنحو 181.1 مليار دولار في عام 2012. وقد نشأت هذه الزيادات الكبيرة في الديون الخارجية بسبب افراط بعض الدول العربية بالاستدانة الخارجية لتمويل العجز المالي المتزايد من جهة، وبسبب ارتفاع أسعار الفائدة من جهة اخرى. وعند مقارنة حجم الدين الخارجي الى الناتج المحلي الإجمالي فقد بلغ في تونس والمغرب بنسبة 50% في عام 2000 واكثر من 100% في السودان وسوريا وموريتانيا لنفس العام. ووصلت خدمة الديون قياسا بالصادرات إلى أكثر من 30% في الأردن وتونس والمغرب وإلى ضعف هذه النسبة في لبنان (5).

إن الأزمة تبدو أكثر وضوحاً عند أداء خدمة الدين أي الاقساط والفوائد المترتبة على الدين نفسه، فقد بلغت الفوائد على الديون الخارجية للبلدان النامية أكثر من 536 مليار دولار بين عامي 1981 و1987 وهذا المبلغ يزيد على اصل الدين المقرر تسديده من الفترة ذاتها بمقدار 105 مليار دولار. وقد شكلت الفوائد نسبة 55.5% من خدمة اصل خدمة الدين لتلك الفترة (6).

أزمة ديون دول اليورو والاتحاد الاوربي

تفشت عدوى الديون الخارجية الى البلدان الرأسمالية الغربية واصبحت بعض الدول المتقدمة مهددة بالافلاس ومنها الولايات المتحدة الامريكية التي يشكل اقتصادها نحو 35% من الاقتصاد العالمي وتهدد كذلك بافلاس دول اخرى في الاتحاد الاوربي، وفي منطقة اليورو كاليونان وايطاليا والبرتغال واسبانيا. فقد فاق الدين العام للولايات المتحدة الأمريكية في يوليو عام 2011 حاجز 20 ترليون دولار وهو ما يناهز 98% من الناتج المحلي الإجمالي. ويبلغ نصيب الجهات الخارجية من هذا الدين 9.7 ترليون دولار أمريكي. أما الباقي فهو لأطراف داخل الولايات المتحدة الامريكية. وما يمثله هذا الرقم فان كل مواطن أمريكي يصبح مدينا بزهاء 46 ألف دولار أمريكي، وحين يقسم الدين العام على عدد دافعي الضرائب الأمريكان فتكون حصة كل واحد منهم قرابة 129 ألف دولار أمريكي. وحسب احصائيات عام 2015 فان الديون الخارجية للولايات المتحدة الامريكية تجاوزت 6 ، 15 ترليون دولار. ويعد حجم الديون مقارنة بالناتج المحلي مقياسا يعتمد عليه الكثير من المستثمرين والمؤسسات الاقتصادية الدولية في التعرف إلى قدرة الدولة على تحمل أعباء ديونها. ومن المعروف أن أثينا تحتل منذ سنوات صدارة قائمة دول المنطقة في هذا المجال، بديون تعادل 168.8% من ناتجها المحلي

الإجمالي، في وقت باتت فيه اليونان على مفترق طرق من البقاء ضمن الاتحاد الاوروبي أو الخروج منه بسبب أزمة الديون الخارجية (7). وقد اعلنت حكومة اليونان انها لن تدفع الالتزامات السنوية المترتبة على ديونها الخارجية 1.6 مليار يورو (1.775 مليار دولار) مستحقة لصندوق النقد الدولي مما يظهر عمق الازمة المالية التي تعاني منها اليونان.

لقد أثرت أزمة الديون اليونانية السيادية على منطقة اليورو بسبب التخوف من تخلف اليونان عن سداد ديونها التي تبلغ اكثر من 350 مليار يورو في عام 2008 أي ما يعادل 482 مليار دولار. وهذه الديون تفوق الناتج المحلي لليونان بمقدار 160% حتى وصل العجز إلى 13،6% في موازنتها. ووصل حجم الدين الحكومي اليوناني إلى 313 مليار يورو، وبإضافة الديون على البنوك والشركات اليونانية يصل إجمالي الدين إلى نحو نصف تريليون يورو. وتعتبر المفوضية الأوروبية أكبر دائن لليونان بمبلغ 130،9 مليار يورو، تليها دول الاتحاد الأوروبي بقروض تبلغ 52،9 مليار يورو، أما صندوق النقد الدولي فله نحو 20 مليار يورو من القروض، ولدى البنك المركزي الأوروبي وبنوك أوروبية ما قيمته 27 مليار يورو من السندات، وبعد عملية إعادة الهيكلة لديون اليونان التي تمت في عام 2012، هناك نحو 40 مليار ديون مستحقة لمستثمرين في العالم.

وقد أصبح الاتحاد الأوروبي نموذجا مرعبا في ارتفاع معدلات العجز والديون، فسجلت منطقة اليورو المكونة من 17 دولة ديونا بلغت 15،9 تريليون دولار، بارتفاع قدره حوالي تريليون ونصف الترليون دولار في السنة خلال الثلاث سنوات الأخيرة.

وبرغم تلقي بعض دول الاتحاد مساعدات الإنقاذ المالي، فان تقريرا أصدره الجهاز المركزي الأوروبي للإحصاء كشف عن فشل دول الاتحاد الأوروبي في تحقيق المعايير المنصوص عليها في اتفاقية ماستريخت المالي الأوروبي والتي تشترط عدم تجاوز معدلات العجز في ميزانية أي دولة أوروبية 3% من ناتجها المحلي، وحجم الديون 60% من الناتج المحلي، إلا إن مستوى الدين في عموم منطقة اليورو وصل في العام 2015 إلى 90،6 %. وذكر التقرير أن 17 دولة عضو في الإتحاد الأوربي و12 دولة من منطقة اليورو ومن ضمنها الدول المتلقية لمساعدات الإنقاذ المالي واصلت فشلها في تحقيق المعايير المنصوص عليها في اتفاقية ماستريخت للاستقرار المالي الأوروبي، في عدم تجاوز معدلات العجز في الموازنة وحجم الدين نسبة الى الناتج المحلي الإجمالي (8).

وذكرت تقارير صحفية ألمانية أن إيطاليا أصبحت مؤخرا إحدى دول منطقة اليورو التي تعاني من تفاقم في دينها العام، وقد لجأت روما لإدراج عوائد الدعارة وتجارة المخدرات والتهريب ضمن مصادر دخلها الرئيسة بهدف تقليل حجم ديونها الضخمة، وإظهار نفسها بمظهر القادرة على سداد أقساط الديون غير أن هذا لم يخفف من حدة مشكلة المديونية. ويمثل حجم ديون إيطاليا 135.1% من الناتج المحلي الإجمالي للبلاد، وهو ما يجعلها تحتل المرتبة الثانية في قائمة أسوأ الدول بمنطقة اليورو بعد اليونان من حيث ارتفاع حجم الديون مقارنة بناتجها المحلي.

وذكر تقرير يوروستات، أن البرتغال احتلت المرتبة الثالثة في حجم المديونية بعد إيطاليا بنسبة 129.6% تليها بلجيكا (111%)

ثم قبرص (106.8%)، وجاءت إسبانيا في المرتبة الخامسة بدين عام يعادل 100% من حجم اقتصادها.

إن إزمة الديون السيادية التي تعيشها دول اليورو هي في الواقع أزمة ديون خارجية وليست أزمة ديون سيادية. فقد ارتفعت الديون السيادية البريطانية الى نحو 9،5 تريليون دولار في عام 2015. وبلغت الديون السيادية لاسبانيا في العام 2014 بنحو 2،2 ترليون يورو نصفها تعود لمصارف وشركات المانية وفرنسية. ووفقا لتقرير البنك المركزي الأوروبي للإحصاء فان اسبانيا تتصدر قائمة الدول الأكثر عجزا في موازنتها، بمعدل بلغ 10،6%. من حجم الديون الخارجية المترتبة علىيها والمقدرة باكثر من ترليون يورو. فعندما انضمت اسبانيا الى منطقة اليورو كانت نسبة ديونها الخارجية لا تتجاوز 20% غير انها ارتفعت بشكل سريع فبلغت في عام 2009 نحو 90%. واصبحت تواجه مشكلة العجز عن دفع الديون المستحقة أو الاستدانة بسعر فوائد عالية. وبالنسبة الى فرنسا المثقلة بديون خارجية تقدر بأكثر من (1،8) بليون يورو في عام 2008 فعليها أن تتدبر أمرها لدفع هذه الديون، وليس من المستبعد أن تغطس في أزمة يصعب الخروج منها، في ظل إنعدام متزايد للثقة بين الدائنين الدوليين ونمو الديون وتراكم الفائدة المركبة.

وفي روما أظهر تقرير للمعهد الوطني الإيطالي للإحصاء «إستات» أن الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد منذ عام 2008 أدت إلى تآكل الادخار وضعف القدرة الشرائية للإيطاليين بعد أن كان الشعب الإيطالي من أكثر الشعوب. وعليه فان الوضع الخطير في الازمة المالية لبلدان الاتحاد الأوربي لا تكمن في وقوف إحدى دول اليورو وهي اليونان على أبواب الإفلاس وعجز الاقتصاد اليوناني عن التسديد فحسب، وانما من انتقال عدوى الإفلاس إلى البرتغال واسبانيا، المثقلتين بالديون والبطالة.

وخوفا من تفشي عدوى الأزمة اليونانية الى باقي البلدان الضعيفة في اسرة اليورو صوتت 11 دولة بالموافقة على خطة إنقاذ اليونان الثانية التي قدرت قيمتها بحوالي 160 مليار يورو.

ان مشكلة المديونية الدولية لا تكمن في حجمها فقط وإنما في مسار نموها السريع فخلال الفترة 2007 – 2015 قفزت ديون العالم من 70 تريليون دولار إلى 100 تريليون دولار. فارتفعت ديون الولايات المتحدة الأمريكية من 4.5 تريليون دولار عام 2007 الى أكثر من 6، 15 تريليون دولار في عام 2016. ووصلت ديون بعض دول الاتحاد الأوروبي إلى اكثر من تريليوني يورو. ويشير خبراء المصارف السويسرية الى أن المصارف الأوروبية كان لها الدور الأبرز في شراء الدين العام مما عزز العلاقات الخطيرة بين الدول الأوروبية ومصارفها.

وتقدم دراسة لصندوق النقد الدولي في عام 2013 نماذج لتضخم الديون السيادية، فتتوقع ارتفاع ديون الحكومة اليابانية من 234% من الناتج المحلي الإجمالي في عام 2014 إلى 258% في عام 2019، و زيادة حجم ديون الحكومة الفرنسية من 104% من الناتج المحلي الإجمالي إلى 119% في الفترة نفسها.

وفي المقابل ستتراجع ديون الحكومة الألمانية من 80% إلى 68% من الناتج المحلي الإجمالي في عام 2019. وتشير

الدراسة الى ان 80% من الدول التي شملتها الدراسة، وصلت فيها ديون الأسر مستويات مرتفعة، وان 74% من هذه الديون عبارة عن رهون عقارية، ففي الربع الثاني من العام الماضي ناهزت ديون الأسر في العالم 40 تريليون دولار مقارنة بنحو 33 تريليون في الربع الرابع من 2007. وفي الربع الثاني من عام 2014 بلغت ديون الشركات 56 تريليون دولار مقابل 38 تريليون في الربع الرابع من 2007، في حين زادت ديون المؤسسات المالية في الفترة نفسها من 37 إلى 45 تريليون دولار (9).

ان التدهور في أزمة الديون السيادية الأوروبية وضع كلاً من إسبانيا وإيطاليا الى جانب اليونان على خط النار، وبدأت المخاوف تتزايد بانتقال الوضع إلى فرنسا في حال لم تتم معالجته بشكل سريع، ما استدعى ذلك تدخل البنك المركزي الأوروبي لشراء السندات الإيطالية والإسبانية للحد من تدهور أسعارها وزيادة تكاليف التمويل التي يمكن أن تدخل الحكومة في مشكلة كبيرة لتنفيذ برامج التقشف الخاصة بها. ومن الجانب الاخر، فإن التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة، التي تم تخفيض تصنيفها الائتماني لأول مرة خلال 70 عاماً، إضافة إلى التخفيض الأخير لتصنيف اليابان، ألقت بظلالها على أوضاع الديون السيادية في العالم. وتقدر التقارير الدولية خسائر البنوك الاوربية بنحو 200 مليار يورو وخسائر في موجوداتها ما يقرب من 100 مليار يورو.

فقد تفجرت الأزمة المالية العالمية في بادئ الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية وانتقلت بسرعة الى البلدان الأوربية الأخرى وبدورها فجرت أزمات أخرى كأزمة الأسهم المالية وانهيار الشركات والبنوك والمؤسسات الصناعية مما شكل عبئا ثقيلا على الدول التي لم تتخذ الإجراءات الحازمة لمواجهة الأزمة. وأما انفجار أزمة اليورو التي اجتاحت دول اليورو وبعض دول الاتحاد الأوربي فإنها شكل آخر من الأزمة العامة للنظام الرأسمالي العالمي.

فقد ادى التدهور في قيمة عملة اليورو مقابل العملات الدولية الاساسية الى تحميل البنوك التجارية الاوربية خسائر مالية. وتحتل الولايات المتحدة الأمريكية المركز الخامس عشر عالمياً من حيث ضخامة الديون، اذ بلغ حجم ديونها الخارجية 16،7 ترليون دولار في عام 2016. حيث وصلت نسبة الديون الفيدرالية الى نحو 105.6% من الناتج المحلى الإجمالي. تأتى البرتغال بالمركز السابع بنسبة ديون تبلغ 126.35%، وايرلندا بالمركز العاشر بنسبة ديون 107.75%، وبلجيكا بالمركز الثالث عشر بنسبة ديون تبلغ 106.57%، وقبرص بنسبة ديون 105.67%، وتأتي أسبانيا بالمركز الثامن عشر بنسبة ديون 99.44% . فى حين احتلت فرنسا المركز العشرين بنسبة ديون 97.01% (10).

ووفقا لوكالة رويترز في 6\11\2011 فان الرئيس الصيني الذي حضر مؤتمر القمة العشرين الذي عقد في باريس قد أشار ضمنيا خلال لقائه بالرئيس الفرنسي ساركوزي إلى رفض الصين تقديم اي دعم مالي الى أوربا، وأكد (على أوروبا أن تحل أزمتها بنفسها) وبخلاف هذا الموقف الصيني من دول الاتحاد الأوربي، فقد دعمت الصين الاقتصاد الأمريكي بنحو 1،14 ترليون دولار عبر شرائها كمية من سندات الخزينة الامريكية وشراء ما قيمته أكثر من ترليون دولار أسهما لشركات

أمريكية. ونستنتج من ذلك أن الاتحاد الأوروبي الذي يغرق في ازمات مالية ونقدية عنيفة فانه مهدد بالانهيار والتفسخ بسبب نظامه الاقتصادي الرأسمالي.

إن الخطر الأكبر في الديون الخارجية يكمن في ان الجهات الدولية الدائنة تستخدم المديونية كهراوة للضغط على البلدان المدينة والتدخل في شؤونها الداخلية والمساس بسيادتها الوطنية ومصادرة قرارها الوطني في خياراتها الاقتصادية.

فقد اعتمد واضعو السياسة الاقتصادية في الدول النامية عند وضع استراتيجيات التنمية والخطط المتفرعة عنها على تطبيق نماذج جاهزة للنمو وضعها الفكر الاقتصادي الرأسمالي دون مراعاة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في هذه البلدان، وحينما لجأت الدول النامية إلى التمويل الخارجي لم ترسم لنفسها سياسة واضحة وسليمة للاقتراض وقد أدى غياب هذه السياسة إلى حدوث أخطاء جسيمة ساهمت بشكل مباشر في تفجير أزمة الديون الخارجية وتتجلى هذه السياسة الخاطئة في:

1 – عدم وجود رؤية واضحة حول حدود المدى الزمني للتمويل الخارجي.

2 – تمويل الواردات من السلع الاستهلاكية التي لا تساهم في زيادة الطاقة الانتاجية للبلد ولا تخلق مورداً لتسديد أعباء القروض.

3 – استخدام قروض قصيرة الأجل ذات تكلفة عالية لتمويل استثمارات طويلة الأجل.

4 – عدم مراعاة التزامن بين سداد القروض وتشغيل الطاقات الانتاجية الممولة بواسطة هذه القروض.

5 – حدوث أخطاء جسيمة في تقييم المشاريع الممولة بواسطة القروض الأجنبية.

6 – تنفيذ أنواع من المشاريع التي لا تلبي الاحتياجات االضرورية لفئات المجتمع ولا يؤدي إلى الاستخدام الأمثل للموارد.

وإلى جانب السياسات المحلية ساهمت مجموعة من العوامل الخارجية في انفجار وتفاقم أزمة المديونية الخارجية، وفي مقدمة هذه العوامل الصدمة النفطية الأولى في عام 1973 والثانية في عام 1979م وارتفاع سعر الدولار الامريكي والارتفاع الجنوني في أسعار الفائدة في الأسواق الدولية. وقد حدث تفاعل بين حاجات البلدان النامية المتزايدة الى السيولة المالية لتمويل وارداتها السلعية ومشاريعها التنموية وحاجة البلدان الصناعية المتقدمة والمصارف الدولية الى مخارج لتدوير التخمة المالية المتكدسة في خزائنها. وفي هذا الوضع تسارعت حدّة استدانة البلدان النامية من الدول الصناعية المتقدمة والبنوك والمؤسسات المالية الدولية؛ ففي فترة وجيزة بين عام 1975 و1982 شهدت المديونية الخارجية تصاعداً خطيراً اتسم بارتفاع معدلات الفائدة وارتفاع سعر صرف الدولار وأسعار الطاقة ويعني ذلك أن الاستدانة كانت تتم بأسعار مرتفعة وباهظة التكلفة. وقد أدت هذه الظاهرة إلى عواقب وخيمة على البلدان.

وتظهر المبالغ الضخمة التي دفعتها البلدان المدينة الى الجهات الدولية الدائنة مفارقة غريبة لا يمكن تجاهلها وتتمثل في انه بعد مرور ثلاثة عقود من محاولة علاج مشكلة المديونية الخارجية تجد البلدان النامية نفسها تتحمل عبء ديون تضاعفت عدة مرات. وتشير إحصاءات "حملة شبكة جوبيلي" لإلغاء الديون، الى أن القارة

الافريقية تدفع 40 مليون دولار يوميا أو ما يعادل 14 بليون دولار في عام 1999 وذكرت شبكة جوبيلي، انه تم إلغاء 15 بالمائة فقط من الديون، وأن الدول النامية تنفق 13 دولارا في تسديد الديون مقابل كل دولار تحصل عليه كمساعدة تنمية. ونتيجة لتلك المبالغ الطائلة فإنه يتعذر على الدول الفقيرة المدمرة بسبب الجوع والمرض وإنخفاض متوسط العمر وبسبب العبء الزائد من الديون لا يمكن انفاق الا القليل جدا من الأموال على الرعاية الصحية والتعليم.

إن امتناع الدول الصناعية المتقدمة عن تزويد البلدان المغرقة بالديون بمنجزات الثورة العلمية التكنولوجية المناسبة وفرض اتجاهات معينة عليها في التصنيع بما يحقق مزيداً من التبعية التكنولوجية والمالية للبلدان الرأسمالية الدائنة قد ساهم بشكل كبير في تزايد حجم ديون البلدان المدينة. والملاحظ ان استفحال ازمة الديون الخارجية ارتبط دوما باضطراب الاوضاع الاقتصادية والمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة. فبقدر ما يزداد لهاث الرأسمالية وراء المزيد من الارباح والسيطرة والاحتكار بقدر ما تزداد شروط الدين شدة وقسوة.

بعد أحداث سبتمبر في عام 2001 التي تعرضت فيها الولايات المتحدة الامريكية الى هجمات ارهابية اعلن الرئيس الأمريكي بوش في خطابه الذي ألقاه بمؤتمر الامم المتحدة في مارس عام 2002 بـ(أن تدفق الأموال الى الدول النامية والفقيرة سيتوقف على احترام هذه الدول لحقوق الانسان واتخاذها إجراءات فعالة لاقتلاع جذور الارهاب والفساد، فضلا عن فتح اسواقها، والاعتناء بنظام التعليم والرعاية الصحية. ان الولايات المتحدة الامريكية ستتعامل بشكل صارم مع ذلك). وتأتي هذه التوجهات الامريكية والتأكيد على الصرامة في التعامل مع البلدان المقترضة والفقيرة في محاولة لابتزاز البلدان النامية واستغلال ظروفها الاقتصادية الصعبة لإجبارها على انتهاج سياسات رأسمالية كالخصخصة واقتصاد السوق والتجارة الحرة والعولمة وغير ذلك من الأدوات الطفيلية التي تحقق مصالح الدول الصناعية الكبرى.

فالتغيرات التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية والازمة المالية الدولية الراهنة التي يعيشها العالم الرأسمالي وتداعياتها المدمرة على البلدان الاخرى جعلت ظاهرة الدين الخارجي تقفز الى مكان الصدارة.

ان الدول الغربية قد وضعت القانون الدولي لخدمة مصالحها الإستراتيجية عندما كانت تستعمر العالم. وان العدالة والمساواة تفترض حق الدول النامية المشاركة في وضع قواعد واسس القانون الدولي ومن حق هذه البلدان أن تطالب بتغيير قواعد القانون الدولي الذي وضعته البلدان الرأسمالية الغربية لضمان مصالحها وسيطرتها على الاقتصاديات النامية، ولهذا فمن حق البلدان النامية أن تعلن رفضها التام لسداد الديون الخارجية وإلغاءها نهائياً. كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية التي رفضت سداد القروض الخارجية لكل من فرنسا وبريطانيا. فأزمة المديونية هي أزمة بنيوية خطيرة وعميقة نابعة من عدم ملاءمة السياسات الاقتصادية لصندوق النقد الدولي مع خصوصيات البلدان المقترضة، فالتوجهات الاقتصادية لأي بلد يجب أن تكون نابعة من منهجه الاقتصادي وفلسفته الاقتصادية.

وفي ظل النظام الاقتصادي الدولي الحالي والتوجه نحو العولمة المتوحشة سيزداد غنى الأغنياء وسيزداد معه فقر الفقراء. فالنظام الدولي هو المسؤول عن حالة الفقر الجماعي وحالة التخلف الاقتصادي والتقني في البلدان النامية وهو المسؤول عن أزمة الديون الخارجية، لذا فإن العالم مطالب اليوم بإحداث تحولات بنيوية جذرية في مجمل أسس وشروط العلاقات الاقتصادية الدولية وإيجاد نظام اقتصادي عالمي متعدد الاقطاب، بديلا عن النظام الاحادي القطبية في سبيل تحقيق العدالة والمساواة في العلاقات الاقتصادية الدولية.

مواجهة الازمة

إن مواجهة أزمة الديون الخارجية تتطلب الاعتماد على الذات بشكل أكبر وبصورة متزايدة في ضوء معطيات الاقتصاد الوطني وتطورات النمو. ان استراتيجية التنمية المتجهة نحو اشباع الحاجات الأساسية للسكان يجب ان تركز على تعبئة الفائض الاقتصادي الممكن، وعلى صياغة نموذج تنموي يتجه اساسا الى الداخل، يركز على اشباع حاجات السكان من الغذاء واللباس، والسكن الملائم ومياه الشرب الصحية والمواصلات وخدمات الصحة والتعليم والثقافة وما شابه ذلك. إذ لا يمكن التخلص من مصيدة الديون الخارجية وعدم الوقوع فيها مستقبلا إلا بالتصدي الواعي لقضية الأمن الغذائي مما يتطلب تحقيق الثورة الزراعية ودعم التعاون بين دول العالم الثالث في هذا المجال. فالتصدي لازمة المديونية يتطلب بالضرورة الابتعاد عن الاقتراض وتأمين الاحتياطيات الأساسية بحيث تزيد من إيرادات النقد الأجنبي وتقلل من الاستيراد الخارجي، وبالتالي خلق إمكانية متزايدة لتسديد الديون وهذا يتطلب العمل على ما يلي:

1 – كسر علاقات التبعية الخارجية والاتجاه نحو استراتيجية الاعتماد على الذات بابعادها العالمية والاقليمية والمحلية، فعلى المستوى العالمي يجب الاسراع بتكوين ناد دولي قوي ومتماسك للمدينين للدفاع عن مصالحهم في مواجهة بأس وقوة نادي باريس الذي يمثل الدائنين الدوليين والتوصل الى حلول مقبولة لازمة المديونية.

2 – مطالبة الجهات الدولية الدائنة بتجميد الديون الخارجية لمئة عام على الاقل لحين تستطيع البلدان المثقلة بالديون من بناء اقتصادها الوطني وتجاوز مشاكلها المالية والاقتصادية.

3 – على المستوى الاقليمي ينبغي دعم اوجه التعاون بين التكتلات الاقتصادية الاقليمية الموجودة بين مختلف مجموعات دول العالم الثالث الامر الذي سيؤدي الى تحقيق نتائج هامة في حل معضلات الديون والتنمية من خلال ما يسمى بالاعتماد الجماعي على الذات.

4 – على المستوى المحلي يجب وقف الخضوع الأعمى لشروط الدائنين وخاصة صندوق النقد الدولي ووضع سياسة حكيمة للاقتراض الخارجي، وعلاج مشكلة الطاقات العاطلة وعلى وجه الخصوص الطاقات المنتجة.

5 – على المستوى المتوسط والطويل الامد يجب العمل على التخلص بشكل نهائي من الازمة ويمكن ان يتحقق ذلك من خلال الاستمرار بالتنمية ودون الاعتماد بشكل رئيسي على الموارد الخارجية من خلال: استخدام الموارد المتاحة استخداما عقلانيا

في القطاعات الإنتاجية. وتبني استراتيجية اشباع الحاجات الاساسية وتوفير الحماية للصناعات المحلية، وتوسيع الأسواق الداخلية.

ونستنتج من التداعيات التي خلفتها المديونية الخارجية، ان البلدان النامية ستكون في وضع افضل لو لم تلجأ الى الاستدانة الخارجية، فالمديونية شكلت تكلفة مرتفعة على اقتصاديات البلدان النامية المدينة، وضغطا متزايدا على توازنها الاجتماعي واضطراب في امنها السياسي، ووصل الكثير من هذه الاقتصاديات الى حالة الركود ووقعت فريسة للحلقة المفرغة وهي مطالبة بتنبي اجراءات تصحيحية في المدى القصير لضمان قدرتها على التسديد.

إن البلدان المدينة قد دفعت قيمة الديون الخارجية أضعافا مضاعفة على شكل أقساط وفوائد وهذا الموقف سيجعل البلدان المدينة أمام مهمة التكاتف والتحالف واتخاذ مواقف موحدة وحازمة لمواجهة الجهات الدولية الدائنة وإجبارها على شطب الديون المسجلة عليها، ولهذا ننادي بتشكيل ناد للمدينين لمواجهة نادي الدائنين.

المصادر:

(1) عزت ابو العز، تجربة مصر في ادارة الدين الخارجي، صندوق النقد العربي، سلسلة بحوث، العدد 4، ابو ظبي، 1998.

(2) روبرت باول، تخفيف الديون على البلدان الفقيرة، مجلة "التنمية"، صندوق النقد الدولي، العدد 4، سنة 2000.

(3) International Monetary Fund، World Economic Outlook April، World Department Tables، External debt of Developing Countries، vol.1، Analysis and summering table، 1987–1988، edition.

(4) البنك الدولي، جداول ديون العالم الثالث لسنة 1994 – 1995.

(5) التقرير الاقتصادي السنوي، جامعة الدول العربية، اعداد مختلفة .

(6) صندوق النقد الدولي، مجلة التمويل والتنمية، المجلد 21، العدد رقم 3، سبتمبر عام 1988، ص18.

(7) المركز العربي الألماني، تقرير، أزمة اليورو وتداعياتها الأوربية والعالمية، برلين، تشرين الثاني العدد 22، نوفمبر، 2011.

(8) المركز العربي الالماني، تقرير، ازمة اليورو وتداعياتها الاوربية والعالمية، مصدر سابق.

(9) هل سينهار الاتحاد الاوربي، صحيفة "الواشنطن بوست" في 7 /5 /2015.

(10) فضائية الجزيرة، حوارات متلفزة، ابعاد ازمة اليونان على الاتحاد الاوربي، 8 اذار، 2016.

موارد الوقف المتراكمة بحاجة لتنظيم حديث ورقابة جادة

د. مجيد مسعود

«الوقف: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة»
ابن قُدامة
548 – 620 هـ

نحاول في هذه المقالة تقديم لمحة – لغير المتخصصين – تعريفاً بالوقف وموارده المتراكمة، وعن دوره الاقتصادي والاجتماعي، وحاجته الراهنة لتنظيم حديث ورقابة جادة.

الوقف ليس من العبادات، وإنما هو من المعاملات. أي أنه عمل تطوعي من المقتدرين المحسنين، بهدف فعل الخير ((وافعلوا الخير لعلكم تُفلحون – الحج 77)).

والوقف ينبغي أن يُنتفع به، مع بقاء الأصل:

أرض، عقار، بستان، آبار، مياه... الخ. وهذه الموقوفات لا يجوز الرجوع عنها من قبل الواقف، أو بيعها، لأن المقصود منها هو تأبيدها. ولهذا فهي تتراكم لإستمرار المحُسنين بالتبرع للوقف.

• **الوقف نـــوعان:**

الأول – الوقف الذري، وهو ما أراد به الواقف ذريته، أولاده وبناته واحفاده... وإذا إنقطعت شجرة ذريته، استحق هذا الوقف للفقراء والمساكين.

الثاني – الوقف الخيري، وهو ما يُخصص من قبل الواقف في أوجه الخير المتنوعة. وقد يرغب بعض المحسنين بأن يكون ما أوقفه، جزء منه لأولاده وبناته وأحفاده، والجزء الآخر لأوجه البرّ المتعددة.

وهناك من سمى هذا النوع من الوقف المزدوج الاستعمال بالوقف الأهلي – الخيري.

ومن أنـواع الوقف الأخرى ما ذهبت إليه بعض السلطات الحاكمة، عندما اقتطعت من بيت مال المسلمين واوقفته على بعض المصالح العامة. ولما كان الوقف يشترط أن يكون الواقف هو المالك الفعلي، والحكام في هذه الحالة لا يُعتبرون مالكين لبيت مال المسلمين، ولكن بعض الفقهاء يوم ذلك افتوا بجواز ذلك.

وكمثال لهذه الحالة، المدرسة المستنصرية في بغداد، التي انشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله عام 631 هـ. وقد وفر لها من بيت مال المسلمين كل مستلزمات الدراسة فيها.

وكانت رائدة في مجالها لنشر المعرفة وتطورها.

• **صيغة الوقف:**

تُعبر هذه الوثيقة عن ما يصدر من الواقف للدلالة على انشاء الوقف. والتي يصبح بموجبها الوقف لازماً ولا يجوز فسخه ولا بيعه ولا توريثه ولا هبته. فإذا صح الوقف

بهذه الشروط، لزم وانقطع تصرف الواقف فيه. والمعروف بشأن الوقف إسقاط الزكاة عنه. وراهناً لا ضريبة على موارد الوقف.

حالة الوقف المعطلة المنافع منه

قد يصيب الوقف ما يجعله مُعطل المنافع منه، مثل بناية تهدمت ولم تعد صالحة للاستعمال، أو مسجد ضاق بمرتاديه، ولم يمكن توسيعه بنفس المكان. أو عقار قل مورده بشكل لا يكفي لترميمه وإستدامته، وما شابه ذلك.

لمعالجة هذه الحالات تعددت الاجتهادات، فمن افتى باستبدال مثل هذا الوقف المعطل المنافع منه، أو حتى بيعه وشراء ما يعادله. أي ما دام لم يحصل المقصود من الواقف لوقفه صح أن يباع ويشترى بثمنه ما يقوم مقامه لتحقيق المصلحة العامة التي توخاها الواقف. يمكن من ريع الوقف ترميمه واصلاحه وتحديثه لإبقائه صالحاً يمكن الانتفاع منه.

الوقفيات أساساً داخل البلاد، ويمكن كما تشير بعض الوقائع إلى وجود محسنين خارج البلاد لهم وقف في بلادهم يوصون أن يُخصص ريعه لدور العبادة والمدارس الدينية ومن يقوم بخدمتها ورعايتها داخل العراق.

إدارة الوقف

هذه الموارد الوقفية المتراكمة يحتاج كل منها أو مجتمعه إلى من يقوم برعايتها وابقائها صالحة للاستعمال المجدي.

لقد جرت محاولات جادة من بعض المختصين على صيانة الوقف وتعميره، بل حتى وتحديثه. وعلى سبيل المثال، كتب المعماري رفعة الجادرجي (في كتابه: صورة أب، ص 140): "بعد تعييني مهندساً في مديرية الأوقاف، دخلت أنا في جدل طويل مع المشتغلين في الدائرة بشأن خطةٍ لي بخصوص تعمير منشآت الأوقاف. انقسمت على اثرها إدارة الأوقاف إلى قسمين، احدهما يؤيد التعمير والآخر يعارضه".

وفيما يخص إدارة الوقف، كانت البداية أن يُوصي الواقف بأن يتولى هذا الأمر المتولي للوقف، بشرط أن تتوفر فيه النزاهة وأن ينفذ ما جاء في صيغة الوقف التي أرادها الواقف، مادامت لا تتعارض مع الشرائع الدينية. علماً بأن الولاية للوقف يمكن أن تكون للمرأة أيضاً. كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب بأن جعل الولاية لوقفه لابنته حفصة كما جاء في المصادر المعنية بذلك. وفي حالة غياب الولي، يقوم القاضي الشرعي بتكليف ولي جديد، ممن تتوفر فيه (أو فيها) شروط الولاية. ومن مهام الولي (الناظر) هي القيام على النظر في مصلحة الوقف، وإنمائه والتصرف في ريعه حسب وصية الواقف.

والمعروف هو أن يحدد الواقف أجراً للولي، وإذا لم يفعل ، فيقوم القاضي الشرعي بتحديد ذلك.

ومع مرور السنوات تكاثرت موارد الوقف: مساجد ، مدارس ، عقارات ، مزارع .. وما في حكمها فتطلب الأمر تنظيماً جديداً للوقف. وقد انشأ الوزير العباسي علي بن عيسى (ت 334 هـ) في العراق « ديوان البرّ « لإدارة الوقف والإشراف على المتولين.

وبعد سقوط الخلافة العباسية عام 656 هـ أصبح الأمر في عُهدة ما يسمى « صدر الوقف» وهو أعلى سلطة لإدارة الوقف. بعدها صارت مرجعية إدارة الوقف إلى

قاضي القضاة في بغداد. وهو الذي كان يحاسب المتولين، ومتابعة شؤون دور العبادة والعاملين فيها.
وعندما تأسست الدولة العراقية عام 1921 بدأت السلطات الحكومية تتدخل في شؤون الوقف إلى جانب المرجعيات الدينية المشرفة على العتبات المقدسة والمدارس الدينية والمساجد وبقية الموارد الوقفية. وأخيراً صارت السلطة الحاكمة العراقية هي صاحبة الصلاحيات المتعددة في إدارة الوقف بالتعاون مع المرجعيات الدينية، متوزعة لعدة إدارات، تحت مسميات: ديوان الوقف السني وديوان الوقف الشيعي وديوان الوقف للديانات الأخرى.
أتفق مع الباحث منعم جابر بقوله: « ثلاثة أوقاف نريدها وقفاً واحداً، لأننا ندعو ونطالب ونتظاهر ونعتصم دفاعاً عن هوية العراق ووحدته «، كما جاء في جريدة «طريق الشعب» الصادرة في بغداد يوم 7 نيسان 2016. واضاف الباحث منعم جابر لعل الخطوة الأولى والمهمة هي دمج دوائر الأوقاف بكل مسمياتها وتحت عنوان واحد هو:

«هيئة الأوقاف العامة»

وأرى أن تضع هذه الهيئة لها استراتيجية يكون من أركانها الأساسية: أن الدين لله والوطن للجميع .
والتأكيد على الروح الإنسانية والوطنية العراقية، والقبول بالعراق الواحد المتعدد المتنوع واعتبار ذلك مصدر ثراء لهذا الشعب بتراثه العريق الذي ساهم به أبناء وبنات كل الديانات والمذاهب التي تعايشت ومازالت في هذا الوطن الغالي على الجميع.
ومع ازدياد هذه الموارد الوقفية المتراكمة باستمرار، أرى أنها بحاجة إلى تنظيم حديث يعمل بشفافية ومراقبة الجهات المعنية بهما.
وهذا الأمر يتطلب عقد ندوات تشارك بها الجامعات ومراكز البحوث لتشخيص هذه الظاهرة واقتراح الحلول المناسبة .
وكمثال يمكن أن تتشكل هيئة عليا للوقف (1) تتمثل فيها السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والمرجعيات الدينية ومنظمات المجتمع المدني.
ويكون لهذه الهيئة جهاز أداري كفؤ ونزيه للقيام بتوثيق الوقفيات بتصميم ملف أو بطاقة لكل وقفية تتضمن جميع المعلومات عنه.
وبتوجيه هذه الهيئة العليا للوقف المقترحة، يضع جهازها الإداري الفني البرامج لتنمية الوقف وتعميم الانتفاع منه للمستحقين الحقيقيين.
وأن تكون لهذا التنظيم ميزانية سنوية ترصد الايرادات والمصروفات تناقشها وتصادق عليها الهيئة العليا للوقف، وتتابع تنفيذها بشفافية من خلال وسائل الأعلام.
وأقترح أن يتضمن هذا التنظيم الحديث للوقف عدة صناديق متخصصة ، منها على سبيل المثال:
صندوق للعناية بالعتبات المقدسة وكافة دور العبادة لكل الأديان والمذاهب المتعايشة في العراق، وتأمين احتياجاتها وصيانتها، وتطوير القوى البشرية المكلفة بإدارتها وحمايتها .
صندوق للاستثمارات الوقفية وتنميتها وتوجهها لبناء المساكن قليلة الكلفة لسد احتياجات المحتاجين للسكن ولا سيما المعلمين ومن في حكمهم بإيجارات تناسب دخلهم المحدود، واعداد دراسات الجدوى

الاقتصادية لمشاريع انتاجية توفر فرص العمل للعاطلين وتدر دخلاً للوقف.

صندوق لدعم النشاط العلمي والثقافي والاكثار من المراكز الثقافية والمكتبات لنشر ثقافة التنوير الديمقراطية وتصحيح كتب التراث والمناهج الدراسية لتعريف الجيل الجديد على صحيح الدين والمشترك فيما بين الأديان لبذر الروح الإنسانية والتآخي واحترام الآخر والاعتراف بحقه بمعتقداته.

صندوق للتعامل مع انماط النشاط الاقتصادي الحديث، مصارف، شركات، تأمين، شركات مساهمة ، تعاونيات..... الخ.

إن نشاط الوقف قد مارسته شعوب عديدة وفي ظل أديان ومعتقدات متنوعة ، وحالياً في الدول المتقدمة اقتصادياً يتبرع بعض الأثرياء بكل أو جزء من ثروتهم للعمل الخيري، ويا حبذا لو قلدهم أثرياء بلدنا.

عندما أعددت كتابي : الحسابات القومية كقاعدة معلومات للتخطيط، الذي صدر عن دار طلاس بدمشق، توقفت عند أشكال الملكية المعترف بها في نظام الأمم المتحدة للحسابات القومية والمطبقة في بلادنا العربية ومنها العراق، وهي: الملكية لوسائل الانتاج السائدة حالياً في التعامل الاقتصادي التطبيقي، العام، المشترك ، التعاوني، الخاص.

إذن أين نضع ملكية الاوقاف عند حسابات الثروة والدخل ومساهمة الملكيات فيها؟ وهذا ما يتطلب الحوار فيما بين المعنيين والمختصين بهذا الشأن للاتفاق على الحل المناسب، والاستفادة من تجارب الدول الأخرى في هذا المجال.

بهذه المقالة الموجزة حاولت المشاركة مع المهتمين بالموضوع وبشكل خاص الممارسين فيه للتوصل للحل المناسب. وذلك من أجل العناية بالموارد الوقفية وصيانتها وتوجيه منافعها للمستحقين. وأن يتحقق ذلك برقابة جادة من خلال المجالس المنتخبة ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الأعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة.

الهوامش:

(1) خلال أيام التسامح السورية كان المواطن فارس الخوري مديراً للأوقاف الإسلامية، وعندما اعترض البعض على ذلك، خرج نائب الكتلة الإسلامية في المجلس عهد ذلك، وهو عبد الحميد طباع ليتصدى للمعترضين قائلاً: إننا نؤمّن فارس بك الخوري – وهو المسيحي – على أوقافنا أكثر مما نؤمن أنفسنا. وقد تسلم هذا المواطن السوري عدد من الوزارات وحتى وصل إلى رئاسة مجلس الوزراء. وفي العام 1945 كان فارس الخوري ممثلاً لبلاده في مجلس الأمن الذي تشكل بعد أنتهاء الحرب العالمية الثانية. دخل فارس الخورى وجلس على مقعد المندوب الفرنسي ولما وصل هذا الأخير واخبره ألم تجد اسم فرنسا وعلمها فكيف تحتل هذا المقعد ظل فارس الخورى ساكتاً، مبتسماً مما أغاض المندوب الفرنسي الذي أرعد وأزبد وتجمع المندوبون حولهم، عندها وقف فارس الخوري ووجه كلامه للمندوب الفرنسي قائلاً لم تتحمل وجودي على مقعد فرنسا 25 دقيقة، بينما جيشكم الفرنسي المحتل ظل جاثماً على أرض بلادي سوريا اكثر من عقدين من الزمن. هذا وقد نالت سوريا استقلالها في تلك الجلسة بمجلس الأمن ... الذكر الطيب للمواطن السوري فارس الخوري.

تشكل نشوء وتطور" الفئات الهامشية" المدينية في البلدان النامية -الأحوال الاجتماعية والجذور الطبقية-

د.صالح ياسر
باحث اقتصادي

تتعاظم الحاجة اكثر من أي وقت مضى الى دراسات اكثر انضباطا – منهجية – للتكوينات الاجتماعية في "العالم الثالث" ولتحليل اكثر ملموسية للبنية الاجتماعية والوزن النوعي لكل طبقة وفئة وشريحة اجتماعية بشكل صحيح. وبالرغم من "السيل الهائل" من الدراسات التي ظهرت، ما زلنا لحد اللحظة على دراية بواقع هذه المجتمعات هي اقرب الى المعرفة العادية منها الى المعرفة العلمية، في احيان عديدة، هذا عدا عن اختلاط المفاهيم واضطرابها. ومن هنا تتأتى ضرورة التأمل في الواقع، ورؤيته كما هو، وليس تفصيله وفق مقاسات نظرية مخططة في الذهن، غير قابلة للنقاش، وتبدو وكأنها كلية القدرة ! نبدأ معالجتنا هذه بسؤال بسيط: **لماذا التأمل في " الفئات الهامشية" ؟** يتعين ابتداء التأكيد على أنه بالرغم من العديد من المحاولات إلا أن مفهوم "الفئات الهامشية" ما زال بعيدا عن الوضوح النظري، فالمصطلح يستخدم، في واقع الأمر، من قبل البعض (1) كأداة منهجية مساعدة للتحليل النظري العام لأزمة التشكيلات التابعة، في حين يستخدمه البعض الاخر لتحليل بعض جوانب أزمة التشكيلات الرأسمالية المتطورة (2). ومن هنا تنشأ الحاجة الى تحديد ما إذا كان هذا المفهوم يستند الى قاعدة نظرية قوية فعلا، وما اذا كان يضيف لفهمنا شيئا جديدا، عن خصائص وديناميكية هذه التشكيلات. وعند دراسة هذه الظواهر يمكن العثور على العديد من المصطلحات مثل: **الفئات الهامشية، البروليتاريا الرثة، حثالة البروليتاريا، رعاع المدن.... الخ**، ينطرح سؤال بسيط: هل هذه المفاهيم عبارة عن مترادفات Synonims ، تعبر جميعا عن ظاهرة (أو ظواهر محددة) أم لا؟ فإذا كانت هذه المفاهيم تعبر عن ظاهرة محددة، فما هي الضرورة الموضوعية لهذه التسميات المختلفة؟ وإذا انطلقنا من مبدأ منهجي عام هو أن لكل مفهوم أو مقولة حقل محدد، عندها ينطرح سؤال آخر: **هل تنتمي هذه المفاهيم لحقل واحد؟، وما هو مبرر هذا التداخل، أو الاضطراب؟ وأخيرا**

ما هو المقصود بالهامشي من وجهة النظر العلمية، وما هو المقصود بالرث، أو الحثالة، وهل هي مصطلحات علمية أم لا؟

نظرا لأن معظم الدراسات تعرض هذه الفئات وكأنها "نتاج" تطور التشكيلات الرأسمالية، سواء في "مراكزها" أم "أطرافها"، ينطرح سؤال ملح أخر هو: **هل أن ظاهرات من قبيل " الرث " أو " الهامشي " ... الخ هي ظاهرات مرتبطة بنشوء وتطور الرأسمالية فقط أم أنها تظهر في تشكيلات أخرى، وفي ظروف أخرى؟**

إن التوصيفات، ان تم قبولها دون تدقيق، ستتركنا حيارى أمام هذا " التشابك الغريب " بين مجموعة من المفاهيم تريد أو تسعى لتوصيف مجموعة من الظواهر ولكنها لا تعي ماهي مضامينها وتجلياتها المختلفة. لذلك تبدو صحيحة الاطروحة القائلة " بضرورة التميز " الواضح بين ادوات نظرية مصاغة على مستوى التجريد ... " وبين الادوات التحليلية اللازمة لدراسة أوضاع محددة تكون اكثر تعقيدا وتشابكا " (3).

ومن اجل ضبط مفهوم "الفئات الهامشية، أو الرثة... الخ" لابد هنا من رؤية العديد من القضايا ومن بينها تلك المتعلقة باشكالية التكوين الاجتماعي الذي تنشأ وتتطور فيه هذه " الفئات ".

تشكل، نشوء وتطور "الفئات الهامشية" المدينية في البلدان النامية

- الاصول الاجتماعية والجذور الطبقية-

من المفيد أولا أن نشير الى أن تحديد جذور هذه الفئات يحب أن يرتبط بتحليل خاصية تطور التكوين الاجتماعي في بلدان "الاطراف". إن هذا المدخل سيسمح لنا بإجراء مقاربة بين سيرورات نشوء وتطور البلدان المتطورة وبلدان " الاطراف "، وبالتالي تحديد جذور الاختلاف في النشوء وما يترتب عليه من ضرورة انتاج مجموعة جديدة من المفاهيم التي تعبر عن هذه الظواهر.

إبتداءً، لابد من الإشارة الى أن مفهوم " الفئات الهامشية " لم تتم صياغته نظرياً بطريقة سليمة ومتماسكة، ومازال هناك خلط وعدم تدقيق في صياغة العبارات واستخلاص المفاهيم، لا نستطيع، لأسباب عملية أن نناقش هذه الاطروحات جميعاً (4)، ولكن لضرورات منهجية سنتناول بعضها، كنماذج فقط.

فمثلا، هناك من يقول بأن "أشباه البروليتاريا... نتاج لأزمة الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية لأن النظام الاقتصادي التابع عاجز عن استيعابها في عملية اعادة الانتاج الموسع لرأس المال" (5). إن هذه الاطروحة تعاني من تناقض داخلي. حقاً إن منطق "التطور التابع" يدفع، بدلا من استيعاب القوى "الهاربة" من القطاع الزراعي التي "حررتها" عملية الانتقال الى الرأسمالية ضمن عملية اعادة الانتاج الاجتماعي في القطاعات المترسملة، بكتلة من المعدمين المستعدين لأي "عمل" الى "هامش التاريخ". غير أن القول بأن هذه الفئات هي "نتاج لأزمة الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية"، يثير العديد من التحفظات يمكن بلورتها بسؤال بسيط، ولكن ضروري، وهو: هل أن تشكل هذه الفئات مرتبط بأزمة الانتقال، بلحظة تاريخية خاصة بالانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية، أم أن نشوء هذه الفئات

وتطورها مرتبط بخاصية نشوء التكوين الاجتماعي التبعي من جهة، ومنطق تطوره الداخلي من جهة ثانية؟ لذلك فإن الضرورة تحتم رؤيتها كسيرورة ضمن سيرورات التطور التبعي وليس نتاجاً لأزمة انتقال فقط.

يطرح الكسي ليفكوفسكي في احد اعماله الموسوم: "البرجوازية الصغيرة وخصائصها" سؤالاً هو: ما الذي يولد هذه الفئات؟ ويجيب قائلاً: "يخيل بأن امامنا ظاهرة اجتماعية-اقتصادية خاصة سببها الحالة الانتقالية (التأكيد مني- ص.ي) لهذه البلدان " (6).

ويبدو أن اطروحة ليفكوفسكي تماثل اطروحة الاستاذ عادل غنيم، المذكورة سابقا. وهنا نطرح سؤالاً آخر: هل ستزول هذه الفئات بمجرد انتهاء الحالة الانتقالية؟ إن التجربة التاريخية، على المستوى العالمي، تشير الى أن "الفئات الهامشية" تمثل ظواهر مديدة، وليس انتقالية، وبدأت في بلدان كثيرة تتحول الى عناصر "دائمة ومهمة" في البنية الاجتماعية.

يمكن القول بأن التحول هنا سيرورة مديدة لا مرحلة انتقالية يمر فيها الفلاح الذي "اقتلع" من أرضه قبل أن يندمج في النظام الرأسمالي "المترسمل"، كما أسلفنا، ومن ثم فهي ليست ظواهر خطية تتوقف على عامل الزمن بحيث يمكن استيعاب "الفئات ما قبل البروليتارية" مع مرور الزمن. فالبنى الداخلية والخارجية هي التي تعيد انتاج "ما قبل البروليتاريا "إعادة انتاج موسعة بموازاة الانتاج الموسع لرأس المال، وسنحتفظ بهذه الاطروحة لنطورها في مكان آخر من هذه المساهمة.

نحو مقاربة تاريخية بين سيرورات نشوء "الفئات الهامشية" في بلدان "المراكز" و"الاطراف"

بعد هذه الملاحظات السريعة، يتعين تعميق التأملات بصدد هذه الفئات انطلاقاً من الفكرة التالية:

إن إنتاج معرفة منتظمة بصدد "الفئات الهامشية" في بلدان "العالم الثالث" يجب أن يرتبط بتحليل خاصية التطور الرأسمالي في البلدان "الطرفية"، أي تحليل خاصية ظهور الرأسمالية هنا، تحديد أصولها، والنتائج، والعواقب المرافقة لها.

إن انجاز هذه المهمة لا يمكن أن يتم دون رؤية هذه المجموعة من البلدان ضمن النسق system الرأسمالي العالمي، وبالتالي فإن هذه الفكرة ستسمح بالقيام بمقاربة بين سيرورات نشوء "الفئات الهامشية" في البلدان الرأسمالية المتطورة وفي "البلدان الطرفية" .

ودون الدخول في تفاصيل الظروف التي رافقت دخول الرأسمالية الى البلدان "المستعمرة والتابعة" ولا في التفاصيل الدقيقة التي مرّ بها هذا النمو خلال مراحله المتعاقبة (7)، فإنه لا بد من الاشارة الى أن هذا النمو لم يتحقق في اطار السيرورة الداخلية لعلاقات الإنتاج، وإنما بـ "فضل" التدخل الامبريالي العنيف، الذي حطّم هذه السيرورة الداخلية، وأعاد بناءها وتكييفها وربطها تبعياً بحاجات تطوره المباشر، مخضعاً بنيتها الاجتماعية الجديدة لضرورات التراكم الرأسمالي ولعملية إعادة الانتاج الموسعة واحتياجاتها في الدول الامبريالية ذاتها (8). وفي ضوء ذلك يتعين فهم خاصية

التطور الرأسمالي في "البلدان المحيطية" وكذلك سيرورات التراكم وخصائصها المميزة. ويمكن ملاحظة ذلك في العديد من القضايا من بينها ما يلي:

• لم تحطم الرأسمالية "المحمولة" من الخارج البنى التقليدية، بل وعملت في أحسن الاحوال على تكييفها وفقاً لاحتياجاتها، فقد خضعت هذه البنى لتطور بطيء ومؤلم دون أن تتعرض لتحطيم جزئي. وهذه الملاحظة مفيدة في فهم جذور تشكل "الفئات الهامشية". يتعين القول إن "تحرير" قوة العمل أثر انغراس العلاقات الرأسمالية المتدفقة من الخارج، تميز بسيرورة متناقضة للغاية: تحول الى "بروليتاريا" من جهة وتحول الى "ما قبل بروليتاريا" من جهة ثانية. ومن شأن التأمل العميق في هذه السيرورة أن يساعدنا على الاحاطة بالديناميكية والحراك الاجتماعيين في اقتصاد رأسمالي تبعي احاطة أفضل، ويجعلنا على دراية بواقع تلك السيرورات و "يحررنا" من "الزامية" نقل مخططات تحليل طُبقت في ظروف تاريخية أخرى، تختلف عن ظروف هذه البلدان التي تشكل موضوعاً لتأملاتنا هذه (9).

• إن قدرة العناصر البرجوازية المحلية على التطور الذاتي، المرتبطة بنمط الانتاج الرأسمالي (حامل علاقات الانتاج الرأسمالية) تتقرر الى حد كبير بمدى ارتباط البلد المستعمَر نفسه بالاقتصاد الرأسمالي العالمي. إن الانخراط العميق، والمنتظم للبدان "المحيطية" في الاقتصاد الرأسمالي العالمي يفضي الى اعادة انتاج تبعيتها بصورة مستمرة، وفي مثل هذه الظروف يأخذ مجمل مسار تطور البنى الرأسمالية في هذه البلدان تطوراً متناقضاً ومقيداً (10).

إن المجتمعات المتباينة من حيث مراحل الارتقاء ما قبل الرأسمالي، تورطت بالتدريج في عملية اعادة انتاج جديدة عليها، وغاية في السلبية بالنسبة لها، فالعلاقات الانتاجية ما قبل الرأسمالية كانت تتقوض بأشكال، وبدرجات متفاوتة، بينما تتحدد وبشكل أسوء في الوقت ذاته. وهذه مفارقة مهمة يتعين ملاحظاتها وعدم اسقاطها من أفق التحليل، في مجرى الكشف عن جذور الفئات الهامشية، فقد أصبح الفقر المتنامي والتهميش والاقصاء عن حقلي الانتاج والاستهلاك والانفصال الطبقي لفئات كبيرة من السكان إحدى أهم نتائج وظروف هذه المجتمعات. وعند اجراء مقاربة للسيرورات التي تمت في البلدان التي حدث فيها التطور الرأسمالي في البداية، أي البلدان الاوربية الغربية، يمكن القول أن هذه البلدان لم تعرف هذا الشق الهائل والمديد بين انحلال العلاقات "التقليدية" – ما قبل الرأسمالية – وتشكل العلاقات الرأسمالية.

لنتوقف هنا ولنتابع، وباختصار شديد، كيف تمت سيرورات التراكم البدائي (11) وعملية التبلتر في البلدان الرأسمالية، بهدف رؤية الاختلاف ومضمونه.

دون الدخول بتفصيلات يمكن القول أن الطلب على قوة العمل في البلدان الرأسمالية الغربية لم يتأخر طويلاً مقارنة بعرض قوة العمل، فالتقدم العلمي– التقني، والتطور البطيء نسبيا للرأسمالية في الريف (وكذلك قصر عمر حياة العمال) كلها عوامل اسهمت في "تنظيم" الوضع في سوق العمل وضبطه طبقا لمقتضيات عملية التراكم الرأسمالي. ولا يتعين أن يضيع من أفق التأمل حقيقة أن التمدن Urbanisation سار بشكل

متواز تقريبا لعملية التصنيع. وأخيرا أصبحت الهجرة، ولحد ما، حاجزاً محدداً للأمن في الظروف والحالات الصعبة، في حين أن عمليات "التراكم البدائي" في البلدان "المحيطية" التي جرت في المرحلة المبكرة واللاحقة لتطور الرأسمالية وكذلك في مرحلة التصنيع قد تمت بطريقة أخرى تماماً.

فالجانب الاول من عملية "التراكم البدائي"، أي ظهور تلك المجموعات من البشر المعزولين من العلاقات الاجتماعية المألوفة والمغتربين كان واضحاً، أما العملية الثانية للإنتاج الرأسمالي فقد كانت بطيئة جدا. لهذا نلاحظ أن خاصية الانفصال الطبقي في ما يسمى بـ "المجتمع المتعدد الانماط" تكمن في أن هذا المجتمع "ينتج" كل الانماط من "المعدمين" الذين يصبح وجودهم أحد أهم شروط الكينونة اللاحقة للأنماط "القديمة" منها و "الجديدة" (12).

يمكن تلخيص هذه الفكرة بالقول أن الجزء الاساسي من "الفئات الهامشية" للمدينة المعاصرة في البلدان "المحيطية" هي ليست فقط "سقط متاع"، الانتاج الرأسمالي، ولا ضحايا البطالة الدورية، التي يتم امتصاصها بشكل منظم خلال الدورة الرأسمالية ولا هي "الجيش الاحتياطي الصناعي"، ولا هي منتوج الوتيرة السريعة للهروب من الريف الى المدينة (أو انهيار الحرفيين) والتي يمكن "التغلب" عليها من قبل الانتاج الرأسمالي مقارنة بالعرض على قوة العمل، في "العالم الثالث". نحن هنا شهود سيرورات من نوع مغاير لتلك الظواهر الأوربية "المماثلة"، إنها سيرورات ذات طبيعة واسعة، طويلة المدى، والاهم من ذلك هي عبارة عن سيرورات مرتبطة عضويا بالسنن الرئيسية للتطور التابع و "خصائصه" الملموسة (13).

يطرح هذا الاستنتاج ضرورة تعميق التحاليل بصدد قضيتين، نعتقد أنهما مهمتين في انتاج معرفة أفضل بـ "خصوصية" الفئات الهامشية في البلدان "المحيطية".

القضية الأولى: تحليل مضمون التراكم المحيطي وآلياته التي "تفرخ" أو تفرز هذه الفئات.

بصدد هذه القضية يمكن رؤية مضمون "التراكم المحيطي" ضمن الاشكالية التالية:

إن تفكيك/حفظ علاقات الانتاج ما قبل الرأسمالية في الريف المترافقة مع/ والخاضعة الى سيرورة تحرير قوة العمل وانبثاق الشروط الرأسمالية لتحولها الى سلعة، وتدفقها نحو المدينة باحثة عن "عمل" وعدم قدرة القطاعات "المترسملة" عن استيعابها سينعكس في تهميش اجزاء متعاظمة من قوة العمل الجديدة في المدن، ويجد انعكاسه في خلق الشروط لنشوء الاحياء القصديرية (احزمة الفقر) التي تطوق المدن، وتكون المكان الملائم لانبعاث وتطور شرائح واسعة من "الفئات الهامشية" (14).

يتعين الاشارة الى أن هذه العملية مرتبطة بالسيرورات المرافقة لتفكك الانماط التقليدية ونشوء الانماط المعاصرة وبمدى قدرتها على اعادة انتاج نفسها بشكل متواصل ودون عوائق. ففي الوقت الذي يؤدي انهيار العلاقات الاقتصادية القديمة (أي ما قبل الرأسمالية) وما يرافقه

من "اضمحلال" أو ابتعاد متزايد للناس عن مهنهم القديمة بحثاً عن موطئ قدم في السيرورات الجديدة، التي تحتاج الى فترة من الزمن للدخول فيها، مما يؤثر في نمو عدد العاطلين وفي السيّل المتعاظم للسكان المتقاطرين نحو المدن، التي تعجز مختلف قطاعاتها "المعاصرة" عن استيعابهم، وبذا تنبثق شروط الافقار المعمم، النسبي والمطلق. ويمكن القول أن ثمة علاقة طردية بين سرعة تهديم الاشكال الاقتصادية التقليدية (ما قبل الرأسمالية) وبين وتيرة نمو الاقتصاد الانتقالي "المتعدد الأنماط". وإذا كان هذا التحليل يدفع للاستنتاج بأن منبع "الهامشيين" هو تلك "السيرورات" المرتبطة بانهيار اشكاله التقليدية، فإنه لا ينبغي نسيان حقيقة أخرى، هي أن تطور "المجتمع الانتقالي" يرافقه ظهور "مفلسين" من انماط اخرى. وهكذا يمكن أن تضم "الفئات الهامشية"، في لحظة معينة، "برجوازيا سابقا، ومثقفاً سابقا، الى جانب بروليتاري سابق، أو حرفي سابق" (15). ويمكن ملاحظة أن هذه "الجماعات" التي يتعاظم حجمها باستمرار، من المفلسين والمسحوقين والمهجرين وساكني الاكواخ القصديرية التي تطّوق الكثير من مدن "العالم الثالث" وتملأ شوارعها، وأعضاء عصابات الجريمة المنظمة، والسوق الموازية، ليست ناجمة فقط عن انحلال القطاعات الانتاجية التقليدية فقط، بل هي ثمرة لـ "إدخال" و "زرع" النمط الرأسمالي (16).

إن تحليل التبلتر prolitarisation من زاوية حركية قوة العمل يسمح بالإضافة الى غناه النظري بتجاوز السببية التبسيطية، فيض سكان- نزوح ريفي، وبإعادة طرح مسألة التبلتر في اطارها النظري/ التاريخي الملموس، أي تحرير قوة العمل عن طريق تغيير وضعيتها، ومن ثم تصبح الحركية لا مجرد انتقال جغرافي، بل تغيراً في الوضعية الاجتماعية يطال الفلاحين والحرفيين سواء نزح هؤلاء من مناطقهم الاصلية أم لم ينزحوا (17).

إن جزءاً مهماً من "الفئات الهامشية" في البلدان "المحيطية"، التي تحافظ (وهي في المدينة) على روابط مع القطاعات التقليدية، تمثل من جهة منتوج هذه القطاعات، غير أنها تمثل جزءه الاستهلاكي، وليس الانتاجي.

تتقاطع هذه العملية مع سيرورة أخرى، ونعني بها النمو العاصف، ولكن المبكر(مقارنة بتجربة البلدان الاوربية الغربية) للعمالة في قطاع الخدمات، بما في ذلك المعاصرة منها. ويمكن اعتبار ذلك بمثابة "تورم سرطاني"، مما يمكن معه اعتبار هذه الظاهرة بمثابة نتيجة وشرط ضروري، لظهور "الجيش العملاق" من الهامشيين. تشهد على ذلك حقيقة أن نمو العمالة في قطاع الخدمات في "البلدان المحيطية" يحدث تحت تأثير الضغط المتنامي لسوق العمل وليس نتيجة المرونة الدخلية العالية للطلب على الخدمات (18). ويتعين إذن رؤية سيطرة أجراء قطاع الخدمات (القطاع الثالث) وتحليلها ارتباطاً بالتناقض بين ارتفاع وتيرة "طرد" الفلاحين من جهة وضعف قدرة القطاعات الانتاجية (أساساً القطاع الصناعي) على استيعاب اليد العاملة من جهة ثانية. ويدفع هذا الوضع الى توجيه الاتهام نحو استراتيجيات التصنيع التي انتهجت في هذه البلدان، غير أن المجال هنا لا يتسع للتوسع في

هذه النقطة، بل نود الاشارة فقط الى بعض القضايا الضرورية. إن الاتجاه نحو التوسع في الصناعات كثيفة رأس المال، وتقليص الامكانية لخلق فرص عمل مناسبة يؤثر سلباً ليس فقط على افاق حل مشكلة التشغيل، ولكنه يؤثر كذلك على ترتيب سوق العمل. فبالضد من التصنيع الكلاسيكي، الذي كان قائماً على سوق متجانسة للعمل يضم قبل كل شيء العمال غير المهرة (ارتباطاً بمستوى التكنيك في تلك الحقبة)، فإن سوق العمل الصناعي المعاصر وسوق الخدمات المعاصرة يشترط قبل كل شيء العمال المهرة.

والنتيجة النهائية هي إن السياسة التي تضع في مخططها الاول الفعالية وتعظيم الدخل القومي، التي هي على وفاق تام مع معايير التراكم الرأسمالي، تبقي مشكلة العمالة و"السكان المهمش"، وذلك بطريقتين. فمن جهة، وعبر تحديث الزراعة مع الابقاء على البنية التقليدية للملكية الزراعية، تخلق فائضاً لقوة العمل في الزراعة، ومن جهة ثانية وعبر التحديث و"اعادة البناء" المعتمدة على تكنولوجيات الشركات الاحتكارية عابرة القومية، يلاحظ ضعف القدرة التنافسية للصناعة في مجال قوة العمل. وهكذا يصبح التهميش، إذن دالة function للخاصية التقنية للتطور الصناعي المعاصر في الظروف الخاصة بتطور هذه البلدان. ولهذا يمكن الاتفاق مع الملاحظة الهامة التي طرحها احد الكتاب حول المغرب، والتي يمكن تعميمها على بلدان أخرى، وهي أن التمدن سبق التصنيع أكثر مما كان نتيجة له (19).

نستنتج من ذلك أن الظاهرة المسماة بالتهميش ليست لها طبيعة داخلية بل وخارجية كذلك، وهي تختلف عن المشكلة الكلاسيكية "جيش العمل الصناعي الاحتياطي" في البلدان المتطورة، كما أشار الى ذلك بصواب هانيبال كويانو اوبريجن (20)، كما أنه ليس لها صلة مع ما يسمى بـ "البروليتاريا الرثة" فقط.

القضية الثانية: ضرورة اجراء مقاربة بين هذا النمط من التراكم والتراكم الذي تم في بلدان "المركز" الرأسمالي.

إن التجربة التاريخية لسيرورات التراكم في "المركز" تبين أنها تنتج بشكل منتظم "الجيش الاحتياطي الصناعي"، في حين أن التراكم المحيطي ينتج على ما يبدو "ما قبل بروليتاريا"، و هذا التمييز ضروري على المستوى المفاهيمي.

إن نمط التراكم في بلدان "المركز" سار ضمن المنحى التالي: اقترنت سيرورة تمفصل/اعادة بناء الطبقات الاجتماعية أثناء عملية التطور بإعادة هيكلة تتجلى ببروز قوة اجتماعية (البرجوازية) تفرض نمط انتاجها ومنظومة قيمها على "الجميع"، وتعيد انتاج التكوين الاجتماعي الجديد ضمن شروط ومنطق علاقات الانتاج الرأسمالية. يعني أن العنف الذي حدث في أوربا أثناء فترة التراكم البدائي لرأس المال (21)، قد ولّد سيرورة تمفصل/اعادة هيكلة لأنماط الانتاج الموجودة في التكوين الاجتماعي الجديد وسيرورة "متجانسة" و "تكامل" العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

أما نمط "التراكم المحيطي" فيمكن رؤيته ضمن التالي: إن سيرورة تمفصل البنية الاجتماعية التقليدية (ما قبل

الرأسمالية) تقود الى ظهور بنية جديدة متنافرة تتعايش فيها عدة انماط دون سيطرة أحدها لفترة طويلة، بشكل يفرض منطقه على الانماط الاخرى. ومن هنا يحب عدم الخلط بين "الجيش الاحتياطي الصناعي"، وبين "الفئات الهامشية" لأن المفهومين ينتميان الى حقلين معرفيين مختلفين. إن "ما قبل البروليتاريا" التي ترتبط بها "الفئات الهامشية" في البلدان "المحيطية" لا تطابق تماماً مفهوم "الجيش الاحتياطي الصناعي"، إذ أنه لا يمكن تشبيه سيرورة ما قبل التبلتر ببقايا الانتاج السلعي الصغير الذي لم يتعرض بعد للتدمير من قبل رأس المال. وإذا كان "الجيش الاحتياطي الصناعي" هو جزء مكون لليد العاملة المستخدمة في الصناعة في البلد الرأسمالي المتطور، وبالتالي يمكن القول أنه (أي الجيش الاحتياطي الصناعي) يمثل عنصراً وظيفياً من عناصر التراكم الرأسمالي، جاهزاً للاستخدام في كل لحظة من لحظات توسع الانتاج الرأسمالي، فإن بعض النشاطات الحضرية التي تلجأ اليها الفئات الهامشية (ما قبل البروليتاريا) تظهر كنتاج للتحديث الرأسمالي التبعي لا كبقايا تقليد.

ويتعين التأكيد على أن مفهوم "ما قبل البروليتاريا" لا يقتصر على "الفئات الهامشية" فقط. فإذا كان للتحليل المستند الى مصطلح "الهامشية" فضل في ابراز حقيقة أن دمج التكوينات الاجتماعية "المحيطية" يؤدي الى تطور قطاع ثالث طفيلي ومتورم، والى وجود اشخاص "هامشيين" فائضين بالمقارنة مع حاجات رأس المال، إلا أن مصطلح "الهامشية" لا يراعي واقع أن جزءاً من السكان الذي يُنظر اليهم كهامشيين هم شغيلة يعملون في الانتاج السلعي الصغير، ويلعبون دوراً مهماً في تنامي قيمة رأس المال، ويعتبرون أجراء بكل معنى الكلمة ويعانون من فيض الاستغلال كذلك.

الأمر لا يتعلق هنا، إذا تجاوزنا المفاهيم المختلفة مثل: الجيش الاحتياطي الصناعي، التهميش، الاجراء..... الخ، لفئات اجتماعية هي في وضعية "البروليتاريا الكامنة" سواء كان ذلك مؤقتاً ونهائياً، إنها "ما قبل بروليتاريا" مندمجة في دائرة اقتصادية تسود فيها علاقات متعددة، هجينية، غير محددة الأبعاد، متحركة. فوضعية "ما قبل البروليتاري" تتبدل باستمرار تبعاً للظروف الملموسة، فهو تارة أجير، وتارة اخرى حرفي، وثالثة عاطل عن العمل، أو مشتغل في أعمال "قذرة" (22).

وإذا كانت قضية "الجيش الاحتياطي الصناعي" تمثل واحدة من لحظات المنافسة على سوق العمل، وإن انتقال العامل الى مجموعة المشتغلين، أو الى المجموعات العاطلة عن العمل إنما يكون مشروطاً، قبل كل شيء، بشكل رئيسي بتذبذبات الدورة الاقتصادية في البلد المتطور، فإن وضعية "السكان المهمشين" في البلدان المحيطية تمثل قضية أخرى، إنها لا ترتبط بمراكز الصناعة المعاصرة بروابط انتاجية مباشرة، بل على العكس أنه ليس لهذه "الفئات" الحظوظ كي تستطيع أن تنخرط في حقل نشاط القطاعات المسيطرة في الاقتصاد.

وثمة مفارقة في هذا المجال يتعين الاشارة اليها هنا وهي أن هذا "المحيط المهمش"، يستكمل بقوة العمل المهمشة المؤلفة من العمال الذين كانوا يشتغلون في الصناعة، ولكن بسبب التطورات التكنولوجية (وضعف مستويات مهاراتهم)، أبعدوا الى

الصناعات التقليدية أو نحو الحرف، فإنه يتعين تحديد وضع هؤلاء. من وجهة نظر الصناعة المعاصرة يمثل هؤلاء جزءاً من الفئات الهامشية، في حين أنهم، من وجهة نظر الصناعة التقليدية يمثلون جزءاً من "الجيش الاحتياطي الصناعي"، طبعاً ليست هذه التسمية مماثلة لما جرى في أوربا. أخذين بنظر الاعتبار حقيقة أن القطاعات التقليدية (ما قبل الرأسمالية)، بالرغم من عملية "الطحن" الجارية لها، فإنها مازالت كبيرة من الناحية الكمية، ولكنها ليست في وضع يسمح لها بامتصاص الفائض من قوة العمل، ولهذا فإن "قوة العمل المهمشة" هذه غالباً ما تذهب الى المحيط الهامشي، متجاوزة بذلك مرحلة (طور) البطالة الصناعية (23).

انطلاقاً من الملاحظات السابقة يمكن القول أن القانون العام الذي سيحكم نمط التراكم الرأسمالي التبعي هو قانون هدم/محافظة، المنظم للرابطة بين العلاقات الرأسمالية والعلاقات ما قبل الرأسمالية. فإذا كانت هذه الربطة قد تميزت في البنيات الرأسمالية الأوربية بكونها علاقة تناحرية ضمن سيرورة تمفصل/ اعادة هيكلة، حيث أدت الى اخضاع كل ما هو قبل رأسمالي (القطاعات التقليدية) لمنطق قوانين التراكم الرأسمالي وعلاقات الانتاج الرأسمالية، فإنها في "البنية التابعة" هي علاقة "تعايش"، وإن كان هذا التعايش ليس ساكناً أو ثابتاً، إنما هو تعايش يعكس صراعاً بين الطرفين، بحيث يتم من خلال ذلك تحديد أي من العلاقات ما قبل الرأسمالية سيتم هدمه، وأي منها يجب الحفاظ عليه. وإذا كان من الصعوبة بمكان تحديد الكيفيات التي يعمل فيها قانون هدم/ محافظة في ظروف "التراكم التبعي"، إلا أنه يمكن القول أن تلك الكيفية ناجمة عن ثلاث لحظات جديرة بالملاحظة والتأكيد. إنها أولاً ناجمة عن التعقيد والتناقضات التي تعتمل داخل النمط الرأسمالي نفسه، وثانياً، عن التناقضات الخاصة بالأنماط ما قبل الرأسمالية، وثالثاً عن الطريقة التي يتم بها التصادم بين الطرفين وما يترتب عليه من نتائج (24).

وانطلاقاً من الملاحظة السابقة، فإن هذه "الفئات الهامشية" في "البلدان المحيطية" تمثل نتاجاً لعملية نفي مزدوجة. فمن جهة تنتمي هذه الفئات الى أنماط الانتاج ما قبل الرأسمالية، أي بمعيار القوى المنتجة الى قوى التخلف والمحافظة، حيث تصبح هذه القوى ضمن إطار عملية "التراكم المحيطي" بمثابة "جسم زائد". غير أن هذا "الجسم الزائد" نفسه هو نتاج مجموعة متنافرة من قوى اجتماعية تنتمي الى أصول تاريخية مختلفة يشترط التراكم التبعي ليس تصفيتها جميعاً بل "اعادة طحنها"، أي أن عملية "نفيها" لا تكون كاملة، لأن من ضمن "متطلبات" قانون "التراكم المحيطي" عدم ازاحة البعض منها من على "مسرح الحياة".

وقد لا يغامر المرء حين يقول بأن "اعادة الطحن" المذكورة أعلاه تعني أن السيرورات المرافقة لنمط "التراكم التبعي" تنتج "ما قبل بروليتاريا" أكثر مما تساهم في عملية البلترة وخلق الشروط لهيمنة نمط الانتاج الرأسمالي. ولهذا يكون هذا النمط معاقاً منذ لحظة ولادته، وبالتالي فإن عملية التهميش ونشوء "الفئات الهامشية" تصبح حقيقة من حقائق تطور هذا النمط وليس أثراً عارضاً له. ولا يتعين أن تغيب عن الذهن حقيقة أن هذه السيرورات تتم ضمن منظومة رأسمالية عالمية وتخضع لمنطق

القوانين الناظمة لها وللدور المتعاظم للشركات الاحتكارية العابرة القومية، وبالتالي يخضع معظم الفائض الاقتصادي المنتج في "البلدان المحيطية" الى عملية استنزاف وترحيل نحو الخارج، مما يمنع عملية اعادة الانتاج من التوسع، وبذلك يظل العديد من القوى العاملة في العمر الانتاجي على هامش العملية الانتاجية.

إن وجود "مستنقع" ما قبل رأسمالي راكد يضم فئات همشها التطور الرأسمالي التبعي، الى جانب رأسمال طفيلي ومضارب، يتقدم بسرعة عاصفة في معظم البلدان، ويفرض على المجتمعات المختلفة منظومة "قيمه وقوانينه"، يسمح بالقول بأن هذه الفئات، الراكدة تحت "قمقم التبعية" للقوى المسيطرة، يمكنها ان تكون في "الطليعة" ووقودا للمعارك "الكبرى". ولا ينبغي نسيان تجارب التاريخ، فبونابرت استخدم تلك "الفئات الهامشية" بمثابة رأس حربة لتصفية خصوم الطبقة المسيطرة. وبعد أن أدى "وظيفته" قامت البرجوازية الفرنسية بإزاحته عن سلطتها التي لن تتقاسمها مع أحد. فهل سنكون، خلال الاعوام المقبلة، شهود حقبة بونابارتية جديدة. لكن لا ينبغي نسيان المثل الشهير: إن التاريخ يتكرر، لكنه يتكرر أما بملهاة أو بمأساة، غير أن كليهما مُر!

الهوامش:

(1) قارن: إبراهيم محمود، "حركية حثالة البروليتاريا في العالم الثالث". "النهج"، العدد 32/1990، ص 88 ولاحقاً. (2) قارن على سبيل المثال:

V.Tanzi D. (ed), The Underground Economy in The United States and Abroad Lexington 1982, and J.Gershung: The Informal Economy, its Role in Post- I - dustrial Society, "Futures", February 1979.

(3) أنظر: عصام الخفاجي، "**بعض اشكاليات دراسة الطبقات والتطور الاقتصادي الاجتماعي في البلدان العربية**". دراسة غير منشورة، ص 6.

(4) لقد عالجت هذه القضية بالتفصيل في عمل آخر. انظر: د.صالح ياسر حسن، بعض الاشكاليات المرتبطة بمفهوم "الفئات الهامشية" في البلدان النامية، "**جدل**"/ **كتاب العلوم الاجتماعية**، العدد 4/1993، ص 39 - 72.

(5) أنظر: عادل غنيم، "**النموذج المصري لرأسمالية الدولة التابعة، دراسة في التغيرات الاجتماعية والطبقية في مصر 1974 - 1982**". دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1988، ص 31، والأستاذ غنيم يناقش هنا كتاب: محمود حسين، الصراع الطبقي في مصر 1945 - 1968، مطبوعات ماسبيرو، باريس، 1969، (بالفرنسية)

(6) قارن: الكسي ليفكوفسكي، "**البرجوازية الصغيرة وخصائصها**". دار التقدم، فرع طاشقند، 1979، ص 110.

(7) لمزيد من التفاصيل راجع العمل الهام: نوداري أ.سيمونيا، "**مصائر الرأسمالية في الشرق**". ترجمة فاضل جتكر، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، 1987.

(8) قارن: د.صالح ياسر حسن، "موضوعات حول الاتجاهات والآليات الحديدة في القسمة الدولية الرأسمالية للعمل". "**دراسات عربية**"، العدد 4 شباط 1985، ص 36 ولاحقاً. كذلك لنفس الكاتب: "جدلية العام والخاص في الأزمة الاقتصادية الرأسمالية الدولية". "**الفكر الديمقراطي**" العدد 4/ خريف 1988، ص 106 - 108.

(9) قارن: د.صالح ياسر حسن، "خصوصيات تمايز رأسمالية "الأطراف" ضمن تطور المنظومة الرأسمالية العالمية.

قراءة في كتاب نوداري أ.سيمونيا: مصائر الرأسمالية في الشرق". "**جدل**"/ كتاب العلوم الاجتماعية، العدد 1، آب، 1991، ص 282، ولاحقاً.

(10) قارن: "تطور متناقض – تبادل أراء عالمي حول التطور الرأسمالي في المنطقة الأفرواسيوية"، "**الثقافة الجديدة**"، العدد 136/1981، ص 106 – 108.

(11) لمزيد من التفاصيل حول عمليات التراكم البدائي لرأس المال قارن على سبيل المثال:

Perelman. Michael. 2000. The Invention of Capitalism. Classical Political Economy and the Secret History of Primitive Accumulation. Durham. NC: Duke University Press.

Luxemburg. Rosa. 1913. The Accumulation of Capital. translated by Agnes Schwarzschild. Monthly

Review Press. New York. and Routledge & Kegan Paul. London. 1951.

Frank. Andre Gunder. 1978. World Accumulation. 1492–1789. Monthly R – view. New York.

(12) قارن: الكسي ليفكوفسكي، "**البرجوازية الصغيرة وخصائصها**، مصدر سابق، ص 110 – 112.

(13) لمزيد من التفاصيل قارن: "**البلدان النامية. السنن، النزعات، والآفاق** ". مطبعة الدولة العلمية، وارشو، 1977، ص 290 ولاحقاً. كذلك: سمير أمين، "**ما بعد الرأسمالية**". مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، وخصوصا ص 11 – 81. كذلك: هنريك شلايفر، "**تحديث التبعية، الرأسمالية والتنمية في امريكا اللاتينية**". اكاديمية العلوم البولندية، وارشو، 1985 (باللغة البولندية).

(14) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن: د. اسماعيل قيرة، "نحو رؤية جديدة لدراسة فقراء المدن"، "**جدل**"/ كتاب العلوم الاجتماعية، العدد 4/1993، ص 8 ولاحقا.

(15) أنظر: الكسي ليفكوفسكي، "**البرجوازية الصغيرة وخصائصها**"، مصدر سابق، ص 114.

(16) قارن: د.خلف الجراد، "البروليتاريا الرثة في العالم الثالث"، "**دراسات عربية**"، العدد 5 السنة التاسعة عشرة/ آذار 1983، ص 98.

(17) قارن: جمال الدين نفاع، "**تفكك البنى ما قبل الرأسمالية وحركية قوة العمل في المغرب**"، أعمال الندوة العلمية الدولية الرابعة التي نظمها المعهد العربي للثقافة العمالية وبحوث العمل ومنظمة العمل العربية خلال الفترة 24 29/3/1984–، ص 3.

(18) D.Turnham: The Employment problem in less Developed Countries. A r – view of Evidences. Paris 1971. p. 113.

(19) قارن: جمال الدين نفاع، "**تفكك البنى ما قبل الرأسمالية وحركية قوة العمل في المغرب...**"، مصدر سابق، ص 37.

(20) A.Quijuno Obregen: The Marginal Role of the Economy and The Margi – alized Labor Force. "Economy and Society" 1974. v.2. NR. 4.

(21) وهو ما دفع كارل ماركس الى وصف هذه العملية بانها "... مدونة بحروف من دم ونار لاتمحى في تاريخ الإنسانية".

(22) قارن: جمال الدين نفاع، "**تفكك البنى ما قبل الرأسمالية**"، مصدر سابق، ص 43 – 45.

(23) قارن: هنريك شلايفر، "**تحديث التبعية، الرأسمالية والتنمية في أمريكا اللاتينية**"، مصدر سابق، ص 211 – 213.

(24) لمزيد من التفاصيل قارن: باجو حميد، "دراسة في التمرحل. البنية الاقتصادية المغربية كنموذج". "**النهج**"، العدد 32/1990، ص 19 – 22.

وقفة مع كتاب:
"الدين والسياسة من منظور فلسفي" *

محمد سيف الإسلام بوفلاقة
كلية الآداب، جامعة عنابة - الجزائر

تكتسي العلاقة بين الدين والسياسة أهمية بالغة في زمننا الراهن، وهذا ما جعلها تحظى بعناية فائقة من لدن العديد من المفكرين والباحثين المعاصرين، فقد أثارت إشكالية العلاقة بين الدين والسياسة الكثير من الجدل والنقاش، حيث كتبت دراسات متنوعة في هذا المجال، غير أن هناك زاوية لم تلق العناية الكافية، إذ نلاحظ وجود ثغرة في معالجة هذه العلاقة الجدلية من جانب فلسفة الحق السياسي، والأخلاقي.

وفي هذا السياق يأتي كتاب: «الدين والسياسة من منظور فلسفي» الذي صدر بإشراف المفكر الدكتور محمد المصباحي؛ الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وضم بين دفتيه دراسات متنوعة لعدد من الباحثين، والمفكرين المتميزين.

فالكتاب يناقش جملة من الإشكاليات المتصلة بالدين والسياسة من منظور فلسفي، ويسمح بتكوين نظرة شاملة عن جملة من المداخل والرؤى والأطروحات الفلسفية التي قاربت العلاقة الشائكة بين الدين والسياسة كما يخلق تراكماً نوعياً من خلال تركيزه بصورة مباشرة، وواضحة على العلاقة بين الدين والسياسة انطلاقاً من منظور فلسفي، فهو يثير جملة من المناقشات العلمية، والموضوعية التي تُساهم في تنمية الوعي بالكثير من المسائل، والقضايا المتصلة بجدلية الدين والسياسة.

ووفق ما جاء في تقديم الأستاذ محمد المصباحي للكتاب، فالأسئلة الفلسفية والسياسية والدينية الشائكة التي توجّه أبحاث الكتاب متباينة ومتشعبة في منطلقاتها، ومباحثها وأغراضها. وما يوحدها هو الرغبة في المعرفة والمداولة والحوار، وذلك دون رغبة في الادّعاء باحتكار المعرفة اليقينية، أو افتتان بموت الحقيقة، أو تقاعس عن البحث عنها.

وذكر أن العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة السياسية كانت منذ البداية، وستظل كذلك دائماً علاقة إشكالية، وهذا ما يجعل عدم إمكانية البت في شأنها على نحو قطعي جازمٍ، وخاصة أن هذه العلاقة تكاد تتخذ أشكالاً لا متناهية حسب تطور ثقافة كل مجتمع، واللحظة التاريخية التي يوجد فيها. غير أن الأزمنة المعاصرة عرفت استفحالاً تراجيدياً للطابع الإشكالي لعلاقة الدين بالسياسة، وهذا ما حوّلها إلى أزمة عميقة يعاني من انعكاساتها العالم قاطبة، كما ترهن مصير كتل بشرية وحضارية

برمتها كالعالمين العربي والإسلامي. وأشار إلى أن عودة الدين بقوة، وبصورة مفاجئة كقوة سياسية وثقافية مؤثرة في مجرى حياة المجتمعات المعاصرة شرقاً وغرباً في العقود الأخيرة من القرن العشرين، حتّم إعادة النظر في كل الأسئلة القديمة بكيفية جديدة، تفتح الباب لنوع من التراضي الإيجابي بين المجالين المتقابلين: الدين والسياسة، بتوسط الفلسفة حتى لا يحدث انفجار سياسي – ديني كوني هائل. وفي نظر الاستاذ المصباحي أن أول الأسئلة «التي يتعين العودة إليها في حلة جديدة هو أمنَ الحكمة استبعاد الديني عن الفضاء العمومي حفاظاً على حرمته ووقاره، وتفرّغه للرعاية الروحية للفرد، أم أن الوفاء لقواعد اللعبة الديمقراطية يقتضي الاعتراف بالديني كشريك، وفاعل سياسي أساس له الحق في أن تُحترم نظرته إلى الكون، وما يترتب عنها من أنماط سلوكية خاصة، ضمن مراعاة للقوانين والمساطر والأعراف المتفق عليها من لدن الجميع» (ص: 7 – 8).

وفي ختام تقديمه للكتاب ذكر المصباحي أن القصد الأصلي من الأبحاث التي يضمها هذا الكتاب هو الوقوف على عيّنة من التأملات والمناقشات النظرية التي قام بها جملة من الفلاسفة والمفكرين الغربيين (أمثال موبز، سبينوزا، ميشيل فوكو، ليو شتراوس، كارل شميت، جون رولز، هيغل، وغيرهم)، والمسلمين (ابن خلدون، الغزالي، الفارابي،

إخوان الصفا، الماوردي، علي عبد الرزاق، إلخ)، قصد الاستئناس بها للإجابة على جملة من الأسئلة. وهذا لا يعني الدعوة إلى تعليق الحكم بشأن «العلاقة بين الديني والسياسي؛ لأننا معنيون أكثر من غيرنا بحل التوتر القائم بينهما تدعيماً للروح الديمقراطية، التي نعتبرها شرطاً قبلياً لإثبات مشروعية الفلسفة نفسها. وموازاة لذلك، نؤمن بأن تدعيم الفلسفة، باعتبارها المجال المشترك الذي يسمح بالتعايش الخلاّق بين الدين والسياسة، هو أحد الشروط التي لا غنى عنها لتربية الحس الديمقراطي لدى المواطنين، وتعبئة عقولهم وإرادتهم للدفاع عن المكتسبات الديمقراطية التي ستظل هشّة على الدوام، على أن لا يتم استخدام الفلسفة من أي جهة كانت لخدمة مآربها الخاصة، أو لترويضها وتهجينها كيما تصبح قوة عمومية منزوعة من سلاحها النقدي الذي هو سر وجودها» (ص:13).

المبحث الأول من الكتاب كتبه الدكتور أحمد يوسف؛ الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة وهران بالجزائر، وجاء تحت عنوان: «خطاب الدين والسياسة – دراسة سيميائية في الأنساق الرمزية»، وقد أشار في تمهيده إلى صنفين من الأنظمة السياسية: أنظمة تسمح لخطاب الدين أن يُعبر عن حضوره تعبيراً مباشراً، وبذلك فالرموز تكون ذات خصيصة تقريرية، وذات وظائف تربوية واجتماعية، وسياسية، وهذا ما يظهر بيناً على مستوى التطابق، وأنظمة أخرى يتلبس موقفها من الدين بعض الغموض، حيث لا تتيح لخطابه التعبير عن أشكاله الرمزية إلا عن طريق الإيحاء، ويبرز الحضور الباهت على مستوى التقاطع.

وذكر الدكتور أحمد يوسف أن الأنظمة السياسية التي أحدثت قطيعة مع الدين «واختارت العلمانية (المتطرفة – حسب تعبيره)، فإنها تلغي المستويين السيميائيين التقريري والإيحائي على صعيد نظرية التعبير. في حين يحاول الخطاب السياسي أن يضطلع بملء الفجوات التي أحدثها الفكر العلماني في المجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ وذلك بالسعي إلى تثبيت حالة الهدنة المؤقتة بين سلطتيهما الرمزيتين. وبما أن الدين والسياسة كليهما يمثل نشاط السلوك الإنساني فإنه يعد أرضية خصبة للدراسات السيميائية التي تدرس أنساق العلامات الدالة، وتتقفى آثار المعنى» (ص:16).

وركز في دراسته السيميائية للأنساق الرمزية التي يتضمنها خطاب الدين والسياسة على البعدين النظري والعملي المتلازمين، وذكر أن البعد النظري يشتمل على ثلاثة سياقات هي: المعرفي، الاجتماعي والثقافي.

كما يتفرع البعد العملي بدوره إلى ثلاثة مستويات؛ أولها، مستوى التطابق الذي يتجلى في آليات التناص التي يوظفها الخطاب السياسي، ومستوى التقاطع، بحيث يتقاطع الديني والسياسي مع مقتضيات الاقتصاد وضرورات الاجتماع في المجتمعات الاستهلاكية لينتج نسقاً رمزياً يلوّن اللغة، والخطاب.

أما مستوى التناظر فهو يعكس وضعاً غير متطابق بين النسقين الرمزيين لخطاب الدين، والسياسة، ويقع ضمن محورين أفقي وعمودي، ويخلق حالة من التوترات تؤول بدورها إلى افتقار حياة الأفراد والمجتمعات إلى ذلك الضرب المنشود من التوازنات في الحياة العامة.

أما الأستاذ الدكتور الزواوي بغوره؛ الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت، فقد سعى في بحثه الموسوم: «الأنطولوجيا التاريخية والموقف من الإسلام» إلى تجلية موقف الفيلسوف الفرنسي «ميشيل فوكو 1926 - 1984م» من الإسلام بمناسبة الثورة الإيرانية خصوصاً، ومن الدين عموماً، وذلك من خلال تحليل مجموعة من النصوص التي تندرج في إطار هذا الموضوع.

وذكر الدكتور الزواوي بغوره في عرضه لموقف ميشيل فوكو من الإسلام، أن قراءة وتحليل المقالات التي خصها ميشيل فوكو لحدث الثورة الإيرانية تكشف عن جملة من الأفكار المتعلقة بالوضع السياسي في إيران، وعن جملة من المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بإيران، وبالأسرة الحاكمة، وبطبيعة حكمها، وبعلاقاتها الخارجية. كما ذكر د. بغورة أن ميشيل فوكو اعترف أنه من الصعب عليه أن يحكم على الحكومة بوصفها فكرة أو مثالاً، ولكنها أثارت إعجابه بوصفها «إرادة سياسية»، وكما قال فقد أعجبته في جهدها من أجل تسييس بنى اجتماعية ودينية لا تنفصل، وذلك من أجل الإجابة على أسئلة حاضرة وفتح بعد روحي في السياسة. كما أن الأسئلة التي طرحها ميشيل فوكو تعكس محاولته لفهم تفرد حدث الثورة الإيرانية الذي شكل معضلة سياسية وتاريخية للمفكرين والسياسيين. وقد لاحظ الدكتور بغوره أنه على الرغم من طرح ميشيل فوكو لأسئلة متعلقة بطبيعة الحدث، ومستقبله إلا أنه لم يهتم بالبديل الذي تحمله الثورة، واكتفى بوصف الحدث، وقد عبر في إحدى مقالاته عن عجزه عن تصور المستقبل.

وخلص الباحث في ختام ورقته إلى أن التحليل الذي قدمه ميشيل فوكو للإسلام بمناسبة الثورة الإيرانية يعكس بعض الجوانب من فلسفته، ومنها على وجه الخصوص مفهومه للفلسفة بما يتضمنه من تشخيص للحاضر، ومن اهتمام بالمختلف، وبما يتضمنه من نقد وحرية.

وفي نظر فوكو فإن مختلف أشكال السلطة متماثلة، بما أن السلطة علاقة تقوم على القوة في وضع استراتيجي معين، وتخضع للتحول في أشكالها وآلياتها وتقنياتها. وعلى الرغم من أن عبارة «السياسة الروحية» تحمل مفارقة ظاهرة، إلا أنها تعد في نظر فوكو بمثابة مطلب أخلاقي وحق سياسي على السلطة أن تضمنه لمواطنيها.

من جانبه تعرض المفكر الدكتور محمد المصباحي في ورقته إلى موضوع: «التحالف بين الفلسفة والدين بوصفه مخرجاً لأزمة الحداثة السياسية عند ليو شتراوس»، وأشار في البدء إلى أن الرجوع للتراث الفلسفي الكلاسيكي في توافقه مع التراث الديني الوسطوي لفهم أزمة الحداثة وتقويمها، وعلاجها هو عنوان مشروع ليفي شتراوس (1899 Levi Strauss - 1973م)، وذلك في علاقة جدلية تتراوح بين الاستمرار والتقابل بين الحداثة وما قبلها. وقد جاء موقفه هذا بمثابة رد فعل مضاد على هيمنة إشكالية «النهايات» على الزمن الحديث، فأمام أزمة الحداثة السياسية لم يجد شتراوس بُداً من الانخراط في سلك منتقديها ولكن ذلك تم بطريقته الخاصة، حيث فاجأ الجميع بالقول إن الحداثة نفسها هي علة أزمة الحداثة، كما أنه كان يعتبر الفلسفة خطراً على السياسة، والدين معاً، وهذا ما حدا به إلى جعل هاجس التقابل بين السياسة واللاهوت (الثيولوجيا)، هو المتحكم في

تأويله للمسألة الدينية، وقد اختار منذ البداية خوض معركة إعادة النظر في الفلسفة السياسية في جبهتين: جبهة نقد الحداثة، وجبهة نقد «نقد الحداثة».

وقد كان التضاد بين السياسة، والفلسفة أو بين المدينة والحكمة هو نقطة انطلاق شتراوس في تحليله لأزمة الحداثة السياسية، عبر تاريخ الفلسفة، وقد استخلص من شروحه على جمهورية أفلاطون صعوبة إبرام اتفاق بين الفلسفة والسلطة السياسية لتدبير شؤون المدينة، ذلك أنهما يذهبان في اتجاهين متعارضين على أكثر من مستوى.

وينبه الدكتور المصباحي إلى أن انتقاد شتراوس للحداثة السياسية لا يعني أنه كان ينتصر لعودة الفلاسفة، أو الكهنة لتحمل مسؤولية الحكم السياسي سواءً على المستوى السياسي أو القضائي، وإنما كان يعني ضرورة الأخذ بعين الاعتبار المعطى الديني، فرجل الدين ضروري للمجتمع كونه يُنبه إلى بُعده الروحي الغامض، وهذا البعد قد يكون وراء المعنى الذي يكتنزه الإنسان.

وفي الختام أشار الدكتور محمد المصباحي إلى أن مشروع شتراوس السياسي يرمي إلى ربط السياسي بالديني بتوسط الفلسفة، أو بالأحرى توسط تاريخ الفلسفة من خلال جعل الماضي ترياقاً لعلاج أزمة الحاضر، كما ذكر أن «فكرة اتصال الحكمة بالشريعة، وفكرة الكتابة المضطهدة التي تُخفي غموض الإنسان، وهما الفكرتان اللتان استوحاهما شتراوس من الفارابي، وابن رشد عن طريق ابن ميمون، كحل لأزمة الحداثة السياسية، تُبرزان أهمية العودة إلى تاريخ الفلسفة لاستلهام مخرج للأزمات التي تعترض إنسان اليوم» (ص:121).

أما الباحث الدكتور محمد الشيخ من جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء فقد عرض في ورقته المعنونة: «فصل المقال فيما بين الدين واللاهوت من اتصال عند كارل شميث» رؤية كارل شميث لجدلية الدين والسياسة من خلال الأحاديث التي أدلى بها، وذكر أن أحاديث المفكر السياسي، والحقوقي الألماني كارل شميث (1888 – 1985م) عن أمر «الدين» عديدة حتى أنها تكاد لا تُحصى، ولا تعد. فثمة الكثير من الملاحظات التي أبداها عن الدين، ولا سيما في صلته بالسياسة، وقد تجلت في تضاعيف مصنفاته، ومن بينها دراسته عن «اللاهوت السياسي»، وكتابه عن «مفهوم الشأن السياسي»، الذي يعتبر الكتاب الوحيد الذي خصصه المفكرون السياسيون المحدثون بغاية تناول دلالة «الشأن السياسي». ورأى الباحث د.محمد الشيخ أن الصلة بينً السياسة والدين تنجلي عند كارل شميث من جانب أن ثمة تماثلات عجب بين المفاهيم الحقوقية السياسية من جهة، والمفاهيم اللاهوتية من جهة أخرى.

وأوضح الباحث مصطفى حنفي في ورقته رؤية جون رولز للمسألة الدينية، حيث عنون بحثه بـ: «جون رولز والمسألة الدينية: الحرية والتسامح»، وذكر في المقدمة أن ورقته تشتغل على زاوية محددة من زوايا التفكير الفلسفي السياسي المعاصر في المسألة الدينية، وتحديداً على الجانب الأخلاقي الموصول بمبدأ التسامح في بناء صرح نظرية العدالة السياسية عند جون رولز.

ورأى في بحثه أنه لا جدال في قوة الأطروحة الفلسفية التي تعلن عنها كتابات جون رولز عن العدالة في دائرة الفكر السياسي المعاصر. ويزداد جلاء قوتها عند إدراك

«موقعها في سياق مشروع تجديد الفلسفة السياسية الليبرالية، وإعلانها ضرورة الارتفاع إلى مستوى آخر من الفكر والتفكير تأخذ مأخذ الجد أولوية قيمة التسامح في مواجهة مشكلة التعايش السلمي بين الأشخاص ذوي التوجهات الأخلاقية، والدينية المختلفة، ولم يكن هذا الأمر سهلاً، ولا متيسراً، فقد كانت الخطوة الفلسفية الأساس التي خطاها رولز في هذا الاتجاه تعلن عن رغبته في استئناف القول الفلسفي في السياسة من وجهة عملية تروم الجواب على مستوى آخر أغنى، وأعمق عن السؤال الأخلاقي السياسي الذي دشن القول فيه من قبل سلفه أفلاطون» (ص:145-146).

وبخصوص قضية التسامح، والمصلحة المشتركة فقد ذهب الباحث إلى أن جون رولز يُعرف حرية الضمير باعتبارها إقداماً على فعل ما نريد، ولكن بصورة محدودة تحدها المصلحة المشتركة من أجل النظام العام والأمن. وقد تناول جون رولز موضوع التسامح في سياق نظرية العدالة. ورأى الباحث أن نظر رولز في التسامح واحد في المعنى، وإن تعددت نعوته، وأوصافه، وصياغته الدقيقة لمبادئ العدالة تعتبر من أهم وأجمل ما خطته الفلسفة السياسية المعاصرة في موضوع النظر السياسي في الدين.

من جهته، عالج الباحث عمر بوفتاس من جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء في دراسته موضوع: «أخلاقيات السياسة» باعتبارها شكلاً من أشكال الأخلاقيات التطبيقية، وسعى إلى تحديد أبرز العلاقات الممكنة بين السياسة والدين والأخلاق. كما سلط الضوء على نماذج من الأخلاقيات السياسية، واعتبر أنه إذا كانت «أخلاقيات السياسة» المعاصرة تؤكد ضرورة تخليق الشأن السياسي مثله مثل باقي شؤون المجتمع الحديث، فإن اهتمامها في هذا الإطار ينحصر في إطار «الأخلاق الجماعية» دون الفردية، فالأخلاق الجماعية ترتبط بقيم تنبع من الطابع الاجتماعي للإنسان، الذي يلزمه التعايش والمشاركة والتضامن والتعاون مع الآخرين.

وذهب الباحث إلى القول إن «أخلاقيات السياسة شأنها شأن باقي فروع الأخلاقيات التطبيقية، لا تلغي الأخلاق المعيارية، بل ترتئي ضرورة الفصل بين مجالين: مجال الشأن الخاص الذي هو مجال الأخلاق الفردية المعيارية التي تستمد من الأديان والفلسفات الأخلاقية الكلاسيكية؛ ومجال الشأن العام الذي هو مجال الأخلاق الجماعية التي تنظم شؤون الجماعة السياسية، وشؤون الجماعات المنضوية تحتها، وخاصة منها الجماعات المهنية، والاختصاصية، والعلمية، وهذا هو ميدان (الأخلاقيات التطبيقية)» (ص:178).

وقارب الأستاذ عبد العلي معزوز في ورقته موضوع: «الدين والدولة عند هيجل»، حيث رأى أن الدولة في فلسفة هيجل السياسية هي العقلاني في ذاته ولذاته. وهي التجسيد الفعلي للروح الموضوعي. وفي نظر هيجل أنه لا يمكن تصور غاية للدولة غير الحرية، ولا تجد فكرة الدولة ما يبررها إلا في تحقيق الحرية الملموسة، الحرية المتعيِّنة في الواقع. أما الدين – حسب هيجل – فهو وعي الروح المطلق بذاته. وبالنسبة للعلاقة بين الدين والدولة ذكر الباحث أن ما يستنبط من تعريفات هيجل فالدين يهم الداخل، أو يهم الحياة الداخلية، أي الشعور الديني في مرحلة أولى، والوعي الديني في مرحلة متطورة، بينما الدولة تهم الخارج أي التنظيم الخارجي التشريعي،

والقانوني، والمؤسسي.

وناقش الأستاذ عز العرب لحكيم بناني من كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس قضية «الخلافة والملك»، وعرض موقف ابن خلدون، وموقف علي عبد الرزاق، كما أوضح تصور سبينوزا للدين، والسياسة.

وتطرق الدكتور عبد الحق منصف لموضوع: «الدين والمجتمع والسلطان السياسي في الفكر الإسلامي»، وتوصل بعد مناقشته المستفيضة لهذه القضية، وقراءته لمجموعة من النصوص التي أدلى بها في الموضوع إلى مجموعة من الخلاصات العامة من أبرزها أن الجسد وحاجاته شكلا قاعدة للنظرية الاجتماعية على مستوى التمثل، و«أنه على الرغم من ارتباط الدين بالدولة في تاريخ المجتمعات الإسلامية، وعلى الرغم من كونه أصبح إحدى المؤسسات التي تحتكرها الدولة، فقد ظل أحد مكونات استمرار الحياة الاجتماعية، ولم يكن الدين في الأصل، أي من حيث كونه وازعاً أخلاقياً داخليا، أداة تخريب، وترهيب، وتدمير للمؤسسات، والساحات العمومية والأفراد؛ إنه يمس العلاقة الحميمية بين الفرد وربه» (ص:248).

ورأى الباحث عبد الرزاق الدواي في دراسته الموسومة: «في التسامح والحقّ في التنوع الثقافي» أن ما يمكن أن يمنح عملية المثاقفة الواعية حظوظاً كبيرة للنجاح هو إعمال مبدأ التسامح، وتفعيله باعتباره قيمة أخلاقية وقانونية عالمية، قوامها احترام المبادئ الأساس لحقوق الإنسان، والإقرار بالحريات الأساس للآخرين، وبحقوق الاختلاف، والتنوع الثقافي، وذلك من شأنه أن يُسهم فعلياً في تهيئة أجواء معنوية وفكرية ملائمة، تشجع على قبول مُراجعة الآراء، والمواقف القبلية المتخذة إزاء الآخرين، وثقافتهم، إضافة إلى أنها تحث على ممارسة النقد والنقد الذاتي، وذلك سعياً إلى تحسين المعرفة بثقافة الطرف الآخر بقدر الإمكان.

وفي القسم الفرنسي ناقش الباحث جوزيف معلوف: «مسألة الحقيقة في الأديان» من خلال وقوفه مع مجموعة من القضايا الرئيسة التي تتصل بمسألة الحقيقة، وتجلياتها في مختلف الأديان.

---

*عنوان الكتاب: الدين والسياسة من منظور فلسفي.

تحت إشراف: محمد المصباحي.

اشترك في تأليفه مجموعة من الباحثين.

مكان النشر وتاريخه: منشورات عكاظ، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ٢٠١١م.

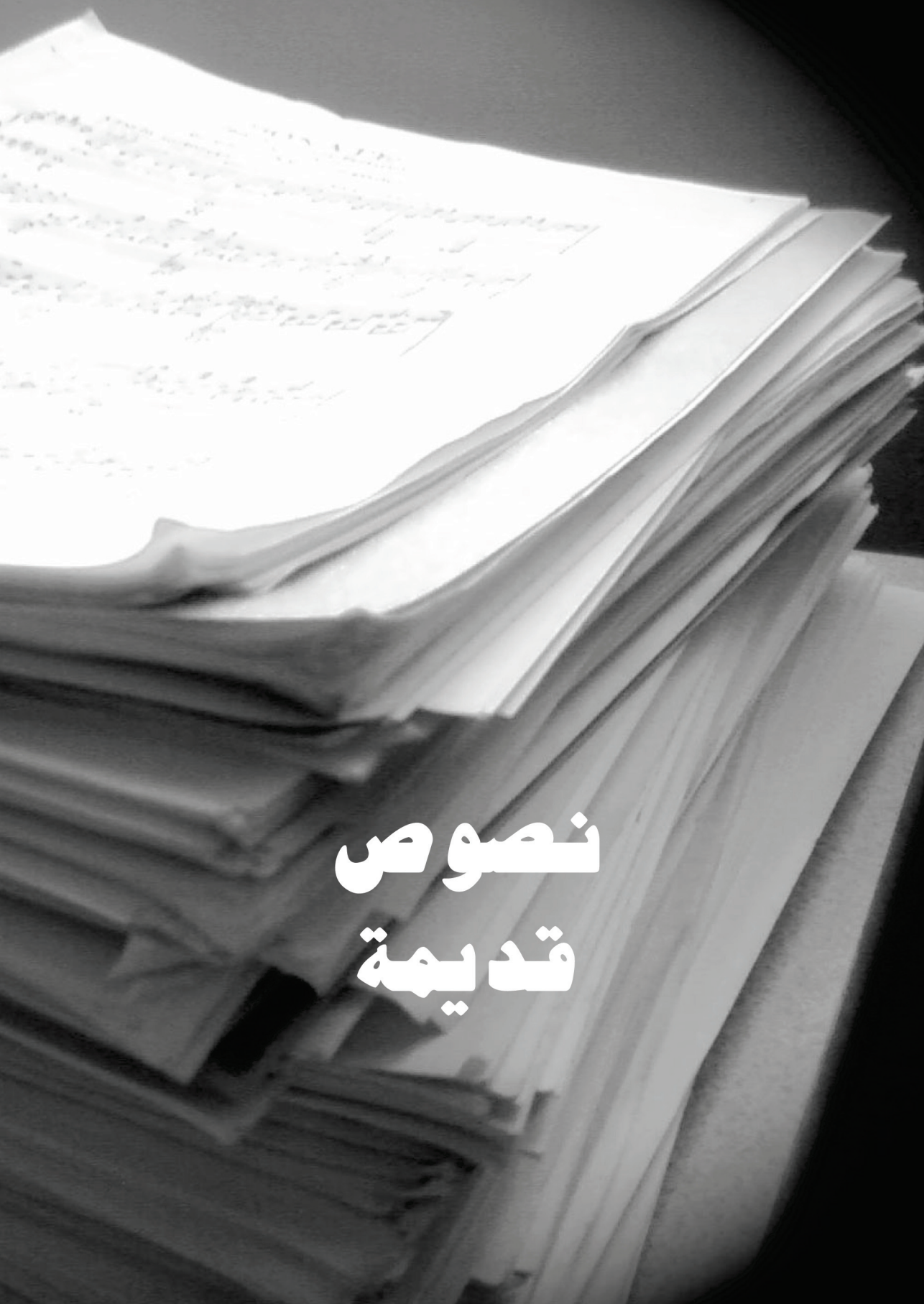

نصوص قديمة

أوضاع العراق عشية ثورة تموز في تقارير السفارة البريطانية *

نسمع ونقرأ، منذ بعض الوقت آراء تقول إن ثورة تموز لم تكن مبررة. وكثر ترديد هذه الآراء حتى على لسان من خدمت الثورة مصالح فئته، لا سيما في أيام الانتكاسة الحالية الحقيقية. وتزايد شعور الاحباط واليأس من حصول التغيير المنشود أو من امكانية علاج أوضاع العراق المتدهورة في حالة حصوله. وتذهب هذه الآراء لتحمّل ثورة تموز مسؤولية تتابع الانقلابات، التي أوصلت بلادنا الى وضعها الحالي، وتنسى أو تتناسى الفرق الكبير بين طبيعة ثورة تموز وطبيعة الانقلابات التي أجهزت عليها، وكذلك الظروف التي كان العراق يعيشها قبل الثورة.

صحيح ان ثورة تموز بدأت بانقلاب قام به عسكريون، لكن هذا الحدث (انقلاب) كان القوة الضاربة بيد شعب يعاني الفقر وظلم نظام اقطاعي، وما يتبع هذا النظام من اضطهاد سياسي. فقبل ان يستتب الأمر لرجال الانقلاب تحول ما بدؤوه الى ثورة حقيقية، لا سيما الريف حيث بادر الفلاحون، وكانوا يومذاك غالبية الشعب، الى طرد الاقطاعيين من الاراضي التي كانوا يتحكمون بها دون وجه حق في أغلب الاحيان. فكان ضرب النظام الاقطاعي أهم مبررات الثورة وأضفى عليها طابعاً اجتماعياً بالأساس. ولا يقلل من هذه الحقيقة تحول الحكم الذي انبثق عنها الى حكم فردي لم يسمح بتوفير وضع سياسي سليم يلائم طابعها هذا، أو نجاح العديد من المحاولات لتفريغ الاصلاح الزراعي من محتواه التقدمي، أو توقفها وانتكاستها تحت الضغوط الداخلية والخارجية التي سحقتها في نهاية الأمر.

ومن مبرراتها الهامة الاخرى، ان الحكم الملكي كان في سنواته الأخيرة في أزمة شديدة، وخصوصاً منذ 1956 بعد العدوان الثلاثي على مصر، ثم قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام 1957. وبقيت أزمته هذه دون حل برغم تعاقب الوزارات التي كان البلاط يأمل أن تقدمه له، وبقيت الوزارات الثلاث(1) عاجزة عن ذلك.

إن سلسلة الانقلابات التي أوصلت العراق الى وضعه الحالي بدأت، بتقديري، بانقلاب 8 شباط الرجعي (عام 1963 – المحرر) الذي اعتبر ما تبعه من انقلابات امتدادا له. ولم يكن لهذه الانقلابات ما يبررها إلا اهدافها السياسية، فهي لم تطرح برامج اجتماعية وانما استهدفت، بالتعاون مع بقايا قوى الاقطاع وبإسناد من قوى خارجية، القضاء على الطبيعة التقدمية لثورة تموز. وكان أول عمل قامت به هو ابطال قوانين تقدمية سنتها الثورة. فألغت قانون الأحوال الشخصية، وعطلت قانون رقم 80 الذي استرجع 99% من مساحة العراق من قيد الامتيازات الممنوحة لشركات النفط الأجنبية.

أما القوى الخارجية، التي دفعت انقلابيي شباط وساعدتهم على تنفيذ انقلابهم وانجاحه،

فكانت تستهدف اعادة سيطرتها على العراق، وكانت اهدافها المنظورة سياسية، وخدمت مصالحها الاقتصادية والستراتيجية على الأمد الطويل؛ اذ كانت معنية قبل كل شيء بمحاربة الاتحاد السوفيتي وابعاد العراق عن دائرة تأثيره، استمرار حلف بغداد ومحاربة الشيوعية داخليا(2). كما ان شعار الوحدة الفورية الذي تستر وراءه الانقلابيون أغرى عبد الناصر ودفعه لمساعدتهم مادياً ومعنوياً. والى جانب الاهداف السياسية البحتة لانقلاب شباط كانت وراءه دوافع ذاتية قوية، حزبية وشخصية، تجلت بعد ذلك في الصراعات العنيفة داخل حزبهم نفسه، والتي وصلت الى حد الاقتتال بين أجنحته والتصفيات والانقلابات داخل القوى المنفذة لانقلاب 8 شباط .

التقارير والرسائل التاليةِ المترجمة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية تعكس الوضع الذي كان سائداً في العراق خلال الأشهر التي سبقت الثورة، وموقف الحكومة العراقية من المشاكل الاجتماعية والسياسية التي كان العراق يعانيها، ودور قادة الحكم بالعراق في تعميقها، أو في الأقل وقوفهم عاجزين عن حلها.

وكتوطئة للوثائق الثلاث التي اخترتها(3) لا بد من ذكر بعض المقتطفات من تقرير(4) السفير البريطاني سير مايكل رايت، حول أحداث عام 1957 للتذكير بالمصاعب السياسية والاقتصادية التي كان الحكم يواجهها عام 1957، السنة التي تلت العدوان الثلاثي على مصر، حيث ساعد النظام العراقي اثناءها قوات العدوان بالسماح لها بالتحليق فوق الأراضي العراقية والتوقف في القواعد البريطانية في العراق للتزود بالوقود.

بشرى برتو

مقتطفات من تقرير السفير البريطاني حول احداث عام 1957

"عندما بدأ عام 1957، كان الملك وولي العهد ونوري (المقصود نوري السعيد – المحرر) يكافحون دون كلل نتيجة لأزمة السويس للبقاء على سياسة العراق الموالية للغرب، وعلى عضوية العراق في حلف بغداد، وعلى النظام نفسه (...). قطع انبوب النفط المار عبر سوريا وتعرض مستقبل البلاد الاقتصادي والسياسي للخطر (...).

أعيد افتتاح المدارس وخففت الرقابة على الصحافة تدريجياً، وقل عدد المحتجزين تحفظاً، وألغيت الاحكام العرفية في نهاية آيار. وشهد شهر نيسان عودة مشاركة العراق في نشاطات حلف بغداد (...). وخلال هذه الفترة كانت أصعب مشكلة داخلية هي تمويل الميزانية (...) ونتيجة لتفجير ثلاث محطات ضخ على خط أنابيب كركوك – البحر المتوسط في شهر تشرين الأول، توقفت صادرات النفط من الحقل الشمالي، ولن تكون الزيادة المتوقعة من حقل البصرة الأصغر جداً إلا زيادة هامشية. وحتى آذار، جابهت الحكومة عجزاً في الميزانية المالية عام 1957 مقداره (8.5) مليون باون، وهي تعلم ان عجزاً أكبر بكثير سيحصل في السنة المالية 1957 /1958.

(...) وقد باشر العراق في الواقع برنامجاً للتنمية الوطنية، فيه شيء من ميزات دولة الرفاه، ولكن نجاحه المتواصل يتطلب توفير عاملين: الأول أن تتعاقب حكومات تتمتع بدرجة كافية من الحسم، لمنع الكفاح السياسي من أجل تحطيم النسيج الوطني. والثاني ان لا تنقطع العوائد النفطية. وقد طرح عام 1957 تحذيرات في كلا هذين الجانبين؛ ففيما يتعلق بالأول جرت محاولتان، كانتا فاشلتين نسبياً، لإيجاد زعيم غير نوري، يحمل سياسة النظام بنجاح قدماً. وفي ما يتعلق بالثاني، أدى انقطاع خط الانابيب أثناء أزمة السويس الى اقناع الجميع بأن الاقتصاد العراقي والحياة الوطنية كذلك سيكونان بأقصى ما يمكن من الهشاشة، اذا ما سيطرت أيد غير صديقة على خط الانابيب المار عبر سوريا، وإن لم تضمن منافذ بديلة للنفط العراقي. وبدا الخطر الذي يواجه العراق من سيطرة ناصر أو الشيوعية على سوريا واضحاً بشكل جلي. وبدا للنظام العراقي ان سياسات ناصر والاتحاد السوفيتي لا يمكن التفريق بينهما تقريباً.

وفي الواقع، فالعراقيون مقتنعون ان الاثنين يعملان سوية ويداً بيد. وانه لا يمكن للعراق ان يأمل بمواجهة الخطر بمفرده، وبدا ان صداقة واسناد بريطانيا والولايات المتحدة والاعضاء

الاقليميين في حلف بغداد لا غنى عنها. كما ان صداقة البلدان العربية الاخرى في النضال ضد ناصر والشيوعية، وفي اسناد السياسة الموالية للغرب، عوائق هائلة (...)".

الوثيقة الأولى

خاص، تقرير حول سفرة قام بها سام فاله، المستشار للشؤون الشرقية في السفارة البريطانية في بغداد، الى الكوت والعمارة في 17 - 20 كانون الأول 1957.
رقم الايداع 134197/371FO.

من بغداد الى الكوت

(104 اميال). الاميال الـ 38 الاولى منها كانت على طريق اسفلتي جيد، والباقي من الطريق كان سيئاً، وربما لا يمكن السير فيه عند المطر، والعمل جار على تعديل الطريق.

الكوت

المنطقة كئيبة ومظاهر الكآبة واضحة. وكما قال المتصرف والآخرون الذين تحدثت معهم، هناك بطالة واسعة وينتشر الفقر والجوع الحقيقي. والمنطقة هادئة في الوقت الحاضر، ولكن فيها طاقات كامنة دائما للاضطراب. وكان الوضع خطيراً في مدينة الحي التابعة للواء الكوت بشكل خاص في السنة الماضية(5).
والسبب الرئيسي للاضطرابات هو وجود اصحاب الاراضي الاقطاعيين الكبار. فالفلاحون مضطهدون ولا يكادون يقدرون على تدبير معيشتهم، ما يؤدي الى تركهم الارض والذهاب الى المدن، حيث لا يتوفر على اية حال العمل الكثير لهم. واصحاب الاراضي الرئيسيون هم عائلة محمد الحبيب، امير ربيعة. ويبدو ان هؤلاء لا يضطهدون الفلاحين وحسب، انما ايضا يتمتعون بنفوذ يجعلهم بعيدين عن طائلة القانون. وادعى المتصرف، محمد حقي رسول، انه غير قادر على السيطرة عليهم، بسبب النفوذ الذي يتمتعون به في بغداد. ولم يسن اي قانون لتوزيع الاراضي في لواء الكوت.
ولا توجد مشاريع كبيرة للاعمار، ولكن تجري تجارب حفرية من اجل بناء جسر جديد، وهناك بعض البنايات الجديدة والمدارس ومستشفى وسراي. ولا يمكن الحديث عن شوارع في المدينة.
قمت بزيارة مشروع الدجيلة للري والاستيطان، الذي يتزود بالماء من قناة تلي سد الكوت. وهذا المشروع فاشل حتى الان. واسباب ذلك هي ان المستوطنين غير مناسبين، هذا من جهة ومن جهة اخرى ملوحة الارض دون ان يوجد بزل مناسب. لكن المتصرف قال لي انهم سيبدأون بالبزل قريباً. والمستوطنون ليسوا متضجرين جميعاً، وقد تحدثت الى احدهم وبدا ان اموره سائرة بشكل مقبول.

من الكوت الى العمارة

استغرق قطع مسافة 140 ميلاً بـ8 ساعات في سيارة لاندروفر، برغم ان الظروف الجوية كانت ممتازة؛ اذ لا

يوجد طريق مقبول، ولا يمكن السفر عند المطر.

العمارة

يعيش حوالي نصف سكان العمارة (يقدر مجموعهم بـ54 ألفا...) في صرائف بظروف من القذارة البشعة والفقر. والعديد منهم عاطلون أغلب الوقت وأن وجدوا الفرصة فيعملون كعمال وقتيين. وتتراوح مداخيل العائلات بين 4 – 5 دنانير عراقية شهرياً.

يتطور العمل بسرعة في أعمال البزل. ويخطط المتصرف، حسين سعد، لبيع الأراضي المستصلحة بأسعار رخيصة الى فقراء الطبقة المتوسطة، من أجل بناء بيوت خاصة بهم. وفي تخطيطه يتصور بناء (400) بيت على قطع من (400) متر مربع. كما يخطط أيضاً اعطاء سكان الصرائف فرصة لبناء بيوتهم الخاصة على قطع من (100) متر مربع. ولكن لا يبدو ذلك ممكناً إلا اذا وفرت البيوت لهم مجاناً.

وفيما عدا بعض البنايات الحديثة، ومن بينها السراي ودار ضيافة ممتاز، فإن مشروع الاعمار المنظور الوحيد هو بناء جسر جديد. ويقال ان هناك خططاً لانشاء مصنع للورق ومشاريع للري. واعتقد بوجود أمل في العثور على النفط قرب المنطقة.

دخلت في مسألة توزيع الأراضي بالتفصيل. وباختصار فالمسألة كالتالي: الاراضي في لواء العمارة هي أراض أميرية(6)، افضل هذه الأراضي، ربما تزيد على مليون دونم، يستغلها الشيوخ المحليون. والظروف التي يفرضها الشيوخ على الفلاحين هي من السوء لدرجة ان العديد منهم لم يستطيعوا البقاء في هذه الأراضي وابتعدوا عنها.

وقد استهدف قانون توزيع الأراضي في لواء العمارة لعام 1955 اعطاء 50% من الاراضي المستغَلة من قبل الشيوخ الى الفلاحين، وتبقى الـ 50% الاخرى للشيوخ. وقام الشيوخ، مستفيدين من فقرة غامضة في القانون، بتطبيقه بشكل يحصلون منه على جزء من الـ 50% العائدة للفلاحين، وذلك لتخصيصها لأقاربهم. ويحاول المتصرف العمل على اعادة النظر في القانون.

ومهما يكن من أمر، فقد حصل بعض التوزيع. ويوجد الآن حوالي 300 مالك صغير من الفلاحين، زرت حوالي 50 منهم في ثلاث مناطق مختلفة. وكان الذين تحدثت اليهم قد حصلوا على أراضيهم منذ بضعة أشهر فقط وما يزالون فرحين لأنهم أصبحوا "شيوخاً". لم تبد ظروفهم سيئة ولكن من الواضح هناك عدد من المشاكل الجدية لم تحل حتى الآن مثل الماء وتوفير القروض الزراعية. الفلاحون الذين زرتهم كانوا يسحبون الماء من الشيخ المحلي ويعطونه مقابله حصة من منتجهم. وفي احدى القرى حيث يعطي الفلاحون 25% من منتجهم للشيخ مقابل الماء. بدا هذا الترتيب يسير بشكل جيد. وفي قرية اخرى حصل جدال، كان المفروض أن لا أسمعه، لأن الشيخ كان يطلب أكثر من 25%، وهذا النظام غير مرض كما هو جلي؛ اذ انه يضع المالكين الصغار تحت رحمة الشيوخ ومالكي مكائن الضخ. وتستهدف دائرة استيطان الاراضي توفير الأرض

لحوالي 8000 فلاح ولكنها غير واثقة من امكانية تحقيق ذلك.
واذا ما نجح مشروع الاستيطان، وهذا ما لا اعتقده إلا اذا عولجت مسألتا الماء والقروض بشكل منهجي، فسيمكن ايقاف النزوح عن الأرض. ولا أرى في الوقت الحاضر أي أمل في توطين سكان صرائف العمارة في أرض ما. وقد يحصل ذلك لاحقاً اذا ما أصبح بالامكان توفير المياه لما يقرب من ثلاثة ملايين دونم من الأراضي الأميرية، قيل لي انها عديمة النفع في الوقت الحاضر، وهي غير مستغلة من قبل الشيوخ.
كان المتصرف والقائمقام ومسؤولو استيطان الأراضي، الذين تحدثت معهم، ممتلئين مرارة من الشيوخ الرئيسيين الذين يستغل ستة منهم حوالي 600 ألف دونم، وهم مجيد الخليفة ومحمد العريبي وخريبط الفلاح وجثير مطلك السلمان وعبد الكريم الجوي. استغربت للطاعة والود الظاهرين من قبل سكان الصرائف في العمارة، وبدا ان نشاط المتصرف والتقدم السريع لمشروع استصلاح الهور يشكل عامل تشجيع لهم.
كما بدا أنهم اناس بسطاء يقنعهم القليل، ولكن هذا القليل أكبر من مصيرهم الحالي. وطلبوا مني عمل شيء ما لهم لأن البريطانيين هم "آباؤهم". من جهة اخرى، قال لي أحد الموظفين ان هؤلاء الناس يعتبرون "ناصر" إلهاً. وفي الموصل قيل لي انه مجرد نبي.

الاستنتاجات

الكوت والعمارة لواءان مهملان، ومستوى المعيشة واطئ بشكل مخجل، وتعود الاسباب الرئيسية للنهب الذي يقوم به الشيوخ والزراعة غير الفعالة. كما لا يشعر المرء بأي أثر لبرنامج الاعمار. ولا يوجد خطر واضح أو فوري من حصول اضطرابات، لكن هناك أساسا قويا للشيوعية والقومية الفوضوية (قيل لي في الكوت إن الشيوعيين بامكانهم أن يفوزوا في انتخابات حرة). ومن الممكن ان يتحرك هذا الوضع اذا ما حصلت أحداث سياسية خارج العراق، واذا استمرت الحكومة في رفضها اتخاذ عمل حازم ضد الشيوخ أو بالاثنين معاً. وكل من تحدثت معهم كانوا ينتقدون سياسة الحكومة بشدة وبعضهم يتصور ان بالإمكان اعطاء الحكومة فرصة اخرى بينما البعض الآخر متشائم تماماً.
ويبدو ان من الضروري على حكومة العراق أن تقوم بما يلي: أ- تخصيص مزيد من الأموال للإداريين المحليين للصرف على المشاريع التي تظهر نتائج سريعة. والعمل الجاري في استصلاح الهور في العمارة تحت اشراف المتصرف هو مثال واضح لما يمكن عمله. كما ان مشروع الاسكان المقترح في العمارة سيتطلب رأسمالاً، اذ ان من ستخصص لهم هذه البيوت لا يملكون إلا القليل او بالأحرى لا يملكون شيئاً. وكذلك يجب عمل شيء ما لشوارع الكوت.
ب – قانون توزيع الأراضي في العمارة يتطلب ادارة حازمة واستبعاد أي غموض أو شذرات. ويجب جعل القانون فاعلاً بشكل يجري فيه حقاً توزيع 50% من الاراضي المستغلة من الشيوخ على الفلاحين.
ج – يجب عدم ترك القرى الزراعية

الجديدة للدفاع عن نفسها بنفسها، وإلا فانها ستقع تحت سلطة الشيوخ. وكبداية فالأساسيات الحيوية هي ضمان توفير المياه والقروض لشراء البذور وربما أيضاً السماد والمعدات، ووضع مشروع للتسويق التعاوني ولا استطيع الحكم بمدى ضرورة المكائن، ولكن اذا ما جرى استخدامها فمن الضروري اقامة مركز للمكائن وعاملين ومدربين فيه.

د – هناك حاجة لمشاريع للري من أجل مد الزراعة الى اراض جديدة، وتحسين الاراضي الحالية في لواء العمارة.

هـ – وهناك أيضاً حاجة لمعالجة توزيع الأراضي في لواء الكوت.

و – ولمشاريع الأمد الطويل قيمة كبيرة خاصة وان متصرف العمارة تحدث عن مصنع للورق.

ز – من الضروري ان تعي الحكومة الجديدة بشكل كامل الظروف الموصوفة في هذا التقرير. وربما عليها ان تدرك انها سيحكم عليها بالنتائج، وانها بحاجة للقيام بشيء ما بسرعة، أو في الأقل أن يظهروا أنهم مدركون للمشاكل وعازمون على معالجتها. وكبداية يجب أن يقوم الوزراء المعنيون شخصياً، وبشكل خاص وزراء الداخلية والزراعة والشؤون الاجتماعية والاقتصاد والاعمار، بجولة في لواءي الكوت والعمارة، وان لم يتم عمل شيء أكثر مما يجري الآن فسرعان ما سيحصل افتراض ان الحكومة(7) ليست أفضل من سابقاتها رغم كون رجالها من الشباب وأنها تخضع أيضاً لنفوذ الشيوخ الأغنياء.

السفارة البريطانية
بغداد 31 كانون الأول 1957

الوثيقة الثانية

سري: برقية رقم 204 موجهة من سير مايكل رايت الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ 11 شباط 1958.
رقم الايداع 134197/371FO.

أقدم التحليل التالي للوضع في العراق وتطوراته:

تطرح الوحدة بين مصر وسوريا تحدياً خطيراً على العراق وجيرانه وعلينا وعلى الامريكان، ففكرة الوحدة تحضى بتأييد واسع النطاق وبشعبية هنا. انها جذابة بالنسبة للقوميين كافة بمختلف مستوياتهم، وجزئياً للمثقفين والطلاب لأسباب عاطفية، وللرأي العام غير المفكر لأنهم يرحبون، بالأساس، بأية خطوة نحو الوحدة دون اجهاد أنفسهم لمعرفة ما ستكون عواقبها.

ومن الناحية الاخرى ففي الوقت الذي يؤيد فيه الملك وولي العهد وأغلب السياسيين الذين يشعرون بالمسؤولية وأغلبية البرلمان الحالي ورؤساء العشائر الأقوياء مبدئياً الوحدة العربية وفق الخطوط الصحيحة، فانهم يرون في هذا الشكل خطراً على وجود النظام والعراق ذاته. وأصبحوا متزايدي القلق خاصة حول مسألتين:

أ– السيطرة المحكمة التي أصبحت لناصر على خط الأنابيب المار عبر سوريا. وقطع هذا الخط سيسبب ضرراً مميتاً للاقتصاد الوطني ولبرنامج الاعمار ان عاجلاً أم آجلاً. وإن لم ينقطع فعلاً فمن الممكن أن يجري الضغط على شركات النفط لدفع فدية قد تساوي الشيء نفسه تقريباً. وعلى أية حال سيتمكن من استخدام التهديد بإيقاف

الضخ للابتزاز السياسي في عدد متباين وواسع من القضايا.
ب – التعاون الروسي – السوري طويل الأمد وأثره في مسألة تطوير مياه الفرات الأعلى. هذه مسألة أهم من دجلة بالنسبة للري في العراق.
وتسير الأحداث الآن نحو تشكيل حكومة قوية برئاسة نوري (رغم ان هذا ليس مؤكداً) وربما بقاعدة واسعة قدر الامكان. واذا ما تسلمت الحكم وزارة كهذه، فستكون أهدافها الحفاظ على الروابط مع الغرب والابقاء على استقرار الوضع الداخلي، واما منع استخدام القبضة القوية أو كسرها ان استخدمت(8). وفي المطاف الأخير فانهم قد يفضلون كسرها عوضاً من الخضوع.
وكخطوة اولى في هذا الاتجاه، طار الملك الى عمان لرؤية حسين (ملك الاردن في حينه – المحرر) بهدف انجاز شكل من الاتحاد بين الأردن والعراق. وهم يأملون أن ينضم حاكم الكويت، بمساعدتنا بشكل ما الى هذا الاتحاد أو في الأقل يقدم مساعدة اقتصادية له وكذلك أن يشارك سعود (ملك السعودية آنذاك – المحرر) أو يساند العملية بشكل ما. ولكن من غير المحتمل أن تشعر الحكومة القوية بقيادة نوري بكفاية ذلك، بحد ذاته، لتوفير الأمن للعراق اذا ما بقيت القبضة القوية على خط الانابيب وتقليص تدفق مياه الفرات.
وفي كل هذا يتجه العراقيون بنظرهم إلينا والى الامريكان للحصول على دعم لكل خطوة عن بعد وبهدوء، وللدعم الكامل في حالة حصول أزمة كملجأ أخير. وهم يعتقدون، ويفترضون أننا نتفق معهم في اعتقادهم، أنه إن قدر للعراق ان ينهار فسيكون من المستحيل حتى مع استخدام القوات البريطانية، أن تقاوم الكويت لفترة طويلة، الحركة السياسية التي ستكون على أبوابها.
في عملية الابقاء على استقرار الوضع الداخلي يبدو من المهم ان تربط الحكومة، أو اية حكومة غيرها، بين الحزم وادخال اجراءات اجتماعية عديدة ذات طبيعة تقدمية. وقد طرحتُ هذا الرأي على ولي العهد والآخرين، وأعتقد انهم متفقون. وطرحت أيضاً ان تضم الوزارة، ان تشكلت، عدة وزراء من ذوي الآراء التقدمية في ما يتعلق بالشؤون الداخلية وآمل أن يكون ذلك مقبولا أيضاً.
وستشعر الحكومة الحالية، أو الحكومة الجديدة برئاسة نوري، بقلق خاص بالتأكيد عند مواجهتها المهمات وتطبيقها للأهداف المذكورة في الفقرة 3 أعلاه، وخاصة في المسائل التالية:
أ– تحقيق بعض التقارب بين العراق والكويت أو، في الأقل، تقديم بعض العون من الكويت الى أي اتحاد يتم بين العراق والأردن.
ب – توفير آفاق لزيادة انتاج وتصدير النفط من الحقل الجنوبي بأسرع ما يمكن، وكذلك الحصول على مساعدة خارجية بالتغلب على صعوبة أي طارئ اقتصادي، اذا ما قطع خط الأنابيب في هذه الأثناء.
وقد علمت ان شركات النفط قررت العمل على ميناء الفاو، ولكن هذا يتطلب سنتين وثلاثة أشهر لإنجازه. ولو كنا نواجه تهديداً مشابهاً

لاقتصادنا أو طارئاً من طوارئ أزمان الحرب، فعلينا، افتراضاً، ان نحاول بكل الوسائل وبعملية سريعة نوعا ما انجاز العمل في فترة أقصر. وقد اتصل بي وزير المالية حول هذه المسألة، واقترح عليّ مناقشتها مع السيد هريدج من شركة نفط العراق الذي سيكون هنا غداً. وأرى ان علينا النظر الى هذا الأمر بسرعة وجدية. وحتى في حالة عدم حصول تهديد مبكر لخط الانابيب السوري، سيكون لمجرد معرفة ان هذا الالتزام سينفذ بسرعة، أثر في تحقيق الاستقرار، خاصة اذا ما نجح الجهد في تقصير فترة الانجاز، مثلاً، لسنة واحدة. وهناك اجراء ثان ينبغي النظر اليه، وهو امكانية مد خط أنابيب بأسرع وقت ممكن من حديثة الى الخليج الفارسي؛ فبذلك يمكن ان يضخ نفط كركوك الى الخليج في حالة حصول طارئ. وسأناقش هذا الأمر أيضاً مع هريدج.

وفي ما يتعلق بالكويت، اطلعت على برقيتكم رقم 322. ولكن، وكما نرى الأمر من هنا، فان القول بعدم استطاعتنا ممارسة الضغط على حاكم الكويت للانضمام الى الاتحاد أو تخصيص أموال له، لا يتوازى مع خطر الوضع أو متطلباته. وأعرض، مع الاحترام، اننا لا يمكننا أن نأمل الى ما لا نهاية في المحافظة على الكويت، ونبقى مرتهنين بهذا الأمل. ولا أن نحدد أنفسنا بدور محامي العائلة الودود. فاذا ذهب العراق فستذهب الكويت بالتأكيد، وبالعكس فاذا استطعنا أن نبعد الخطر، عن طريق المساعدة المقترحة من الكويت، فلن نحافظ على العراق والكويت معاً وحسب وانما أيضا سنضع أسساً لحل القضايا الاخرى في الخليج الفارسي.

الوثيقة الثالثة

سري للغاية، برقية رقم 321 موجهة من السير مايكل رايت الى وزارة الخارجية البريطانية ومؤرخة في 26 شباط 1958. رقم الايداع 234198/371FO .

دعا ولي العهد سفير صاحبة الجلالة في عمان (الموجود الآن هنا لبضعة أيام) كما دعاني الى اجراء حديث في البلاط بعد العشاء ليلة أمس. وكان في حالة من التوتر وأبقانا معه لمدة ثلاث ساعات. اعتقد ان سبب نرفزته هي الأخبار القائلة باعتراف الامريكان بالجمهورية العربية المتحدة (يراه مستعجلاً)، واذاعة خطاب ناصر واستقباله في دمشق، ورسالة يدعي انها من الملك حسين تستنكر تعيين نوري على الوزارة العراقية الجديدة (سوف ابلغكم اذا ما تبين ان لهذا الحدث مغزى مهماً).

ولكن مع طرح هذه العوامل الثلاثة جانباً، وحقيقة انه يصاب أحياناً بفترات من الكآبة، يجب أن يؤخذ قلقه العميق مما يخبئه القدر، وشعوره بالخطر على النظام وعلى مستقبل العراق بالحسبان الجدي.

وهو يعتقد اذا ما استمر سير الاحداث الحالي دون ايقافها، سواء داخل العراق أم في الاقطار المجاورة، سينهار الوضع دون رجعة في فترة أشهر معدودة، وبكل تأكيد قبل نهاية العام. وسيكون تأثير نجاح ناصر ودعايته قوياً.

وقال ان الملك فيصل أخبره في اليومين الأخيرين انه يواجه اختياراً بين خطين، وعليه أن يقرر بسرعة وطلب النصح منه. وقال ولي العهد لنا انه، ولأول مرة في حياته، شعر بعدم قدرته على تحمل مسؤولية تقديم النصح لفيصل. وكان واضحاً ان الخطين هما: أ- أن يسمح للحكومة الحالية، وهي ليست قوية، أن تبقى في الحكم وبذا ينتظر الأحداث وهي تتدهور انتظاراً سلبياً. ب – أن يأتي بمجموعة قوية يرأسها نوري، وتضم كما يتصور توفيق السويدي والجمالي (فاضل الجمالي – المحرر) وأرشد العمري ومرجان (عبد الوهاب مرجان – المحرر) وعبد الكريم الازري وآخرين.

ولكنه، دون أن يقول صراحة، ترك لدي فهماً ان هذه الحكومة لن تشكل إلا على أساس وضع سياسة حازمة ونشطة تجاه سوريا. ومن المؤكد أن تؤدي في أحسن الأحوال الى التدخل بالقوة. وطلب مني ولي العهد أن اجري، أنا شخصياً أحاديث مع أغلب المذكورين، لأكّون حكمي الخاص عن آرائهم. وكان يرغب في أن يتحدث أكثر هؤلاء بأنفسهم معي.

وواصل ولي العهد قائلاً، في الوقت الذي يشكل فيه الاتحاد مع الأردن ضرورة لا يمكن تفاديها وتثمنه الدوائر المسؤولة في العراق، بدأ الحديث ضده يلاقي تشجيعاً من العناصر المعادية وخاصة على أساس ان الاردن سيشكل ثقلاً اقتصادياً على العراق، وسيؤثر سلباً على مستوى معيشة الشعب. والأمر يتطلب من وجهة نظره خطوات ثلاثاً: الأولى، تعزيز الاتحاد اقتصادياً، وذلك يعني الحصول على مساعدة خارجية.

الثانية، اشراك الكويت بالاتحاد لأسباب اقتصادية وللتأثير المعنوي.

الثالثة، استمالة سوريا بالقوة إن لم تكن هناك وسيلة اخرى.

وكرر بعدم وجود امكانية للمحافظة على الوضع في العراق لفترة طويلة، إن لم تتحقق الخطوتان الأولى والثانية في الأقل وربما الثالثة أيضاً. وإن من الاحرى بالهاشميين ان يسقطوا وهم يناضلون بشرف.

(...) ورغم ان ولي العهد أخذ يتحدث في النهاية بهدوء، إلا انه تمسك بتقييمه الأساسي. وقد استقبلنا مجدداً صباح هذا اليوم وأعتقد ان السبب الرئيسي هو أن يظهر لنا انه استعاد هدوءه وتوازنه، ولكن رأيه لم يتغير.

(...) وأنا الآن اقوم باجراء الاحاديث مع أغلب الذين سماهم ولي العهد. وسوف اجري تقييماً جديداً للوضع بعد انتهائي من ذلك. وقد أطلب منكم، عندئذ، توجيهات اضافية. وربما أقوم بزيارة قصيرة الى لندن للتحدث حول القضايا المطروحة. وتبقى الصعوبة الأساسية في المحافظة على شجاعة وحزم الموجودين في القمة، وتوجيههم في الوقت نفسه بالابتعاد عن القيام بمغامرة طائشة. ولا استطيع أن ارى كيف يمكننا أن نأمل في القيام بهذين الأمرين ما لم نستطع أن نحقق التالي:

أ- اظهار وجود أمل بشيء ما بالنسبة للكويت.

ب – تقديم ضمانات موثوقة بالمساعدة الاقتصادية والمالية لتعزيز الاتحاد.

ج – البدء بأعمال التعزيز المبكر للقوة الجوية العراقية(9).

* الثقافة الجديدة العدد ٢٨٣ تموز/ آب ١٩٩٨.

الهوامش:

(١) وزارة علي جودة الايوبي ووزارة عبد الوهاب مرجان، ثم وزارة نوري السعيد (الهوامش وضعتها المترجمة للتوضيح – ث ج).

(٢) عبَر علي صالح السعدي، احد قادة الانقلاب، عن ذلك بقوله "جئنا الى الحكم بقطار امريكي".

(٣) اختياري لها لم يكن، لانها اكثر الوثائق السرية البريطانية تأكيداُ على ما ذهبت اليه، ولكن لسهولة توفرها لدي. ولا شك ان لدى وزارة الخارجية البريطانية وثائق عديدة اخرى تحوي دلائل اقوى واكثر وضوحاً من هذه الوثائق.

(٤) التقرير السنوي ١٩٥٧ من سير مايكل رايت (سفير المملكة المتحدة في بغداد) الى السيد سلوين لويد (وزير خارجية المملكة المتحدة)، بغداد رقم ٧٨ خاص، ٢٤ نيسان ١٩٥٨. رقم الايداع FO/١٣٤١٩٥/٣٧١.

(٥) اشارة الى انتفاضة ١٩٥٦.

(٦) اراض تملكها الدولة.

(٧) حكومة عبد الوهاب مرجان التي استقالت في آذار ١٩٥٨.

(٨) تلميح لرغبة العراق في تغيير الوضع في سوريا، فقد ورد في رسائل اخرى ذكر عن نية نوري سعيد، القيام بتدخل عسكري في سوريا، كما وردت مسألة البحث عن بديل للوضع فيها .

(٩) كانت هذه المسألة موضع جدال طويل بين الحكومة العراقية وبريطانيا وكانت بريطانيا تماطل فيه وتوجد حول الموضوع وثائق سرية عديدة.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (5)
رسالة رقم 5 من عاصم فليح (صائموف)
الى الكومنترن *

ترجمها عن الروسية د. عبد الله حبة

اعيد تنظيم مجموعتنا، ويرتبط اعضاؤها في ما بينهم كما يجب بين أفراد المجموعة الشيوعية. لكنها تفعل قدر ما في وسعها، دون اختصار نشاطها على الدعاية الشفهية والمطبوعة. وعملها لا يتسم بطابع شيوعي فقط. فقد شاركنا مراراً في نشاط الحزب الوطني وعمله. لكن لم يتم عندئذ محو اهدافنا. وسعينا الى استغلال أية عبارات ضرورية، وأقوال أية جهة كانت، بغية التأثير في الشعب وزيادة سخطه. وانطلاقاً من هذه الاعتبارات شاركنا في الاجتماعات وأجرينا اتصالات جيدة مع القوميين البارزين وغير البارزين. ونحن نتمتع بسمعة طيبة في أوساط الشعب. كما ونعرَف بمواقفنا الراديكالية ذات الاتجاه غير الواقعي مثلا (جرى فصلنا من الحزب الوطني العراقي في عام 1930 بسبب مطالبنا الراديكالية). وكانت مقاطعة الانتخابات هي فكرتنا ومطالبنا التي ناضلنا في داخل الحزب وخارجه، حتى ارغمناه على ذلك ونجحنا. لكن كان لدينا قرار آخر في حالة عدم نجاح مقاطعة الانتخابات في بغداد هو أن نقوم .. بالدعوة الى عدم دفع الضرائب. لكننا لم نفلح في ذلك لأنه جرى فصلنا من الحزب كما لم يوجد في مجموعتنا التلاحم والتنظيم والانضباط.

لقد جرى فصلنا من الحزب لأنه وجد بين القادة أشخاص ليس من مصلحتهم بقاؤنا، حيث ان الراديكالية كانت ضد مصالحهم الشخصية وآمالهم في تولي المناصب الحكومية وأن يصبحوا نواباً. ونورد أسماء المفصولين وهم : أنا وحسين جميل وفائق السامرائي.

نشاطنا السابق. لقد نجحنا في تحشيد واجراء مظاهرتين كبيرتين في بغداد في عام 1927 بمناسبة زيارة الصهيوني الانكليزي الفريد موند. وشارك فيها 4000 شخص، واعتقل أكثرهم، وأدين بعضهم لاحقاً بالسجن لمدة شهرين. أما الثانية فجرت في عام 1930 ضد نوري باشا ووزارته. وبعد التظاهرة

الكبيرة صدرت 3 بيانات موجهة ضد الحكومة والانكليز واعتقل عدد كبير من الرفاق في اثناء توزيع المناشير هذه. وحكم عليهم بالحبس الشديد لمدة 6-2 أشهر.

أما محتوى البيانات فهو:

1) دعوة الشعب الى مقاطعة الانتخابات التي ترمي الى تعيين ممثلي مصالح الحاكم والحكومة العربية – الانكليزية، وإجراء انتخابات شعبية،
2) المحتوى ذاته،
اعتقل بسببها الرفاق وتضمنت دعوات شيوعية من حيث اللغة والمحتوى... وموجهة ضد الانكليز والرأسماليين، وورد فيها كمثال سياسة بريطانيا في فلسطين والبلدان الاخرى. ونورد مقطعاً من البيانات: «ايها الشعب الحبيب.. سلمت بريطانيا فلسطيننا العربي الى ايدي الصهاينة وهم يتحملون الذنب في جوعكم وفقركم. انهم يبذرون الفرقة الطائفية بين بعض الفئات والاشخاص..».
خلال ثلاثة أعوام منذ عام 1937 عقدنا اجتماعات صغيرة فرّقتها الشرطة. وعقد احدها في النادي الوطني، لكن الشرطة لم تسمح لنا بالتجمع بذريعة انه يتسم بطابع سياسي. ان السبب الرئيسي للقائنا يكمن في عدم قدرتنا على تكوين منظمة شيوعية جيدة.
في عام 1934 تأسس الحزب الشيوعي الذي لم يستطع البقاء أكثر من عام بسبب انعدام النشاط. وهذا هو سبب قدومي الى موسكو من أجل الدراسة.
ان عملنا قليل وسيصدر رفاقنا قريباً صحيفة يومية من 8 صفحات تتضمن الدعاية لأفكارنا. انها ستكون من حيث الشكل وطنية، أما من حيث المحتوى فستكون شيوعية وسترسل الى kytb.
لقد خلفت ورائي أربعة رفاق عرب، وفتاتين يهوديتين تزوجتا اثنين من رفاقنا. انهم يريدون القدوم الى هنا على حسابهم. وقد أبلغت رغبتهم هذه الى الرفيق فؤاد. ارجو بحث هذه المسألة بصورة عاجلة من أجل قدومهم الى موسكو لغرض الدراسة، حيث اننا سنكسب سنة كاملة. واسماؤهم هي: حنا مصطفى (20 عاما) وهو طالب مدرسة، والثاني طالب ترك الدراسة بسبب عجزه عن دفع الاجور. وأنا أعرفه منذ عام ونصف. الآخر (22 عاما) تخرج من المدرسة الثانوية ويعيش لكسب رزقه بنفسه، وله ارتباط مع الرفيقة التي ذكرتها آنفاً. والثالث هو جابي ضرائب من بلدية بغداد (30 عاما). وعمل فترة طويلة مع الحزب الوطني، وله خدمات كثيرة في بهذا المجال. والرابع هو مصطفى علي (30 عاماً) سكرتير عضو مجلس الاعيان، يعرف في بغداد بمواقفه الثورية والراديكالية، يكتب الكثير من المقالات. وقد نقلته الحكومة مؤخراً الى عمل آخر بنصف راتبه. في الفترة الاخيرة صار يميل الى الشيوعية ويريد المجيء الى هنا للدراسة. علماً انه تخرج من مدرسة الحقوق. أنا لا أعرف شيئاً عن

المرأتين سوى رغبتهما في المجيء واستعدادهما لترك عائلتهما من أجل هذا الغرض.
كما يوجد عاملان وطالبان، وأحدهما ضابط وقد استملته الينا، وهو مخلص تماماً لأفكارنا. وعمره 28 عاماً، لكنه لا يستطيع ترك عائلته من أجل المجيء الى هنا للدراسة. والآخر سائق سيارة يرغب في الدراسة لكنه غير قادر على ذلك. وهناك صديقه في المدرسة الثانوية يرغب في الدراسة. ويوجد الى جانب هؤلاء آخرون يتعاطفون معنا، ويمكن ان أورد سيرة حياتهم اذا رغبتهم في ذلك.

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

حوار مع الشاعر والناقد د. عبد القادر جبار

القصيدة أكبر من النظريات الأدبية والنقد

سهولة النشر اضعفت القصيدة العربية

اجرى الحوار/ سعدون هليل

يعد الشاعر والناقد الدكتور عبد القادر جبار واحدا من الاصوات الادبية المميزة في الساحة الثقافية العراقية والعربية، ويعود سبب هذا التمييز الى خوضه غمار دراسة التجربة الشعرية في عدد من البلدان العربية واطلاعه التفصيلي على المشهد الثقافي في تلك البلدان وكتابة عدد من المؤلفات التي تناولت التجربة الشعرية في المغرب والأردن والإمارات. فضلا عن تناوله التجربة العراقية المعاصرة في مجال الشعر، ورفد المكتبة العربية بعدد من المؤلفات منها في مجال الشعر: ديوان "فصول وعيون" عام 1986، وديوان "اجنحة الضوء" 1992، وديوان "المدارج أسف مؤجل" 2010، وغيرها.

اما في مجال النقد فله كتاب "طائر الوجد" 2007، وكتاب "اهرامات النقد" بجزأين وكتاب "غرب النص" وكتاب "شرق النص"، وكتاب "جماليات التوازي في النص القرآني" و"لؤلؤة النص". له عشرات الدراسات المنشورة في الدوريات العراقية والعربية، فضلا عن كتاباته الصحفية.

ولتسليط الضوء على هذا المنجز التقت الثقافة الجديدة الدكتور عبد القادر جبار واجرت معه الحوار الآتي:

*** اين تجد نفسك وانت تكتب النقد والشعر في النقد ام في الشعر؟**

– انا شاعر قبل كل شيء ولي في هذا المضمار تاريخ طويل لانني بدأت اكتب الشعر وعمري اثنتا عشرة سنة، وهو مجالي الذي اعده الاكثر قربا من طريقة حياتي وسلوكي. اما النقد فهو عمل عقلي بحاجة الى منطق خاص وثقافة خاصة وتجربة عميقة تمكنني من قراءة النص الادبي، وتساعدني على التحليل والتعليل وكشف الجماليات الكامنة في النص، لذلك فان مهمتي مركبة بين قراءة الجمال وخلقه.

*** لكن روح الشاعر تختلف عن عقلية الناقد، فكيف تستطيع المواءمة بين العقلي والروحي؟**

– هذا سؤال مهم وخطير والحقيقة ان المواءمة ليست متحققة في اللحظة ذاتها، فحيث تحاصرني القصيدة يتنحى العقل جانبا وتبدأ الروح باكتشاف الجمال وتحاول الوصول الى المطلق الكلي في القصيدة. اما حين اكتب النقد فالعقل هو الذي يسير خطواتي بمنطقه المتسلسل المرتب، الباني للافكار على وفق حركة الاسفل المؤثر بالاعلى او بالعكس، فكل خطوة تستند الى خطوة قبلها لكي تحقق الكشف عن المكنون الجمالي في النصوص، وهي مهمة اعترف لك انها ليست سهلة لأنني احيانا اعاني من تداخل الروح الشاعرة مع المنطق العقلي. ولكن هذا لا يمنع ان اقول ان كتاباتي النقدية تصب كلها في اتجاه التحليل والتعليل، وتتخذ من المناهج النقدية وسيلة لمعاينتها.

*** هل افادك هذا التداخل ام أنك تراه معضلة تعيق الشعر والنقد معاً؟**

– في كثير من الاحيان لا تخرج القصيدة مرة واحدة، بل تحتاج احيانا الى التحكيك والتحبير وهذه الحاجة موجودة منذ بواكير القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، فهناك شعراء قبل زهير بن ابي سلمى والنابغة وحتى امرؤ القيس يحبرون قصائدهم اي يعيدون النظر في القصيدة حتى تخرج للناس بافضل صورة وقصيدتي من النوع الذي اعيد النظر فيه كثيرا، وإعادة النظر ترتكز على رسالتها وجماليتها وانجازها الافضل في البنيات المختلفة، لذلك تساعدني عقلية الناقد في اختيار المفردة وفي البحث عن التعبير الافضل الذي يحقق الرسالة فيها وانتقاء ما يلائم النص من مفردات، وهذا اثر نقدي في الابداع، لذلك يكون هذا التداخل بين النقد والشعر ايجابيا. اما بشأن اثر الشعر في النقد، فان اختيار النصوص التي احللها تعتمد ذائقة جمالية خاصة وهي نتاج انطباع يتشكل من تاريخ القراءات الادبية وهذه المسألة لا تتحقق بشكل واضح، إلا عند الناقد الشاعر أو الشاعر الناقد. خذ تجربة ادونيس مثلا ستجد ان عمق قصيدته متأت من تجربته النقدية والشعرية معا فضلا عن البناء الفلسفي في طريقة تفكيره لذا تميز واصبح شاعرا مهما في خريطة الشعر العربي. وهذه الحالة نادرة في تاريخ الشعر العربي لان الذين نظروا للشعر سقطوا في القصيدة في عقلية الناقد، الأمر الذي يؤشر ان النقد والشعر والابداع فيها مسألة معقدة جداً، وهنا تكمن موازنتي الصعبة.

*** وهل تعد نفسك ادونيس العراقي في الشعر؟**

– كلا، بيننا مسافة ليست قصيرة، لكنني من حيث المبدأ اجد في قصائدي عمقا فكريا بسبب الخلفية الفلسفية والادبية التي حصلت عليها من خلال قراءاتي واطلاعي على الثقافات المختلفة، لكن هذا العمق احاول ان اقرنه بالجمالي الشعري دائماً، لذلك فقصيدتي تختلف ليس عن ادونيس فحسب بل عن كل الاصوات الشعرية المعاصرة. وقد كتب عدد من النقاد بشأن هذه المسألة ورجحوا الشعري على النقدي وهي مسألة ما تزال مثار اعتزازي.

*** بماذا تختلف وانت تكتب قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر؟**

– قبل كل شيء اقول لك ان ما يعرف بقصيدة النثر هي في حقيقتها فرية عند

معظم من يكتبها والسبب في ذلك يعود الى تحولها الى كلمات سطحية ليس فيها عمق، واكثرها عبارة عن خواطر يتحدث فيها كاتبها عن احداث تفصيلية يومية لا تمت الى الشعر بصلة، فضلا عن انعدام الصورة وشحوبها وضعفها في احسن الاحوال. خذ هذه الملاحظات وتابع ما ينشر في الصحف والمجلات تحت مسمى قصيدة النثر. ان تحرر الشاعر من الوزن والقافية لا يعني ان كل ما يكتب اصبح قصيدة نثر بعد تقديمها بمفردة (شعر) في المجلات والجرائد. ان قصيدة النثر الحقيقية اكثر عمقا وكشفا وجمالية، فهي اللغة التي تتمرد على اللغة المألوفة السادئة والصورة المركبة التي تسير نحو الواقع والنفس بعيدا، وتتجه نحو مديات لا نهائية في البعدين الافقي والعمودي.
من هذا المنطلق فان كتابتي القصيدة تختلف اختلافاً كليا عما يكتب اليوم من شعر والمشهد الشعري في العراق اليوم ملتبس بسبب غلبة السطحية عليه لهذا فإنني مختلف مع السطحية ولا صلة لي بها، بل اعمد الى ترسيخ ما أسسته منذ زمن، بشأن القصيدة العميقة الباحثة عن الجمال.

*** هل هذا يعني انك انفصلت عن تاريخ القصيدة في العراق؟**

– لا، ليس هكذا، قدر الشاعر البحث عن تفرد صوته وهذا التفرد ليس مدعاة لان ينفصل عن تاريخ الشعر فهو مرتبط فيه اشد الارتباط، ولكن في الوقت نفسه ينفصل عنه عندما يبحث عن التفرد من حيث اللغة والصورة والرسالة. وهناك تقنيات ينبغي الوصول اليها أو استعمالها في القصيدة وهذه التقنيات مرتبطة بموهبة الشاعر وثقافته، لذلك فان عملية الارتباط والانفصال عن المشهد الشعري العام مسألة اكثر من ضرورية.

*** اذا ما سألناك عن تجربتك العربية بشأن نقد الشعر، كيف تنظر الى هذا المشوار خاصة وانت بدأت من المغرب العربي؟**

– بدأت من المغرب كي احاول ان اصل بين جناحي القصيدة العربية الى المتلقي العربي وغير العربي، إنْ استطاع نقدي ان يصل اليه؛ فالصورة النمطية عند المتلقي في المشرق العربي ان القصيدة المغربية كلاسيكية نمطية ليس فيها من التجديد والابداع ما يمكن ان نصفها بالقصيدة الحديثة. ولهذا السبب نجد ان الصورة النمطية عن الادب المغربي مقترنة بالنقد وليس بالابداع الشعري، ولما كانت اللغة الفرنسية عاملا مساعدا للنقاد المغاربة لولوج المناهج الجديدة، فان النقاد في المشرق لم يجرأوا على الاقتراب من القصيدة المغربية بسبب وجود نقاد مطلعين على احدث الاتجاهات النقدية وكانت الصورة السائدة عن الادب المغربي. ان ابداع المغرب نقد متطور وإبداع بسيط، لذلك لم يلتفت النقاد العرب في المشرق الى القصيدة المغربية. اما بشأن مشروعي النقدي فقد حاولت التفتيش عن الابداع بين الركام الهائل من الشعر البعيد عن الابداع، ووجدت ان هناك اصواتا مهمة تكتب القصيدة باطار ابداعي على الرغم من محدودية قدراتها على الوصول الى الابداع في المشرق العربي، ولكن الذي جعلني اكتب عن الشعر العربي وجود شعراء يحاولون خلخلة النسق الابداعي والثقافي في الابداع العربي. وجاء كتابي "غرب النص" وتناولت فيه عددا من الاسماء الشعرية المغربية لأكشف في

هذا الكتاب عن مكامن الشعرية في النص المغربي، وعلى الرغم من انني لم استطع تغطية المشهد الشعري المغربي الا ان النماذج التي تناولتها مثلت جوهر المعاصرة في القصيدة المغربية.

*** ولكننا نعدها مغامرة لانك تكتب النقد في مواطن الحداثة والمعاصرة في الاتجاهات النقدية العربية فكيف استطعت خوض هذه التجربة؟**

– لا بد ان اشير لك ان النقد في المغرب يبتعد عن الجانب التطبيقي وهو الاساس والغاية من المدارس والاتجاهات النقدية الحديثة والمعاصرة، وغالبا ما يلجأ الى الجانب النظري، يعينه في ذلك النقل المستمر من المنتج النقدي الفرنسي والالماني احيانا، ومعظم الكتابات النقدية في المغرب تبحث في النظرية. واذا ما طبق النقاد هذه النظريات على النص العربي تراهم يلجأون الى النصوص القديمة ولا يغامرون بالتطبيق على النصوص الحديثة والمعاصرة باستثناء محمد بنيس الذي كتب عن القصيدة الحديثة والمعاصرة، ولكنه لم يكن على درجة كبيرة من الدقة في استعمال المنهج البنيوي التكويني، لأنه اغفل في تحليله مفاهيم اساسية في هذا المنهج. وحين كتبت تحليلا عن القصيدة المغربية الحديثة والمعاصرة لم اجد ما يمنعني من ذلك فهناك من النصوص ما يستحق التحليل والدراسة ولم اجد صعوبة في تطبيق المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة عليها، هذا فضلا عن مسألة في غاية الاهمية وهي ان تاريخ الادب المغربي لم يشهد قبل كتابي وجود باحث يكتب عن الشعر العربي، فكان لكتابي الريادة في هذا المضمار.

*** مَن مِن الشعراء أثار انتباهك في الخريطة الشعرية المغربية؟**

– هناك عدد من الشعراء المغاربة الذين حاولوا ويحاولون توسيع رقعة الجمال في صورهم الشعرية، وانتاج قصيدة مختلفة، قادرة على الاستمرار زمانيا ومكانيا، ومن هؤلاء الشاعر احمد بركات، وساط مبارك، ومحمد الصالحي، ونجيب خداري ولكن هذا لا يعني ان هؤلاء الشعراء استطاعوا ان يؤسسوا لنمط جديد في القصيدة العربية المعاصرة.

*** وماذا عن كتابك "شرق النص" عن الشعر العراقي المعاصر؟**

– في هذا الكتاب هناك تحد للنقد العراقي، وموقع التحدي في تناول اسماء جديدة في الخريطة الشعرية العراقية ودراسة منجزها من دون النظر الى شهرتها وتاريخها الابداعي. فالنص عندي هو الاساس، وإذا كان الشاعر قد كتب قصيدتين او ثلاث قصائد فانه بحاجة الى النقد. لذلك تناولت شعراء يكتبون القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة وقصيدة النثر، ومن اجيال مختلفة لانني درست الشعرية في النص من دون موجهات اخرى، ولهذا السبب وجد الكتاب رواجاً بين المثقفين والمبدعين، وصدرت عنه كتابات مختلفة، وهذه المسالة لم تكن موجودة في النقد العراقي قبل هذا الكتاب، لان معظم النقاد اشتغلوا في دراستهم الشعراء على موجهات النص الخارجية؛ موقع الشاعر وتاريخه، عدد دواوينه، تأثيره الأيديولوجي.. الخ. في حين انصب اهتمامي في هذا الكتاب على الشعر وحده لا على ما يحيط بالشعر. هذا فضلا على اشتغالي على مستويات تلقي القصيدة واثرها في القارئ، واين تكمن

منطقة الجمالي التي تثير القارئ وهي تجربة جديدة في النقد العربي.

*** هل تقصد ان تجربة النقاد الذين سبقوك كانت قاصرة في النقد؟**

– لا لم اقصد هذا، ولكن من الناحية العملية من يحتاج الى النقد سواء أكان الشاعر الجديد أم الشاعر الذي رسخ اقدامه في المشهد الشعري العراقي والعربي؟ من وجهة نظري تحتاج التجارب الجديدة الى قوة نقدية منهجية تكشف الجماليات الجديدة التي انتجها الشعراء، وتحاول ان تؤثر في القارئ بوصفها مواطن تحديد الشعر من غير الشعر في النصوص لكي يتنبه الشعراء الجدد الى مواطن الخلل ويتجاوزون ما يقعون فيه من عناصر الضعف. وعلى هذا الاساس ركز كتاب "شرق النص" على المواطن التي ترتفع فيها اللغة الى منطقة الشعر والمواطن التي لا تنتمي الى لغة. وعلى الرغم من وجود بعض الاعتراف من قبل بعض الشعراء على هذا التحديد إلا انني افهم، ان النص اما ان يكون شعرا او لا يكون.

*** معنى هذا ان لديك مواصفات محددة للغة الشعر تميزها من اللغة العادية؟**

– هذا سؤال مهم وخطيرٍ في الوقت نفسه، تريدني ان أضع شروطاً وقواعد للشعر، وفي هذا الصدد أقول لك ليس هناك قواعد وشروط محددة للشعر، لأنه لغة خاصة داخل اللغة، وكل نص ينتج شروطه التي تجعله ممكن الانتماء الى الشعر، ولكن بصفة عامة لغة الشعر لغة ترتقي فيها الصورة الى منطقة تخترق فيها السائد او المألوف وتحقق في الوقت نفسه المفارقة القابلة للانفصال والاتصال بالواقع مع جدلية المرئي والمتخيل، الواقع والوهم، الصدق والكذب، الحقيقة والحلم..الخ. وكل هذه الجدليات تجعل من الشعر كلي الرؤى لا جزئي، لان النص الشعري فضاء مفتوح يمكن له ان ينتج قراءات لا نهاية لها.

*** اذا ما عدنا الى فكرة الاجيال في الشعر ما الجيل الذي تنتمي اليه؟**

– ان فكرة الجيل الشعري من وجهة نظري، تقسيم قسري للقصيدة والأديب في الوقت نفسه، لأن الشعر واحد، والنص اما ان ينتمي الى الشعر او لا ينتمي بغض النظرٍ عن زمنه ومكانه، لذلك أجد نفسي منتمياً الى الشعر الخالص، ولا انتمي الى جيل بعينه على الرغم من أن بعض النقاد يعدون جيلي الى السبعينيات، وآخرون قالوا انني انتمي الى جيلٍ الثمانينيات، ولكنني أجد شعري منتمياً الى عبد القادر جبار نفسه، خاصة وان قصيدتي لا تشبه غيرها من حيث الاسلوب والبناء والفكرة او الرسالة. وكانت فكرة الاجيال الشعرية غالبا ما تتجه الى الفكر الايديولوجي وانا اجد في هذا عملية تحديدا للشعرية، لانها تستفيد من الايديولوجي والسياق الثقافي وتوظفهما ولكن من دون ان تكونان الشعرية نفسها.

*** ماذا تقصد أنها لا تشبه غيرها؟**

– الذي أقصده ان القصيدة هي الثقافة كلها التي ينتمي اليها الشاعر أو التي يختزنها، وهي في الوقت نفسه تاريخه كله، وأحاسيسه كلها ومشاعره وهي كل خبرته وتجاربه وخزينه اللغوي ورؤيته، هي عصارة كل تلك العناصر. وانا شخص اختلف عن غيري في كل ما تحدثني عنه، فمن

المؤكد أن تكون قصيدتي مختلفة، هذا فضلاً عن أن شعري يتضمن القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة وقصيدة النثر، ولكل هذه القصائد نكهة خاصة، أنا لم أقلد احداً، ولم أضع شاعراً بعينه أنموذجاً لشعري، احاول أن أتفرد واكون صوتاً خاصاً في ضجيج ما يعرف اليوم بالشعر الذي لا طعم له ولا رائحة ولا فكرة ولا رسالة، وابتعد عن معناه ولم يعد منتمياً الى الجمال.

*** يلاحظ أنك كثير الانتقاد للقصيدة المعاصرة، لماذا تتخذ هذا الموقف؟**

– ان السبب في ذلك يعود بالدرجة الرئيسة الى سهولة النشر؛ وجود وسائل اتصال مختلفة واجتهادات مختلفة، وأنا لست ضد ذلك ولكن ضد من يعد كل نص على انه من الشعر. وهذه المسألة سببتها قصيدة النثر التي تشير بياناتها الاساسية المؤسسة الى انها اعمق من أي نوع من الشعر، ولكن الذي حدث ان كثيراً من الذين يكتبون اليوم ما يعرف بقصيدة النثر يكتبون خواطر بسيطة ليس فيها من العمق الشعري اي علاقة خاصة في اللغة ذاتها التي اسمها الشعر.

*** هل ينطلق موقفك هذا من كونك تكتب الشعر والنقد؟**

– ربما يكون هذا السبب، ولا اكتمك سراً انني حين اكتب القصيدة وانتهي منها ابدأ بمحاكاتها نقدياً واذا لم أجد فيها ما يجعلها من الناحية النقدية ممثلة لي فانا اهملها، وقد أهملت كثيراً من القصائد بسبب تلك المحاكمة النقدية، ولكن مع ذلك غالباً ما تكون الروح والذائقة والانطباع ادوات لتقبل القصيدة او رفضها، انها عملية مخاض عسير.

*** ألا تجد نفسك متعسفاً مع شعرك؟**

– قد أمارس هذا الدور مع شعري وقصائدي ولكن لهذا التعسف نتائجه الايجابية، لأن كل قصيدة كتبتها كان لها حضور خاص في الخريطة الشعرية في العراق على الأقل.
هذه مسألة فيها رؤية خاصة، فالساحة الثقافية في العراق والوطن العربي اعتمدت الاسماء الشعرية الراسخة والمؤثرة في مسيرتها الشعرية، وغالباً ما كانت تلك الاسماء تمتاز بموقف عقائدي يجعلها مقبولة من قبل النخبة العقائدية، ويعود السبب في ذلك الى ان تلك الاسماء كانت تتناغم مع مؤسسات تبشر لها وتروج لنتاجها، مقابل هذا كان التلقي وحيد الاتجاه، فالقارئ او المتلقي لا يعرف غير الاصوات التي تروج لها المؤسسة العراقية. اسماء كثيرة غيبت بسبب موقفها من المنظومة السياسية. ان تلك الاشكالات جعلتني في موقف توفيقي بين ان اكتب الشعر لأثبت وجودي، وبين ان اغادر لكي لا اتعرض لتهديد من نوع ما، لذلك آثرت ان اكتب الشعر بطريقة لا تجعلني محط سؤال من المؤسسة الرسمية. وقد سبب هذا الموقف ضياع سنوات من زمني الشعري اسوة بالسنوات التي فقدتها، وانا احاول الحفاظ عن وجودي امام التهديدات والحروب والمطاردة احياناً.

*** هل لك ان توضح اثر هذه المسألة؟**

– دعها وقد يأتي زمانها، فأبوح بما عندي بشأن تلك المرحلة.

*** وماذا بعد؟**

– بشأن شعري في الوطن العربي، أقول لك انني عندما أصدرت ديواني (والمدارج

أسف مؤجل) في المغرب تصورت ان هذا الديوان سيكون بحاجة الى عدة سنوات لكي يؤكد حضوره، لكن الذي حدث أنه طبع مرتين، وكان القراء في المغرب والجزائر هم الاكثرية التي اقتنت هذا الديوان، ونفد من المكتبات بعد أقل من ستة اشهر، وهذا الاقبال كان دليلاً على نجاح تجربتي الشعرية الخاصة ووصول القصيدة الى ذائقة المتلقي العربي.

*** ولماذا لا يصل الى الذائقة، اذا كان ما تكتبه من الشعر من النوع الذي عرفته تلك الذائقة؟**

– لا.. ان ما كتبته يختلف كثيراً، فالديوان يحتوي على قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر، واسلوب كتابته يختلف عما عرفته القصيدة التي عرفتها الذائقة العربية، وهنا مكمن الخطر في تجربتي، فلكي اثبت ما كتبته ينتمي الى الشعر لا بد أن أحدث خلخلة في الذاقة التقليدية، ولا بد لي ان أقنع تلك الذائقة، ان ما اكتبه هو الشعر المعاصر، وهو التجديد في ذلك الشعر وتلك مسألة معقدة، لأن التاريخ الشعري العربي يقول ان كل التجارب الجديدة كانت تصطدم بالذائقة القديمة والموقف الاصولي من قضية الشعر، وعلى الرغم من هذه المسألة المعقدة إلا انني قلت ما عندي، وكان الاقبال على هذا الديون ايذاناً بنجاح تجربتي وقدرتها على الاستمرار لذلك أصدرت الديوان الثاني (والمعابر قمر معطل)، ولاقى النجاح نفسه.

*** هل لديك رؤية معينة بشأن مستقبل النقد في العراق؟**

– لم يعد النقد قادراً على ملاحقة الابداع، ولم يعد بامكانه النظر الى مجمل الخريطة الفنية في نتاج هذا العدد الهائل من الشعراء والادباء، لذلك سيتجه المحترفون الى الجانب النظري بينما ينشغل الهواة بالجانب المعياري للنصوص أي وصف جودة النصوص. ويعود السبب في ذلك الى تراجع شعرية النص العربي، واعتماده النثر اكثر من الوزن وتراجع الصورة الشعرية وبروز المفارقة. وهذا البروز لن يساعد النقاد على اكتشاف مواطن الجمال في القصيدة لأن القصيدة نفسها خالية من جمال الصورة فالارتكاز الرئيس للنص سيتجه الى الجملة الاخيرة التي تحدث المفارقة او الضربة الشعرية. هذا فضلاً عن ان معظم القصائد اليوم ومنها التي تعتمد على المفارقة خاصة، قصائد قصيرة لا تبيح للناقد أن يتجول في اجواء مختلفة وصور كثيرة، وهذه الاستنتاجات هي في حقيقتها تأكيد مرتبط بالآخر وليس بالنقد نفسه، والتطور في النقد يرافقه تطور شعري، وبالعكس وهذه الجدلية هي نتاج الحداثة الي حاولت ان تعطي للروح دوراً مثلما تعطي للعقل دوراً.

– شكرا لك على هذا البوح الجميل.

– وانا اشكرك على هذه المشاكسة الجميلة.

أدب
و
فن

الأغنية..
هوية الشعوب ومضامين الوجود الجمالي

كاظم غيلان

"الى جانب الكفاح.. يجب ان نتعلم كيف نغني" هوشي منه

لم تكن هذه الجملة التي أطلقها القائد الثائر هوشي منه عابرة أو محض مصادفة، بقدر ما كانت نابعة عن ذات محتشدة بكل ما هو وجداني وله صلة بالإنسان كقيمة عليا، وإرتبط تاريخ الغناء كبداية تاريخية منذ بدء الخليقة، وذلك ما أشارت إليه وأكدته مجمل الملاحم والأساطير التي عمدتها الحضارات الشاهقة في التاريخ.

تكتسب الأغنية أهميتها ضمن مجمل الفنون الانسانية بميزتها عن سائر هذه الفنون من خلال شموليتها ومدياتها التي تتسع دوما، فهي نتاج بيئوي بحت، وما من بيئة خلت من الإنسان ككائن باحث ومقارع من اجل وجوده المشروع وتطلعاته الدائمة تجاه أفق المصير وحقه في الحياة، وربما يتعدى الأمر أكثر إذا ما عرفنا بأمر البعض من الحيوانات التي يستدعيها الإنسان لحاجاته التي لها علاقة بهذا الفن الذي يجيد ترويضها بدلالة الحداء الذي ينتمي بيئويا للصحراء، فتجد ما يعينها من خلال هذا الفن في تحمل مشاق وقساوة الصحراء وما فيها من تضاريس وطقوس مناخية مهلكة.

تتعدد مراحل الأغنية واتجاهاتها للدرجة التي تضيع وتتلاشى فيها النهايات فهي تولد معنا كأطفال فنسمعها ونتلاقفها في أغاني التنويم والعمل والسفر ومن ثم تقفز من على أسوار السجون العالية وأسلاكها الشائكة لنجدها خير سمير لمن يقبعوا خلفها لتشدّ من عزائمهم في مقاومتهم لأعداء خياراتهم ومواجهة الطغاة، وبهذا يدخل هذا الفن ضمن طرفي معادلة القامع والمقموع..

لم يتوقف الأمر في الغناء كواحد من أبهى واخطر الفنون التعبيرية، إنما غدت الأغنية هوية تكتشف من خلالها الأوطان والشعوب.

واذا ما أخذنا الموسيقى كفن اقرب وملاصق للأغنية تأخذ المديات ارتفاعاتها وتتشعب مفاهيم هذا الفن حتى تجده قابعا في النصوص السماوية ذاتها ولربما اعتمادها على الحروف الموسيقية المتوافرة في هذه النصوص ما يبرهن على صحة ما أشرت له.

وبقدر ما تتعدد المواد التي يعتمدها الإنسان في مختلف العصور كأغذية تديم استمراريته في الحياة فالغناء يقف في أولويات هذه الأغذية كحاجة ضرورية،

وما تعدد أغراضها إلا دلالة حيّة على أهميتها الأكثر من قصوى.
ان المهمة التي يضطلع بها الغناء وميزته او لنقل بشكل اشد وضوحا هي كلّ المهمة الجمالية الباذخة والتي هي السلاح الأمثل لملاحقة القبح وما يحمله من شراسة في ملامحه ومضامينه، فهي مهمة الانحياز للحرية من خلال ملامسة وجدان الإنسان وإخراجه من دائرة الصمت والتقوقع إلى حيث ساحة المجابهة التي ينبغي ويتحتم عليه الحفاظ على هيبتها وحمايتها وإخراج كل ما يسيء لجماليات الكون وتناغماته الدائمة مع الحرية التي أدامت له خصوبة الوجود.
كل ما في الفنون المرئية يستعين بالغناء كواحدة من مقومات تقدم ونجاح هذه الفنون لاسيما السينما والمسرح، ولعل في أغاني الأفلام ما يبرهن لنا ويعطينا الدليل على ذلك وتبقى الأغنية من ابرز خصائص الأمم والشعوب الحريصة على هويتها والمدافعة عنها والأمينة عليها لاسيما تلك الشعوب التي أكسبتها معاركها من اجل حريتها واستقلالها خبرة منحتها الضرورات الاستعانة بهذا الفن التقدمي الإنساني كواحد من ابرز أسلحة الخلاص من هيمنة التوحش وطقوس العهود الغابرة التي استمدت مضامينها العدوانية منذ عصور الغابة التي اردفتها بعصور ما قبل الكهرباء.
وللنهوض بهذا الفن ينبغي إدامته بالمزيد من الدراسات والبحوث العميقة التي تنهض بمستوياته التي تحاول العديد من الدوائر الغامضة العمل على إلحاق التشوهات بمضامينها الكبيرة.

وداعا... زائية الوجد

حمل لنا صوت النعي مساء السبت، الثامن عشر من حزيران 2016، خبر رحيل القاص والروائي والمترجم عبد عون الروضان في مدينة الطب ببغداد عن عمر ناهز الـ 77 عاما.

وكان الراحل ومنذ أكثر من سبعة أعوام يشكو من أمراض عدة منعته من الكتابة، وأكد في تصريحات صحفية، أنه لم يكتب أي شيء على الرغم من طموحاته الكثيرة في إكمال ما لديه من أعمال روائية لم يستطع الاستمرار معها بسبب المرض وبسبب شعوره أيضا بالإحباط من الواقع المعاش، مشيرا أن الواقع الثقافي العراقي يشق طريقه بصعوبة بالغة وسط الأحداث المأساوية التي تعصف بالعراق، ورغم ذلك كان يرى ويؤكد على ضرورة أن لا يسكت الأديب كي يعبر عن رأي الناس لأنه واحد منهم.

ولد الروضان في مدينة العمارة عام 1939، ونال أيام دراسته الإعدادية الجائزة الأولى في مسابقة للقصة القصيرة، ونشر عام 1973 أول قصة له في مجلة "ألف باء"، ومن إصداراته: بيت في مواجهة الشمس ـ قصص 1976، ربيع في صيف ساخن ـ رواية 1981، رجل في ذاكرة الرجال ـ رواية 1984، الشعراء العرب في القرن العشرين

2005، زائية الوجد ـ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، وقام بترجمة كتاب عنوانه "الحشيش والحشاشون"، كما ترجم مجموعة قصصية حملت عنوان "بيضة كولومبس" وغيرها الكثير.

نال جائزة الإبداع في القصة القصيرة عام 1997، وهو يترجم عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وسبق له أن عمل في الصحافة وفي الإذاعة والتلفزيون، وعمل خبيراً لغوياً لعدد من دور النشر في الأردن أيام التسعينات.

وهنا، من الأهمية بمكان أن نذكر ما قاله عبد الستار ناصر عن "زائية الوجد": رواية تتناسل مع كربلائيات العراق، حيث الأحزان التي لا حدود لها، وكاتبها عاش أكثر ساعاتها وجعاً وأطول أيامها هلعاً ورعباً دون أن يتباهى بما جرى، بل تماهى مع آلامه حتى صار بعضاً منها. رواية عن الإنسان في محنته، عن الظالم والظلام، عن التأوهات الحبيسة، عن الجوار والطغيان الذي لا أملك أمامه غير أن أكرر ثانية: كان الله في عون مبدعها، كيف أنه كتب زائية الوجد وكيف أنه عاشها.

في الذكرى الـ 79 لتأسيسه، احتفى الحزب الشيوعي العراقي صباح الثلاثاء 26 آذار 2013 بالروضان في جلسة تحدث فيها الأساتذة: فاضل ثامر، ناجح المعموري، جاسم عاصي، علي الفواز وبشير حاجم. وأدارت الجلسة الشاعرة والروائية نضال القاضي، وتضمنت الجلسة أيضا شهادة للمحتفى به وكلمة للحزب، وذلك على قاعة جريدة "طريق الشعب" في "أبو نؤاس".

"الثقافة الجديدة"

الأشياءُ شعرًا، الشعرُ أشياءً
(القسم الأول)

ياسين النصير

قدّم مع الناقد فاضل ثامر كتابه الأول "قصص عراقية معاصرة" عام 1971، وتدرج في وعيه النقدي في كتابه الثاني "القاص والواقع" عام 1975، ثم واصل رحلته النقدية، فكانت باكورة تحوله النقدي في كتاب "الرواية المكان" عام 1980، بجزأين، وهو أول كتاب عربي عن دور المكان في النص الأدبي، ليعمقه في كتاب مفصلي آخر هو "إشكالية المكان في النص الأدبي" عام 1986.

في النقد المسرحي أنتج خمسة كتب، ويعدّ كتابه "وجها لوجه" عام 1976 أول كتاب في النقد التطبيقي عن العروض المسرحية، وكتب عام 1993 عن "الاستهلال" فلم يسبقه في هذا الميدان، ثم حاول تعميق الرؤية النقدية للمكان في النصوص الأدبية في كتبه "جمالية المكان في شعر السياب" 1996، "شعرية الماء"2012 ، "حجر الحروب" 2010، و"ما تخفيه القراءة" 2008.

أنتج عام 2012 كتابه "غير المألوف في اليومي والمألوف" وهو بحث سوسيولوجي في مصادر شعرية القصيدة اليومية، وفي هذا العام 2016 ظهر كتابه النقدي النظري الجديد "مدخل إلى النقد المكاني" ليعمق به تصوره عن أهمية المكان فلسفيا ونقديا في النصوص الإبداعية وفي النظرية النقدية.

يرتحل ما بين العراق مصدر إلهامه واهتمامه وهولندا بلد إقامته، وخلال هذه الرحلة أسس منبرين للثقافة العراقية في المهجر: الأول "مؤسسة ثقافة 11" في بلجيكا عام 1998 بالاشتراك مع الشهيد كامل شياع وهيلجا دانيللوس وحازم كمال الدين، وكان بيته مقرا لهذا الصالون فاستضاف فيه عددا كبيرا من المثقفين العراقيين والعرب والهولنديين، والثاني "مؤسسة أكد" في هولندا عام 2000.

"المجدُ لطحان الحارة،
يطحنُ في الفجر،
الصمتَ ويطحنُ حزنَ القرية،
يخلطُه بشعير أبيضَ...،
حزنُ الناسِ"
أنفخُ البرقَ كالطينِ، كي أصنعَ
الزَّقَ منه،
فهذي البوارقُ من ذهبٍ وزجاجٍ
تسيلُ على الراحتين،
أيّةُ بادية تتمدَّدُ في الذكرات..
سلّ الشيءَ، فإنه إن لم يجبكَ ببيان،
أجابك بحال واعتبار،
هكذا كان اليوناني ،
يسأل عن الشيء وليس عن نفسه"
هايدغر

وإذ نبتدئ بالعنوان توضيحًا لهذا البحث، نكون قد ابتدأنا بالبحث عن كينونة الشعر، وكينونة الأشياء. فالأشياء ليس كما تُرى فقط، دون قصد الكشف عن ماهيتها، فهي بلا الشعر مجرد كائنات ميتة، مقذوفة، لا حياة فيها وليس لها كينونة، والشعر ليس هو الرؤية للأشياء فقط كي يوقظها من سباتها الوجودي، إنّما هو أداة لا قيام له إلا بالشاعر/الإنسان، يعطي للأشياء ماهيتها، ويبين قدرتها على أن ترافق كينونة الإنسان وجودًا، فالأشياء عارية دون فعل الشعرية فيها، والشعر عار دون أن يجد تحققه في كينونة الأشياء، من هنا تكون الأشياء شعرًا

عندما تتحقق كينونتها، ويكون الشعر شيئًا عندما يصبح جزءًا من كينونة الإنسان. فلا الأشياء دون كينونة أشياء، ولا الشعر دون الإنسانية شعر.

من هنا ليس الذي أكتبه مدخلًا لدراسة مختصة بشاعريَّة هاشم شفيق وحده، بقدر ما هو استهلال لما سأقوله عن فضاء الأشياء في الشَّعريَّة العراقية الحديثة، حين تحول القصيدة من معالجة مباشرة لقضايا المجتمع الكبيرة إلى معالجة الحياة اليومية الممتلئة بأشيائنا، عالم الأشياء المجاور لعالمنا الإنساني، فيه من الطاقة ما يجعل المخيلة النشطة تبحث في كينونة الإنسان والأشياء معًا، وعبر استعادة الصور من أزمنة مختلفة، ليس الشيء في القصيدة بلا معنى كما أنه لا يفقد طاقته عندما ترفعه من يوميته وتدخله صور القصيدة، الأشياء في الشعرية تكتسب طاقة الحضور الفاعل كشواهد يتخثر فيها الزمان والمكان. فالأشياء حقل تجده ينبوعًا عند جيل كامل من الشعراء العراقيين، حين بدأوا بإنزال ربَّة الشعر من علياء الأفكار الكبيرة، لتتمشى بين أزقة الناس الشعبية وأشيائهم، فدخلت بيوتهم ومجالسهم، وجلست معهم في المقاهي، واحتست الشاي والمرّ الليلي، واستمعت إلى أنين الزمن العراقي وهو ينتقل مع أبنائه المهاجرين، مستصحبين معهم صرار الجدات والأشياء المستعادة المعاشة. بمثل هذه الفضاءات الصغيرة والهامشيَّة والنفسيَّة، نهضت الشعرية العراقية الحديثة، لتصاهر الأفكار الاجتماعية الكبيرة، لاغية الفجوات بين أزمنة العراق وأمكنته. أشياء تآلفت القصيدة الحديثة معها، فامتلكت أنسنتهم وامتلكوا طاقتها في الحضور، فخلقت للشعريَّة الحديثة فضاء حيًا متحركًا ومشتركًا. ولكثافة الخزين المعرفي للأشياء، أنسنها الشعراء وجعلوا منها هويات خاصة بأشعارهم، فبدا المألوف اليوميّ والحياتي طريقة فنية لعلاقة الشاعر بقضايا المجتمع، فتقرأ أن أجزاء من فضاء الوطن/الإنتماء/الفكر، قد نضجت على يد عجّان الأشياء الواقعيّة، ونمت من بين شقوق وزوايا وحواش القصيدة والواقع رؤى حلمية وواقعية، بمواقف توازي، إن لم تفقْ تلك النداءات الكونيَّة التي حملتها القصائد لافتات في الشوارع والسجون والمدن القصيَّة.

فضاء الأشياء واحد من حقول المعرفة الكبيرة، اشتغلت عليها الفلسفة منذ أفلاطون وصولا إلى ديكارت، وأصبحت ثيمة مركزية في هرمينوطيقا هايدغر وميرلو بونتي وسارتر وغادامير، فالأشياء التي تملأ نوافذ الحياة، كائنات لغويَّة تمنحنا الضياء والنور والروح معًا، ولها لّغة مكانيّة لا تتفجر إلّا متى ما أيقظّها فيلسوف أو شاعر، حتى أفعال الطبيعة لا تُوقظ الشعرية إلا عندما تقترن بالأشياء، فالإحساس الشعري بها، يعيدها من توهانها وضياعها وغفوتها، عبر الوخزة الشعرية والومضة والهزة اللاشعورية إلى الحياة، وما دخول الأشياء في النصوص الشعريَّة كقوى معرفيَّة إلا اضافة تفسير ما لما نجهله عن حياتنا، حيث يمكنها أن تفسر لنا معنى أن تكون على علاقة باللّغة اليومية، بالأفكار الكبيرة، بالتداول، بالقيم الجمالية، فالأشياء ليست كائنات مقذوفة بلا روح. إنَّما هي مما يعطي المحيط الخارجي والداخلي المعاني. حين تفجّر اليقظّة الحقيقة بها الروح البدائيَّة، فنعيدها للحياة من هوامشها للحياة العملية كمادة للتفلسف، إضافة إلى أنَّ قدرة الأشياء الذاتيّة الخاصة بها، تَنهض عندما نهيء لها نسقًا إجتماعيًا جديدًا

تنضوي تحت سياقه. فقد تكون الأشياء سلبية في هذه الصورة الشعرية، وقد تكون إيجابية في صورة أخرى، ففضاء الأشياء وحده يُنهض الجمالية لو أحسنّا وضعها في سياق إجتماعي ديناميكي فاعل، ولأنها كائنات تبادلية تتجاور لتتحاور، وتنمو لتستطيل، وتتبادل الرؤية معنا ومع ما يحيط بنا من عوالم يومية، "فالأشياء في احتكاكها مع ضيائنا المزدوج تتفاعل بالضبط كالأشخاص"(1). ليس من أشياء قبيحة، وليس من أشياء جميلة، كل الأشياء فيها ما يفيد بناء الجمالية الشّعريَّة، فالقبح هو أنْ يفقد الشيء شعريَّة عندما يهمل، كل الأشياء تصبح جميلة عندما تمحوها اللغة الكفاية، فاليقظة التي تباشرنا الأشياء بها، دائمًا تكون نتيجة للغة التي تلامس الريح والضوء والإنسان.

"غبشاً يطلي الأشجار بمحلول النور"

هذا هو التكّوين الكيمياوي الشعري- الغبش ومحلول النور- الذي يخلّقه الشّاعر حين ملامسته الأشياء بالرؤيَّة، التكوين الذي تجد فيه العديد من الأفكار الكبيرة وقد احتوتها لحظة شعرية، نأمة، رؤية، فالكونية ليست شيئًا تقصده في درس جامعي أو كتاب، إنَّها طاقة المهمل، الثانوي، الهامشي، العابر واللحظوي، هذه الميادين الغنية بالمحتملات تكشف عن ذواتها الدفينة عندما يلامسه ضوءنا، فتكشف عن عوالم سريَّة مدفونة في الظواهر اليوميّة العادية للحياة، الشّعر "هنا"، في الآنية اللحظوية للأشياء المتفجرة بالنور، وليس في "هناك"، حيث الظلمة التي تحيط بها بعيدة عن مسلمة اضوائنا لها، كل المثيولوجيات صراع بين آلهة النور وآلهة الظلام، بين العينين وساعة السحر، "عيناك غابتا نخيل ساحة السحر" وعندما يحتل الإنسان مكان الآلهة في التأثير بالأشياء يكون النور مصاحبًا له، والشعر نتاج النور، حين يُفعلّهُ الشاعر ويتقرب إليه بعدّه جزءًا من الخلق المبهم، فالشاعر يجيد اقتناص اللحظات التي تكون الأشياء فيها قد استجابت للسَحَر، لأن الضوء ملغز ومحتمل، وفي الوقت نفسه يفلت الشيء من الشعرية إنْ لم يحسن الشاعر الرؤية إليه، الشعر استجلاب لنور الأشياء التي ما أنْ نلامسها بالنّظر حتى تتكشف عن ماهيتها المضيئة، أي عن بنيتها الفضائية.

محاولتنا النّقديَّة ستكون خارج سياقات أيَّة منهجيَّة نقديَّة معروفة، فالمسعى التجريبي لهذه المحاولة وغيرها، هو الخروج من أثواب النّقد المعروف إلى النّقديّة المكانيَّة، التي يمكّنها أن تُصهر المكونات الواقعية والنفسيّة والإجتماعيّة في بوتقة فضاء الذات وفضاء الشيء، فضاء الإنسان وفضاء المجتمع، في الأنا الشاعرة، وفي الموضوع، والتي بإمكانها أن تعيد صياغة العالم وفق ما تراه، لا وفق ما نريده نحن القراء، "يرى سارتر أن الشّعرَ الحديث يشمل نمطين من أنماط توحيد الكون: النمط الأول يقوم على التمدد والتضوع، والثاني على الإنكماش والتمركز. ويضمُ النمطُ الأول رؤى الوجود الخاصّة بالشّاعر؛ مثل رامبو وفيلسوف مثل نيتشه، وهي عبارة عن تصور إنفجاري أو تمددي للوجود. أمّا الرؤية الإنكماشيّة فتضم نظرات بعض كبار الشّعراء من أمثال مالارميه وبودلير وجينيه، وهي عبارة عن خيّال ضاغط ومحدد لبرانيَّة الوجود وظاهره ولون من التمركز أو التكثيف حول قطب أو محور".(2). بالنسبة لشعرائنا، دون تمييز، انهم يكتبون في هذا النمط وذاك، تراهم مكنمشين ومتمركزين حول ثيمات معينّة، وفي الوقت نفسه متمددين متضوعين في مواضيع أخرى، ولذلك تضطرب الرؤية

النَّقديَّة لنتاجهم، وقد ساهم النَّقد العربي في هذا الضياع والتشرذم، حين عمم أفكارًا نقديّة على ما يكتبون، فالنَّقد العربي "نقد مشرذم بين مرجعيات وأجهزة مفاهيميّة ذات أصول غربية، وفيَّة لمحاضنها وأسيقتها المعرفية التي شكّلتها أفكارًا قبل أن تلفظها مشاريع، مما يضع ناقليها ومتبنيها أمام إشكاليّة التأصيل والتحديث، أو، إنْ شئت القول، يواجهون صعوبة تلقي وإستقبال هذه المعرفة النَّقديَّة؛ أي ترجمة ونقل مصطلحاتها ومفاهيمها، في مرحلة أولى، ثمّ بلورتها، بعد استيعابها ووعيها؛ أي تأليفها وإنتاجها في شكل مشاريع نقديَّة يتمّ ترويجها في مرحلة تالية" (3).

والأمر لا يقف عند تبني تيارات ومدارس نقديّة والبقاء، معصوبي الأعين في نواعيرنا المحلية، إنَّما يتجاوز الموقف النقدي إلى الصرامة الإيديولوجية التي لا تسمح بمرور رياح التجديد على أسطر وصفحات المناهج النَّقدية القديمة، وكأنها ثوابت النصوص الصيانيَّة التي لا تقبل التداول والتغيير وتعددية الآراء، فـ "التقيّد بمنهج واحد أو نظام مفاهيمي، مخصوص وهمٌ (...)؛ إذ المعرفة النَّقديَّة في تحول مستمر، لذا، فالتعويل على منهج بعينه إنكفاء وحجب للأشياء وإجهاز على ثقافة الإختلاف والتفاعل" (4) .ولكن هذا لا يعني أن المناهج السابقة لم تقدم كشوفات معرفية وجمالية عن النصوص، إنَّما الحقيقة نفسها ما عادت باتجاه واحد، مما يعطي الموقف النَّقدي رؤى متعددة "هي سمة الأصالة والتفرد ويمنحه صفة اللامنتمي الذي يبحث عن تأسيس أبجديات السؤال/ الحوار، باعتباره أساس المعرفة، ولولاه لما تأسست نظرية/ إجابة" (5). محاولتنا لا تدعي الإفلات من هذا وذاك، ولكنَّها تسعى- وربمّا تخطئ في سعيها- إلى أن يكون الفضاء هو الميدان الذي تنصهر فيه شعرية النمطين "التمددي والإنكماشي"، فسارتر يتحدث عن شعراء غيّروا خارطة الشعر الأوروبي، ورسموا له طرقًا تنسجم وتصورات الحداثة وما يعتمل في أوروبا منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم، وكان استقرارهم على نمطين أو أكثر يعني تركيز الشَّعريّة ضمن نسق الحداثة الكوني. فقد تكون محاولتنا خجلة بالإدعاء؛ أنَّها ترسم طريقًا فيه بعض المغايرة، للنقديَّة الشائعة، ولكّنها مغايرة أتمنى أن تجد من يسندها بتصوره الخاص. فالمحاولة النقدية ترى أن الواقع المادي الذي يحيط بنا من شأنه أن يفرض تصوره ولّغته وموضوعاته علينا، ليس لقوة وجوده، إنَّما لأن لا أحد منا؛ مهما كان تفكيره وفلسفته وتوجهه الفكري باستطاعته أن يخرج عن تأثير المكان/ الفضاء في أية عملية فكرية أو تجريبية.

من هنا نعود بأدوات الإنسان الحديث إلى الأم، إلى الطبيعة، وهي تحث التصور العقلي النقدي الذي يُمارسه الشاعر عليها، ولا يستسلم لمقولاتها الميتافيزيقية القديمة، الشعر معول حداثي، ويحاول أن يجد المرتكزات الفكريَّة التي تجعل السيطرة على الأمكنة وفضاءاتها تحولًا لإرادة الإنسان في التغيّير، وكتابة ما يمكّنه أن يساهم في خلق تصور أجمل وأكثر فاعليّة للشّعريَّة في العالم. فذات الشّاعر ستبقى محورًا أساسيًا للتمركز في عالم اليوم. فـ"التموضع" و"المابينية" و"التَفضيّ" و"المآوية" و"الإستعارة" و"المسافة" و"الشحنة"، وغيرها من مفردات فضائية للنصّ، تغني التصور الشعري كما تغني التصور النقدي، وقد بدأ النصّ – كما كان- يتحرك فيها متجنبًا أية تصورات نقدية سابقة، النصّ

الشعري مشروع ذاتي يتعمق بالعلاقة الإجتماعية، ويحلق في سماء كونيَّة يدري في أي مرسى فيها سيقف،(6). تصوراتنا في النقدية المكانية قائمة على أدوات منبنيَّة في الواقع، تكون قادرة على أن تكشف بوضوح عن آليات الشعرية في النصّ. كل قصيدة بلا فضاء تتموضع فيه، تبقى طافيّة لا معنى لها، " فمنطقة المابين منطقة الغياب/ الحضور فقط يحتاج إلى من ينفض الغبار لا ليجلبه كسلطة معادية أو مناوئة لسلطة المركز/الحضور، بل ليُعطي فرصة التعرف بذاته كوجود له أنظمته"(7). وكل شعريَّة إذا لم تجد لها موضعًا بينيًا، بين فلسفتين أو اتجاهين، تكون فيه مستقلة عنهما، لا يمكنها أن تتخلص من أي تأثر إيديولوجي خارجي. فالذي نسميه منطقة الـ "المابين" هو المكان الذي تقول الذات فيه إنَّها ليست ذاتًا متفوقة ومعرفتها هي ليست ما تعرفه، ولا هي عملية مكتملة المعرفة، إنَّما هي تبحث بجدلية متأرجحة بين طرفي المابين عن معنى مغاير للسياقات العامة للشعرية التقليدية، فالشعرية التي ننشدها في النقد المكاني تنتمي، في الحقيقة، إلى المكان الذي تحدث فيه عملية المعرفة، أعني في المكان الذي تقف فيه الذات مقابل الشيء (المكون للموضوع) وتحدث عملية المعرفة والفهم (إن حدثا) في علاقة الذات بموضوعها(8). ويقول هايدغر عن "المابين" هو المكان الذي تتكلم فيه اللّغة. وكل قصيدة إذا لم تُمأّلف من أشيائها كما لو كانت أشياؤنا البيتيَّة، أي لم تبحث لها عن "موضع" ما بين التجارب الشعرية السابقة تفقد ميزنها كقصيدة، أن "مألفتها"، هو جعلها فضائية معاشة، وكل قصيدة إذا لم تُفَض لّغتُها أبقت اللّغة بلا معنى اجتماعي. وهكذا تكون الاستعارة امتدادًا في فضاءات تأويل العلاَقة بين الأشياء والمجتمع، وتكون المسافة قياسًا لدرجة إحساس اللّغة بالشيء. فالإنسان اليوم انتمى لصالح (البلد "المكان" بعدما كان ينتمي لصالح الطبقة "التاريخ"). فكيف هو الشاعر؟ لاشك إنَّنا إزاء مغامرة نقديّة تقودنا إلى مجهول المنهج المسبق، وتدفعنا بإتجاه النص المكاني، النص القائم على سؤال الأشياء.

***

يميل الشاعر الحديث إلى العزلة، خاصة إذا كان ينتمي لجهة العقل في صياغة خطابه الشعري، والقصيدة من مؤثثات العزلة والعقل، أولًا لتجريدها العقلي من النثر، وثانيًا لكلماتها المقتصدة المبنيَّة على الاختيار والدقة والعلاقة الداخلية مع غيرها، وثالثًا لارتباطها بالذات التي تؤكد هُويتها عبر التعبير، ولذلك تقترن العزلة بالفلاسفة والمفكرين والشعراء، وقادة الثورات، هؤلاء الذين يكون كلامهم مبنيًا لقصديّة موجهة، وبعيدة عن الرؤية الإنشائية. فالشاعر يتجرد في العزلة من النبوءات، ويميل إلى استحضار ممارسة الخبرة واللّغة، لذلك فهو إنسان يمتلك الرؤية القصديّة، وهذا يعني أنَّ كل الأشياء التي يستحضرها لا تنتمي للحاضر فقط، ولا إلى القرابة من أية جهة كانت أيضًا، إنَّما تنتمي لليقظة الذاتية لأحلام الشعرية، والشعر لا يتعامل مع الأشياء الحديثة، فأي أشياء صنعت أو استعملت للتو لا تملك تاريخًا للإستعمال، ولا تمتلك قدرة على تمييز الملامسة. في حين تكون الأشياء العتيقة، القديمة، في القصيدة مالكة لجوهر مضيء، ولكنَّ من يضيئُها؟ هذا هو سؤال الشعر، الشّاعر لا يتعامل مع الأشياء المحدثة، الجديدة، النيئة، وغير المطبوخة بفرن الحياة، أو ما تزال منسبّة لغيره،

أي لا وجود ذاتيًا لها، إنَّما الشعر يتعامل مع الأشياء المختبَرة، العتيقة، التي تمتلك سمات أسطورية، وتكون مفرداتها مضيئة بالرغم من عتاقتها وقدمها، أعني يمكن أن تكون مادة استيهامية للشِعر، حيث المتحقق منها يوصل بتاريخ تشكّل البدايات، وحيث بإمكانها أن تولّد لغة احتمالية تعيد الإنسان إلى جذوره، في الوقت الذي تقتلع الحداثة هذه الجذور، لذلك نجد هاشم شفيق يهتم بالأشياء العتيقة، المجربّة، المختبرة، الأشياء التي تكثّف لسانها، كجزء من ذاتية الإنسان الذي ما يزال متشبثا بالقيم القديمة والماضي وغير المقتلع من أرضه، وسنجد أن هذه النغمة المعرفية ستتغير في القصائد التي يكتبها في بلدان الهجرة، حيث حداثة المجتمعات الأوروبية تخلخل قدميه ورؤيته للاشياء وتفقده رؤية التركيز على العتاقة والقدم، فتأخذه بهرجة المدينة والحدائق والنسوة وتصبح أشياء المرأة مادة شعرية جديدة منقطعة عن المواد التي رافقت بداية شعريته. وبدا الشاعر عاجزًا على قول مختصر مفيد، فهو يكرر الصور ويستطيل بالقصيدة محاولة الإمساك بجوهر الأشياء إلّا أنَّ حداثة المدينة الغربيّة تخلخل الرؤية وتشتتها، فيظهر القول الغامض، المبهم، والتاريخي، والوثائقي، بلّغة يوميّة غير مستقرة، وأحيانًا بتراكيب صور بسيطة، دون أن يلصقها بفترة أو جهة، فتبدو الأشياء العتيقة لقىً نادرة في الحياة المدينيّة المعاصرة، وحين يستحضرها، تبدو كما لو أنَّها قادمة إلينا من عالم كوني:

للصناديق رائحةُ النخلِ
في بيتِ جدّي،
صناديقٍ من خيزرانٍ مطعَّمةً بالفصوصِ
ومسكونّة بالرياح.

الجد، والصندوق القديم، أشياء معطاة، التسمية لها "جد" و"صندوق" من فعل الشاعر، وبدن الوسم لا معنى لها، فالشاعر هو الذي يعطي الأشياء المعنى، الذي لن يكون المعنى للأشياء نفسها في قصيدة ثانية، كل فعل، محدد بما ينتج، وهذا التحديد مرتبط بزمن الآنية، فالجد لا يقال له "جد" إلا الآن، والصندوق لا يقال له "صندوق" إلا الآن، ولذلك الشعر لصيق الآنية، أي الفعل المعاش، وما عدا ذلك، سيكون ثمة آنية أخرى للجد وللصندوق غدا ما وردا في قصيدة أخرى. نخلص من هذا كله أن الشاعر هو الذي يعطي الأشياء أسماءها، وهذه الأشياء لا قيام لها ولا تمام إلا بالشاعر الإنسان، فالقصيدة لا تكتب لذاتها كقصيدة لها كينونة مستقلة، إنما تكتب لأن ثمة شيء غامض، مبهم، في الحياة بحاجة إلى "إبانه" "كشف"، عندئذ تستدعي القصيدة زمن الأشياء المتخثر في القدم، فالشعرية هناك. عندما يدخل الشاعر في علاقة ما مع الأشياء القديمة، عليه أنْ يجعلها بحاضر مُهيمن، حاضر داخل عالم القصيدة، كي ينصت إلى أنينها الزمني المتراكم، وبدون هذا الكشف عن زمانها لن تكون الأشياء ضمن العالم، إنما مفتقدة الوجود، الشعر يعيد إنتاج الأسماء للأشياء، كما يكشف ويبين قدرتها على الغنى المعرفي كي تمكن الناقد من أعمال التأويل في محتوياتها، وعندما يجعل الشاعر منها كينونّة حاضرة تَقرأ كماض مركب، يجمع بين خصوصياتها وتجاربنا، وربمّا ستحدث مفارقة بين العيش في المدينة الحديثة حيث أشياؤها متحولة وسريعة التخلي عن أسمائها، والشعرية الحديثة، لذلك أصبحت شعرية هاشم متأرجحة بين انتمائية لمدينة عراقية متحركة بحدود ثقافتها اليومية، ومدينة غربية متحركة بمستوى أعلى من ثقافتها اليومية. ولكي

تكون الأشياء قادرة على مماحكة معارفنا، والوقوف بقوة أمامنا، تبقى تشع بما شحنت به زمنيًا.هذه الصناديق كائنات طبيعية تحتل مساحات واسعة من أحلامنا، ولأنّها وحدها التي تختزن الظلمة والأسرار، ارتبطت بالفعل الذي تفعله في القصيدة، لذلك كانت قرينة نفسية بالمرآة، حيث الرؤية فيها رؤية في زمنها، كما تقترن بالمرأة الأم حين تؤكد الأشياء على ما يؤكد هويتها كمانحة، توضح وتبين ما يرى فيها، فالشاعر كائن "ناظر في كينونة الأشياء" مستعيرين تعريف نيتشة للإنسان. ويبقى الشعر نتاج الرؤية أي الضوء، وتبقى الأشياء عرضة للرؤية، للضوء، فالضوء الرؤية، يُخصب القصيدة، لأنّه قرين النبات، الديمومة، الشباب لذلك تقفل الصناديق بالأقفال، لإبقاء الضوء القديم فيها، حرزًا وحرصًا وائتمانا، بينما يحاول الشاعر أن يفضّ بكارة الضوء، بكارة الظلمة، للكشف عن كينونة الأشياء القديمة يوم كانت ممتلئة بالسحر. وبغض النظر عن المظهر الخارجي للصندوق؛ وهو دائمًا يهيمن على الرؤية بـ "خيزران مطعم بفصوص" إلا أنَّ جوفه هو الذي يحاكي الجد عبر محتوياته، وكأنّه يستدعيه كمفتاح لفضّ بكارة الصندوق/ الماضي، هذه الباطنية المعلنة تتكرر كثيرًا في شعرية هاشم، وكأنّها ألوان يعيد بها رسم كل ما كان يتصل به يوم كانت السماء تلاصق أرض البيوت العراقية، والشمس لا تغرب إلا لتعود، والأشياء اسفنجة تمتص أحداث السنين، هذا الدوران يجعله أن يقول:

فتحنا الصناديق، حتى وجدنا بها صورًا، ودعاءً، خرزًا باهرًا، خنجرًا يمنيًا، مُدى سومريَّة، ومطواة جدي، ونساء بأجساد ثور، يصلين للسهمِ، للخمرِ في القِربِ البابليةِ.

كل هذه الأشياء من مخزونات الضوء، اشياء لا تستحضر إلا بالضوء، فالمفتاح/ القصيدة أداة تفضح أسررها، والظلمة تتلاشى بضوء الأشياء، وعندما تكون ثيمة الجنس مهيمنة على الأشياء فكل الصور تدور في فلك التحقق، حتى تلك الصور النضاليّة والشعبيّة والمهنية، ثمة ثيمة للجنس يوظفها هاشم شفيق في كل قصائده تقريبًا ويوطنها ذاته التي تبدو مراقبة، لكنها مندمجة في تكوينها ومعايشها وابتداع لغتها سيلازم الموروث الجنسي القديم لهاشم في رحلته الشعرية حتى لو تغيرت البلدان والأفكار وتكاد تكون ثيمته متدرجة متصاعدة؛ ففي المرحلة الشعرية الأولى – السبعينيات–، كانت ثيمة المهن الشعبية مادة ثرية لقصائده، وكتب معظم قصائدها على الطريقة المدورة، حيث تستبطن النثيرة دوران الزمن، وفي أعماقها التي غطيت بدثار المألوف اليومي للمهن، والعادات تجد الثيمات والرموز الجنسية أساسية في بنيَّة سياقه المختبئ وراء اللّغة اليوميّة.

"الرائف يجلس في دكان مخروم بالأرضة، (المكان الآفل) فوق الدكة ألبسهُ الباعة والبقالينَ، (الزمان الحاضر) وبدلة حداد بدخان الكور.. (زمن العمل) وتحت المقعد فأر يقرضُ أطراف الشيخوخة، (الزمن الحاضر) هذا جرذ يفتح آفاقًا في الليل وفي الطاعون، (الجرذ هو التاريخ الذي لا يعرف التوقف) وهذا سوسن ينخر حتى الذكرى. (الاقتران بالرائف).

فالرفو فعل جنسي، والأبرة عضو، والملابس جسد، والدوران يؤكد أن الجنس يكبر ويشيخ ويبلى ويموت، ودائما يكون له تاريخ يقترن بالأفعال الآفلة، وبالرغم من أن هاشمًا لا يعني الصور الجنسية

مباشرة، إنما كان يجمع صورة كليَّة لحال "الرفّاء" فلا يجد غير الأدوات التي ترتبط بفعل الرفو والفض ومحيط ممتلئ بمن يقرض ويفتح كوة الليل، اللاشعور هنا يتحكم بالصور الشعرية والمفردات، حتى لو كانت القصيدة تتحدث عن العمال.

ونقرأ:

في حانوت البزاز نجوم تجلسُ في ألبسة،
وطيور ترتفعُ الآن على الأكمام، قباءٌ يتكوَّرُ
في الكتّان، وزهرة قطن تتفتح بين دمقس
وقميص من وبر، باخرةٌ ترحلُ في قمصانٍ
وسراويل من الجُوت، .. وتأتي امرأة تطلبُ
فستانًا مخترمًا بالأنجم، يأتي رجلٌ يأخذُ
سروالًا عمليًا لوَّجه البحر وزرقته، .. وتأتي
البنتُ فتأخذ حمّالات ليمام يتأهب للطيران،
فتاة في العشرين تحاول أن تلتقط الغسقَ
المتكدّس بين ثياب النوم وبين الصّدارةِ ...
الخ.

ولك ان تحيل الأسماء والأفعال إلى دائرة الأنثى لتجد أن القصيدة لا تخرج عن هذه الدائرة وإن كان موضوعها اجتماعيا وتحاكي حال البزاز بائع الأقمشة وعارضا بضاعته الملوّنة في السوق أمام أعين النساء اللائي يتجولن بين ورود الأقمشة وأسعار البزاز. بين حاجات الجسد وكبح الرغبات، وبالرغم من الحشمة الظاهرة على الممارسة الاجتماعية يبقى السوق مهيمنا على مفرداته فتكون اللغة بضاعة فيه أيضا ويكون المشتري عارضا حاجته دون خجل أمام الغرباء، ولنا في الخلوة التي تعتمدها المرأة أمام الغرباء بان تفصح عن حاجتها دون خجل، مادام كل شيء يتعلق بضاعة تستثمر باتجاهات مختلفة عندئذ لن يكون ثمة ما يدين اللغة التي تحتمل التأويل.

ونقرأ في قصيدة "الفرّان":

لهب يطفو في المخبز، يُخصبُ نارًا شقراءَ،
تراود تنورَ فخارٍ بنيٌّ، جمرٌ ورمادٌ يعتنقان
على مقربة من وجه الفرّان المتورد، أيدٍ
تغطسُ في هندسة النارِ.

وفي الفرن حيث النار فعل جنسي بالكامل، والفرن كوة وعش وحضيرة، وكل ما يحدث فيه يلتصقُ بالجنس، حيث الجسد يتطلب دفئا وشوقًا والنار تعبير عن هذا الكبت المدفون، لتندمج بحرارة الطبيعة الجسدية للمرأة. كل شيء في القصائد يميل إلى البدائية، إلى المثيولوجيا، إلى تلك الأوليات التي لا يمكن أن تلغى أو تندثر، وتبقى دائمة الحضور حتى لو دخلنا في مجتمعات الما بعد، عبثًا يُلغى السحر البدائي من الحداثة، فالتقنية سحر أيضا ولكن موشاة بالعلم. وما دام لكل فعل حكاية تبقى فاعلية الحكي تخترق كل مضارب العلوم والتقنيات، ولأنّنا ولدنا لنحكي فلا شيء يمنع الأسرار من أن تنفجر من خلال اللسان أو الثقوب أو الأبر أو المفاتيح أو الاقفال أو الصناديق أو الملابس أو النار أو مواقد العشق المرتحلة، هكذا تكون بدايات هاشم شفيق ملتصقة باللاوعي، بذلك التكوين غير المهذب والمشذب، ليعيده وهو في بلدان أوروبية متقدمة بشيء من التهذيب والإخفاء، فالحداثة مدورة أيضًا تعيد الذكريات القديمة، ولكن بطريقة العزف على آلات حديثة.

ها هو الزمن البدائي يستدعي أزمنة أخرى فلا مسافة بين الأزمنة، ثمة دوران متصل، عندما تكون الأشياء مُختّبرة، مجربّة، يلغى الزمن الموضوعي ويبقى زمنها الذاتي، وعندما تجد الأشياء نفسها أنّها ممتلكة لحضورها البهي، تبدأ بالإضاءة، بإخراج نورها الكامن في كينونتها، كل الأشياء حيّة "فالأشياء تتفاعل، وهذا الشيء الأكثر قبحًا، يتحول بملامسته النور إلى ضياء،

وبإضاءته فإنَّه يُضيء ما حوله، وبالنظَّر إليه فإنَّه يُرى، وبإشعاعه يرسل إلى البعيد النهار، ولكنه – هو الآخر– لا يكتفي بأن يقذف النهار إلى خارج ذاته، إنَّما يستقبله وينتجه في ذاته من جديد، ويعيد خلّقه من خلال ماهيته. ... وعلى هذا فإن النظرة تعطي الحياة، والحياة تمنح النور"(9).

ولا فرق عند الشاعر أن ينظر في المغلق أم في النور، فالصور الشعبية معلقة بين السماء والأرض وليس من صور سرية فكل ما يفعله القروي هو أن يتحدث عن أسراره باستمرار، لذلك تكون القرية مكشوفة ليس بأمكنتها إنَّما بحياتها وأعمالها.

إلى قبعّة أو إيشارب....
فأرى ورقًا أخضر
يعلو سمتي

***

كي نعيد إنتاج صورة تحملها الأشياء، علينا أن ننتجها بطريقة أعمق من التلقي المباشر لها، أي علينا أن نعيش العلاقة معها، عندئذ سيكون الشِّعر تصورًا لعالم الأشياء، بمعنى أن الأشياء التي تعيش في فراغها الروحي، تحيا عندما يلامسه الشاعر، فتحقيق الوعي بها، يتم عبر إدراكها، عندئذ تنهض من فراغها، كبوتها، صمتها، سكونها، وتتقدم بضيائها الذاتي نحو اللّغة لتفرغ شحنتها فيها، الشاعر وحده يمتلك قوة ليغيَّر العلاقة بالأشياء، وعلاقة الأشياء بنا، هذه القوى المُضمرة في الشَّعريَّة قادرة على صياغة موقف نقدي من الحياة: طرفاه أنا والأشياء، قد يعبَّر الموقف النقدي عن فئة اجتماعية، خاصة إذا كان الشيء ممتوضعًا ضمن إيديولوجيا أو مؤسسة، أعني يمكن محاورة الشيء والنظر إليه، باعتباره جزءًا متحركًا من فكرة الحداثة، عندئذ أبدأ بتحديد المسافة بيني وبينه،

"أرى ورقًا أخضر.. يعلو سمتي"

هذا العلو هو مسافة للرؤيا، مسافة يحددها موضع الشيء في تكوين مؤلف من جسد وقبعة وايشارب وفراغ، هذه "البروكسيميا" التي يسميها أدورد هال "علم المكان" يصبح تحديد المسافة بيني والأشياء واحدة من شحنات الرؤية الموقعية للشيء، فيما إذا كان الشيء قريبًا أو بعيدًا، فالمسافة تُشحن بضياء الأشياء، وتُحدد بها نبرة اللّغة ونوعيّة الكلمات، كما تعطي للّغة الشَّعريَّة شحنّة الحضور، لا أحد من الشعراء يهتم بالمسافة التي تفصله عن الأشياء، في حين أنها التكوين المشحون باللّغة والرؤية والتأمل، وهاشم يجيد التعامل مع المسافة بينه والأشياء، فيقصرها إلى الحدَّ الذي يلامسها وتلامسه وتصبح امتدادًا لجسده ويصبح امتدادا لها، فتذوب به ويذوب بها، مولدة علاقة الجسد بالكوني. عندما تُحدد المسافة، تُحدد نوعية ودرجة العلاقة اللّغوية، عندئذ تكون بعض الأشياء حميمية، قريبة من الروح، قادرة أن تحاكي دواخل اللّغة، تتغلغل كالماء، وعندما تكون بعيدة تكون حيادية، متحجرة، وغير قابلة للألفة، "ثمة أشياء مخبوءة في كل كلام بشري"(10) لا بد من تعيين المسافة التي تفصل الشّاعر عن الأشياء، فالشّعريّة شحنّات فضائيّة تملأ ما يناسبها، والأشياء في الشَّعريَّة ليست ملكًا إلّا لذاتها، ومن موقعها والمسافة البينية يمكنها إنَّ تصوغ وجودها صورًا. على الشَّعريَّة أنَّ ترى إلى الأشياء كقوى، وليس كماديات جامدة دون ذات. فالأشياء بحاجة دائمًا إلى أن يكون جسدها مُلامَسًا، محسوسًا، مرئيًا، مخترقًا، مشغولًا بالنظر، خاصة بالنسبة لشَّعريَّة اليوميّ والمألوف، كما لو كانت الأشياء أنثى أو جزءًا من

مألفة المأوى، وبدون القرب، والقرب جداً، المشحون بالعاطفة، الملامسة حدَّ النَفَسْ لا يمكن للّغة الشَّعريَّة أنَّ تقيس نبض الأشياء وحيويتها.

لذلك وأنا أقرأ الأشياء كما لو كنت أقرأ هاشم شفيق، أي أقرأ شاعرًا مؤلفًا من أشياء. لا شك أنَّنا ورثنا العلاقة مع الأشياء من الثقافة الشفاهيّة، خاصة الحكاية، حيث تكون الأشياء فيها موازية لحضور الإنسان، عالما الحكي والشيء يحضران معًا وبقوة في الحكاية، الشعريّة ثقافة "المابين"، لا تصادر الإنسان ولا الأشياء، الشعرية نتاج المابين، المنطقة الجدلية للصراعات الاجتماعية، ولكن الشعرية لا تعني توازناً في التأثير بين الصراعات، إنما تنتج من استحضار الأشياء في النصّ، لأنَّها ستؤدي وظيفة الكشف عن قدرة القوى على التفاعل مع منطقة "المابين" الجدلية، حيث تكون فيها الأشياء خاضعة لإرادة الشعر. لذلك تبدو الأشياء في شعرنا خاليّة من الموضوعية، فارغة من المعنى، دون أن تكون نتاجا لصراعات اجتماعية متناقضة، الشعرية تتسلل من هذا الجانب إلى الآخر، لأنها تبحث في "المابين" عمّا يغذي وجودها.

وأخشى أن تكون ثمة تأثيرات مثيولوجية تمكّن الأشياء من الحضور الثانوي في الشعر المعاصر، خاصة عندما نغلّب الموضوعية على الذاتية، فالذي يميل إلى التأكيد بأن وجود الأشياء يرتبط بكونها كائنًا مرادفًا للموت، سيجد أنه بعيد عن الشعرية الحديثة، هكذا تقرّبنا الحياة اليومية والمثيولوجيا من شرعنّة الهيمنة البشرية على الأشياء والأفكار، ونروح بعد ذلك لا لنسجل التفاعل المتبادل بيننا والأشياء، بقدر ما نجسّد ذبول وموت الأشياء إن نحن أهملنا صلاتها البدائية معنا. نجد ذلك في الصورة الواقعية للغصن، الذي يتحول إلى قبعة عندما تمطر ويعلو رأس الشاعر عندما يمرّ، كورق أخضر، الحياة أكثر اخضرارًا من الغصن، ترى من يستخرج هذا الإخضرار؟ غير الرؤية الملامسة للـ "القبعة أو الإيشارب"، هذه الصورة ليست مفترضة، بل واقعية جدًا، لأنها تعتمد الرؤية من الأسفل إلى الأعلى، من البدائية – الأرض – إلى المطلق – السماء –، الرؤية تبدأ أرضية وصولًا للسماء، كما لو كانت نسغًا يغذي اخضرار الغصن ثم يتلاشى في الفضاء، فالشاعر أرضي الرؤية، حيث يجد في أشيائه ما تصبو القصيدة إليه من علو المخيلة.

المكـــان والمقدس

جاسم عاصي

تولد 1945 الناصرية، عمل في التعليم الابتدائي بين 1964 – 2008، بدأ النشر منذ عام 1965 بمقالة ردا على ما كتبه (د.يوسف عز الدين) في ملحق صحيفة "الجمهورية" الاسبوعي عن الشعر الحر، صدر له اكثر من عشرين كتابا اولها الخروج من الدائرة – قصص – مطبعة الغري – النجف – 1974، واخرها جدل الوجود وفلسفته في لوحات الفنان بشير مهدي – وزارة الثقافة 2013.
له اثنا عشر كتابا منجزا وتحت الطبع بين قراءات ومقاربات ودراسات وسيرة وتجارب وروايات وقصص.
فاز بجائزة مؤسسة ناجي النعمان – لبنان لدورتها لعام 2006، فاز بجائزة وزارة الثقافة للابداع الروائي عام 2010، وكلتاهما عن روايته (انزياح الحجاب ما بعد الغياب.
تنقل بين الناصرية والبصرة ثم استقر في كربلاء منذ عام 1967، وحاليا عضو في قيادة اتحاد أدباء العراق.

تقديم:

كتاب (زهير الجزائري/ النجف الذاكرة والمدينة) مرتبط بمفهوم المكان من خلال تناوله سيرة مدينة النجف. وهي علاقة ثقافية مركزّة على التنوع الأنثروبولوجي والميثولوجي، وحصراً الديني . وما أنتجه الحراك التاريخي في سيرة المكان. ولأن للمدينة خصوصية دينية، فقد تنوّعت في كتابته توصيفات المكان، متخذاً في ذلك لعبة الكتابة في درج المثير وبما يتناسب مع موقع الثيمة من الكتابة؛ أولاً: لكسر رتابة السرد والروي أو تسجيل السيرة، وثانياً: يعمد بذلك إلى ربط الثيمات بمركزية دائمة في النص (الكتاب) أي جعل له وحدة سردية متماسكة، فهو عنوان زاوج بين ذاكرة المكان وذاكرة الراوي للأحداث. ولأن الكاتب مارس كتابة الرواية منذ ستينيات القرن المنصرم، فقد كان تسلسل مروياته ذات نفس روائي، من خلال ربط الأجزاء بالكليات. بمعنى معاينة جدلية الوجود في مدينة تُعد صغيرة في نشأتها، لكنها كبيرة في متنها الثقافي والمعرفي، لاسيّما الديني منه. وما تداخل معه من سيرة الأسطورة والخرافة وبنية الوجود المديني الجديد، أي المراوحة بين الصحراوي والمديني. فذاكرة الفرد من ذاكرة الجماعة. وهذا أمر طبيعي. لكن ذاكرة المدينة نوع من التلوّن الذي يلزم صاحبه الحيادية ووضع الفَرْشة الأوسع.

وهذا ما فعله (الجزائري) في جمع ما هو أسري سيري، وبين ما هو شامل يخص الجميع. لأن الكتاب جمع كل وسائل وأساليب التدوين، ومنها التاريخي. أي تاريخ الأسرة والأسّر والجماعات الدينية وفي مقدمتها الحوزات العلمية. وتسجيل لتاريخ مدينة مستثناة من بين المُدن لخصوصيتها الدينية أولاً، ولأنها مدينة جاذبة بسبب احتوائها على ضريح رمز مهم لدى الطائفة الشيعية في العالم الإسلامي ثانياً. لذا فأمام الكاتب جملة أمور وسعة من العلاقات الأنثروبولوجية والميثولوجية،

مجسّدة في مدارس العلم والشعائر وطقوس الطائفة، باعتبارها مدينة تحتوي على أكبر مدفن في العالم، يقصده المسلمون من جميع أصقاع العالم لدفن موتاهم تبركاً بجوار ضريح الإمام علي (ع). من هذا كانت مهمة الكاتب غير محفوفة بالسهل، لاسيّما اهتمامه بسيرته أيضاً. ارتبطت سيرة المدينة كمكان بسيرة حيواتها وعمق علاقتهم بحيثيات المدينة، كالبيوت القديمة، والأزقة الضيقة والملتوية والمتداعية على بعضها. كذلك حركة الحياة اليومية منذ نشأتها وسط قيظ صحراوي دالته قبر الإمام المدفون سراً في المكان. ومروية اكتشافه بما يشبه ابتكار المتخيّل منه إلى الواقعي. فهو بذلك اقترب من صورة الأسطورة في خلق الأشياء، ابتداء من تشكيل نواة الحياة وصولاً إلى تشييد معمار ما تتطلب الأسطورة من استكمال لأسسها. وهذا تجسّد عبر تنامي وجود الإنسان ضمن دائرة مغلقة على نفسها. وبالتراكم الزمني والمعرفي ذي النمط الواحد، أصبح من الصعب اختراق الحداثة للتابو الديني. من هذا نجد أن السيرة في جانبيها البشري والمكاني خضعت إلى صراع مستثنى عن صراعات المدن في التاريخ. ولعل ذاكرة الراوي المستثناة أيضاً حققت مثل هذه المعادلة الصعبة. فهو لم يألُ جُهداً في ربط الأجزاء، وخلق البؤر التي من شأن وظيفتها أن تُعيد ترتيب الأشياء ما أن يخف وقع التوتر. سواء بين الأفراد أو الجماعات. فالمدينة منذ نشوئها انبثق في رحمها نمط الحداثة، وقد تجسّد في وجود رجال دين يتميزون بالانفتاح الثقافي والتطلع إلى العلمانية، إذ تخرّج الدين من وابل السيئات التي تصيب مسعاه لتحقيق حياة جديدة للإنسان.

إذا كان يتوجب كما فعل الكاتب، أن يُلاحق الصراع الدائر بين الجماعات الدينية، أي بين الملالي وأصحاب المنابر، وبين الباحثين عن أصول الدين وبنيته لاستكمال دورة الحياة. إذا لاحق الكاتب هذه البنيات إضافة لما أنتجته عبر تاريخها الخاص كمدينة ذات خصوصية، وبين علاقتها بالتاريخ العام، أي رأس النظام في البلد. ومن أجد في هذا عمقاً في ما أنتجه المكان كجدلية تاريخية من خلال ملاحقة تطور الطقوس والشعائر في المناسبات الدينية، لاسيّما ذكرى واقعة الطف. كذلك تنامي البنية الاجتماعية والأسرية، وما لحق أفرادها وخاصة من النساء العوانس بحكم التزمت الديني. وبهذا حقق توازناً، هو حصيلة جدلية وجود مثل هذه الأمكنة التي تفرز نوعاً من وقوع الحيّف على البعض. وهنا كما ذكرنا سقط على النساء المتطلعات إلى حياة تُبعد عنهنَّ قوة الهيمنة، سواء من سلطة الأب أو الأم أو الأخوة، كذلك السلطة الخفية المتمثلة بالتابو الديني.

لقد كان بالإضافة إلى هذا النمط من التناول أن تابع ما ينتجه المكان من صور متباينة، حاول أن يربطها بالتاريخ العام للمدينة. بما وفره من مناخ للتدوين، له نكهة سردية مرتبطة بخيوط شفافة بنمط التسجيل التاريخي للأحداث. فهو لم يعتمد تداخلاً رقمياً وحسابياً لتاريخ المدينة، بقدر ما أنتج نمطاً سيريا، حاول الانتباه إلى ما يعترض طريق السرد التاريخي بكسر النمط بجملة الأحداث والحكايات التي هي من باب النمط الحكائي الشعبي. أو هي من متداولات الوجود اليومي، لاسيّما حين تكون تلك التواريخ لها ارتباط بتاريخ النماذج البشرية ذات المواصفات الشعبية، والتي شكّلت جزءاً لا يُستهان به ضمن تاريخ المدينة. لذا نجد ثمة موازنة بين الأنا الخاصة والانا العامة، وبين الأنا ووجود الجماعات. هذه الروابط بين جميع الأطراف حقق من خلالها الكاتب

التوازن الذي نعدّه من باب خلق لنص جديد. ذلك لأن الكاتب قد سبقه في هذا جملة كتاب منهم (مكي زبيبة، عبد الهادي الفرطوسي، مرتضى كَزار) لكنه الأقرب إلى (كَزار) في خلق أسطورته الملازمة لأسطورة المدينة. فهو لم يغرق في الأسطرة، وإنما خلق بؤرا أسطورية، حقق عبرها رؤى تمكّنت من تقديم الأفعال التي أتى عليها مجموع الأفراد والجماعات، لاسيّما الصراعات الدينية ـ الدينية، والصراعات الدينية ـ العلمانية .

العتبة الأولى

عتبة كـ (النجف، الذاكرة والمدينة) تُثير أكثر من قراءة. فنحن إزاء عنوان مجزأ أصلاً وفقاً لوظائف هذه الأجزاء. فـ(النجف) مدينة معروفة في تاريخ المدن عامّة والمدن ذات الخاصية الدينية خاصّة. كما وأنها مستثناة عن المدن المقدسة، بسبب احتوائها لضريح رمز من رموزها وهو ضريح الإمام علي (ع) وفي هذا نوع من التفرد، سواء من خلال هذا الربط، أو عبر تاريخها الذي يقترب من الأسطورة في اكتشاف قبر الإمام وتشييد واقع على حقيقة وليس على تصورات من بنات الخيال. أي أن ما هو مشيّد (مدينة النجف) أصبح حاصل تحصيل للبحث عن الحقيقة، التي أكدها الرواة الثقاة. أما وجود الفاصلة (،) بعدها فدليل على شرح، كما لو أننا وضعنا (:) كعلامة إلى ما يأتي من تدرج في الكلام أو الكتابة.
بقي لدينا مفردتان (الذاكرة / المدينة) فهي هنا ليست (ذاكرة المدينة) كي ننتهي من تصوراتنا لما يأتي في النص. بل أن الذي كان هو إن المفردتين انفصلتا بـ (و) الإضافة. وهذا يعني أنهما منفصلتان في المعنى الذي يبوحان به من خلال النص. أي أن للذاكرة المكانية والشخصية مقامها وركائزها، والمدينة لها توصيفاتها. بمعنى نحن بإزاء معمارين بنيويين لابد من ملاحقتهما باستقلالية، بالرغم من أنهما على صعيد التسجيل مندمجان. ومن خلال السياق العام، يمكن أن نقف على تفاصيل العلاقات بين الأفراد والجماعات، وعلى ما يدور داخل المدينة من حراك معلن، لكنه يُشير إلى مضمر أو ما نطلق عليه اصطلاحاً المسكوت عنه. وهو نوع من فلتات الكتابة وحيثيات البنى الفكرية المعارضة للنمط، حيث توحي بسرّ مكنوناتها وعلى شكل وجهات نظر. ما نخلص إليه من عتبة العنوان واسعة الرقعة والدلالة من خلال إشارات وعلامات التنقيط التي أدت وظيفتها في ما يخص أطراف العنوان الثلاثة.

العابر والماكث

عنوان نجترحه للتعبير عن عابر سبيل في المُدن القصية، ونقصد به أنموذجاً (زهير الجزائري) الذي شكّل عنده السفر والتجوّال جزءاً من قلقه الوجودي، الذي استجاب لضغط الأزمنة بلا شك. فتجواله في مُدن المنفى، وفرّ له فرصا كثيرة، لعل أهمها شعوره الأكيد بالمكان الأول، فقد كان اللااستقرار، والمحو السريع دونما أثر للأمكنة العابرة للإرادة وللذات، لا تترك أثراً يوازي أثر الطفولة والنشأة الأولى في المدينة (النجف) لذا نجده يرتبط بالأمكنة باعتبارات الممحاة (المدن التي أدخلها وأغادرها، هي ذاتها. التنقل الدائم بين المدن سلّحني بنوع من الاسترخاء والتبطر) وهذا يعني عمد إلى الاهتمام بالأثر. كما وأنه وبحكم تاريخه الجديد المكوّن لشخصيته العابرة للأمكنة، قد تغيّرت بنيته وفق تغيّر صوّر المدن (أنا حيث ماحللتُ هو ذاك الواحد الذي تمرّ به

المدن وناسها كأشياء عابرة) وهذا مقياسه المضمر في الذاكرة عن المكان الذي كان ماكثاً في حاضنته بالرغم من فوضى وجوده آنذاك . فالأزمنة هنا تتلوّن ويتواصل تخاطرها طالما ثمة مثير غير مرغوب ، بل لا يشكّل بنية مضافة لتاريخ الشخصية. وهنا نجده يؤكد بالإشارة التي تتناول ما يخص المكان ظاهره وباطنه. فالأمكنة في المنفى تتبدل ظاهراً، لكن المهم للرائي، كيف يعرف سرّ هذه الأمكنة. ثم مضمر لا يُشاهَد، يتعسر على العابر حدسه ثم تأكيده كمعنى. وهذا ما يشغل رائينا (زهير) رؤية الباطن تأتي من معايشة تاريخ المكان، أي طفولته المنحدرة مع طفولة الإنسان وبكريته. هنا لم يحصل لرائينا البديل وهو يجوب سحر الأمكنة التي تفوقت على مكانه الأول معمارياً. لذا فهو يؤكد على سؤاله (كيف أعرف الذات الخفية للأمكنة التي أزورها دون أن يُبهرني المظهر) وخير البلاغة في استخدام عبارة (الذات الخفية للأمكنة) والتي أشرنا إليها بالمضمر من الصوّر .

إنه وبهذا المحور من التسجيل، يربط المستهل من المذكرات، بما تلاها كخاتمة، التي سنأتي عليها لاحقاً. فالذي يهم هنا الكيفية التي استقبل بها مكانه الأول. تلك الكيفية المكللة بالوهن من التجوّال في المنفى خلال أربعة عقود. فهو يدخل (وجلاً من ثلاثة مخاوف هي (النسيان، اللوّم، الموت) فالنسيان هنا نسيان الذات لتفاصيل الأمكنة، ونسيان الآخر لوجود العائد. أما اللوّم فمنصّب على ما سوف يبوح به الآخر إزاء هذا النأي. أيسميه جحوداً أم نكراناً؟ أم أنه ينظر إلى العائد بتسامح. ولكي لا نتسرع في الإجابة نترك للخاتمة وما تبوح به. أما الموت؛ فانه محفوف بموت الآخرين أولاً وموت الأشياء ثانياً. وهذان يقودان إلى موت ما يحب العائد. ولعل هرم وشيخوخة المكان هي الأهم في رؤى العائد من غفوته عبر يقظته. فهو عارف أنه كان قد انتقل (من مدينة الكلام إلى مدينة النقود) وواضح وجه المقارنة بينهما. غير أن حدس العائد عابر لمثل هذه التصوّرات، فهو يتوقع لوماً آخر أكثر بلاغة وقصدية مرّة (سيلومني الاقربون، لأنني تركتهم في أيام الفجيعة، وأعود متأخراً، حين لم يبق غير الرماد والجنائز).

وسؤاله الذي يتكرر عن التشكيل الذاتي والتشكيل العام، ذلك لأنه وجد مغايرة ومفارقة، في وجوده وسط مدينة لها طابعها الخاص، الذي لم يسحبه كلية إلى مجاله. فقد اكتسب من محيطه ما يؤهله لأن يكون ذا بُعد رؤيوي وعميق لما رأى ويرى وسوف يرى. لكن سؤال (أعجب كيف أن هذه المدينة شكّلتني ولم تشكّلني على لهفة زوّارها المؤمنين! كيف أن قدسيتها لم تمنع تشكّل جيل من أبنائها العلمانيين؟)

الوعي المبكر

إن وعي (زهير) الفتى كان مبكراً، لكنه لم يكن بمعجزة، لأنه لم ينقطع عن محيطه أولاً، ولأنه متعلق بسيرة الأب الذي يرفض كل ما يحيطه، ويتجه نحو منحى بعيد عن البنية الأسرية والاجتماعية ثانياً. وبذلك حاز الفتى على صفاء المرآة التي رأى فيها مستقبله، وسبيله. فلم يستهجن سلوك الأب، ولم يعترض عليه مع المعترضين. فكلاهما نتاج المكان (البيئة) ونبوغه المبكر في معرفة أحداث طفولته، وجميعها تتعلق بالمكان، الذي شرحه بالتفاصيل الدقيقة، بينما الأب منبهر ومندهش وكالآتي :

ـ مستحيل كان عمرك آنذاك ثلاث سنوات فقط! ثم بتحد قال: صفه؟

ـ ندخل البيت من دكة بدرجة واحدة وباب تقشر دهانه المصفر. وبعد الباب ممرّ،

على جانبيه غرفتان متقابلتان ...
ـ اسكت، اسكت! من وصفه لك؟ هل هناك كوز ماء وناقوط في زاوية المدخل؟
ـ كسره أحد العابرين... ونخلة قصيرة وسط باحة البيت .
ـ نعم برحية.
ـ أتذكر تماماً كما لو كنت أراها الآن من وراء الشواش، جارتنا أم فخرية
التي تجلب كل صباح اللبن الرائب والبيض الملطخ بدم الدجاجة التي باضته
قبل دقائق .
ـ مستحيل.. مستحيل ﴾
هذه العيّنات تؤكد نباهة الفتى ابن الأب العلماني الخارج عن سيرة العائلة .
ولعل ما تراكم في ذاكرة الفتى من مرويات، أثارت في نفسه القدرة على صياغة أسطورته، لاسيّما حكاية الأسد الذي (يأتي كل ليلة جمعة ويقف على تل في البرّية. ينظر إلى المنائر بخشوع، يرفع يده اليمنى ليحيي (الأمير) ثم يعود إلى غاباته .....).
هذا التصوّر الأسطوري انطبع في ذاكرة الفتى، حيث لحق هذه الأسطورة (المعجزة) كما اتفق عليها العقل الجمعي، لتستكمل محيط دائرتها، ضمن الأساطير والمرويات التي نُسجت عبر تاريخ المدينة. وهي التي شكّلت وعيه المبكر، وفتحت له مسارات مختلفة، بعيداً عن الغيبيات، بالرغم من أنه لم يتخلص نهائياً من تأثيرها الذي استثمره وفق وعيه المتواصل؛ الحياتي والمعرفي المكتسب، لاسيّما في المنفى. إذ انعكس على شخصيته بكل أبعادها ومكوّناتها المتواصلة مع التغيير لصالح بناء الشخصية المتمرسة في الحياة.
ونجد أن المؤثرات تبرز في بنية الكتاب ضمن سردية، تواكب المبنى الأسطوري حصراً. فهو منغمس في معمار الأسطورة التي ولّدها المكان ذو الطبيعة السحرية. فالبيوت في النجف لها هندستها، وأسرار بنائها الذي يميل إلى الضيق والالتواء في الأزقة، ومن خلال مرافق البيت الأخرى، خاصة السراديب، التي لا يخلو بيت منها. وقد كان للسراديب هذه تصوّرات في مخيال الفتية، وهي خيالات مبنية على سحرية الأمكنة. وشكّلت معمار تصوّراتهم اللاحقة، ولاحقتهم حتى بعد تغيير المكان وتحوّلاته (البيت وما فيه من أشباح ودهاليز غامضة، لم أرها أبداً سكنت كل أحلامي، حتى بعد أن غادرنا المحلة، والجن في المدينة يسكن معنا، ويتحرك معنا في الأزقة المظلمة وسراديب البيوت والزوايا المهملة. نكاد نراهم بين العين والمخيّلة، ونسمع حشرجاتهم وسأسآتهم. أهلنا يوصوننا بأن لا نسكب فوح الرز الحار إلا بعد أن يبرد، حتى لا نؤذي الجن تحتنا، وأن ننزل السلالم بهدوء حتى لا نَعثر بهم. ونسمي بالرحمن دائماً ونتجنبهم).
هذا المزيج من التصوّرات الأسطورية ورؤى الحس الشعبي ومعتقداته، هيأ للفتى مبناه ومعماره في التخيّل. ودفعه إلى تمثله في أسلوب السرد لمثل هذه السيرة المكانية. ويكرر هذا مراراً، ناقلاً تصوّراته الأسطورية للمكان، لاسيّما بعد أن حدث التحوّل على المكان، وحصراً هدم حمام عمومي، حيث زحف التجديد، مخلفاً المكان صوّره التي بناها العقل الجمعي وتوارثتها الأجيال (ظهرت السعلاة في النجف. ففي السنوات التي سبقت انفجار المظاهرات، هدّم الحمام العمومي في الحويش، وبقيت منه سراديبه وأعمدته وخزانة الماء. لا أعرف من الذي أطلق أول شائعة عن سعلاة (غولية) أفلتت أثناء الهدم. كانت مختفية في واحد من أعمدته، ترتدي زي امرأة نجفية بعباءة وبرقع).

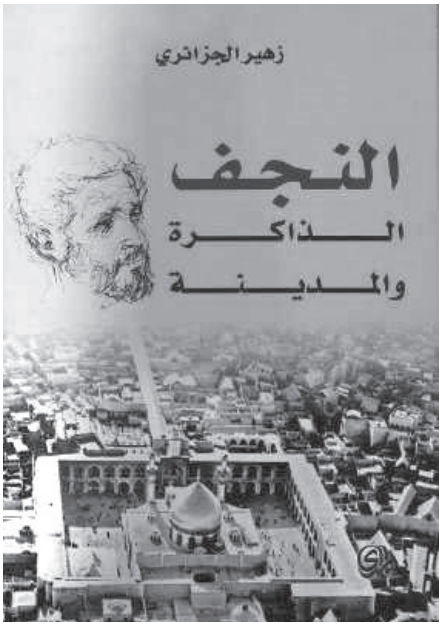

الخروج عن المألوف

الصراع داخل المكان ناتج عن طبيعة تركيبة المدينة. ولأنها محافظة على تقاليد دينية، فقد أكد الكاتب على حقيقة طرحه على شكل سؤال في موضع آخر من الكتاب مفاده: إنه ليس من المنطقي أن يكون ثمة تيار يُنشئه أفراد يتجمعون على بعضهم، ذوو نفس علماني. كذلك أكد على أن التيار الديني لم يمنع أن يكون هنالك توجهات خارج السياق العام. وهذه التوجهات بطبيعة الحال هي بنيات متفرقة تنشأ ضمن الحراك العام، لأسباب منها النزوع إلى التمرد، والخروج عن الملل والروتين من جهة، وبسبب التأثر بنوع المعرفة التي اكتسبوها. لذا نشأ مثل هذا الصراع. ولكن طبيعته أن لا يعلن عن مواجهات مباشرة، فقط يُشير إليه خطباء المنابر. والمبرر إلى ذلك وجود تيار ديني منفتح على المعارف الأخرى، وبما حدد العلاقة بين الدين وحرية الفرد. ابتدأ التمرد في ظهور علامات على الزي المعتاد، وهو الجبة والعمة، فقد بدأ يظهر منظر الأفندية، الذي بدا غير مألوف، ثم تدرج إلى شيوعه باعتباره زي المدارس غير الدينية التي انتشرت في المدينة، لاسيّما مدارس البنات.. ولعل في حياة الكاتب، كان التأثير قد انبثق من الأب الذي يلبس الزي الأفرنجي منذ البدء، واقتنائه للمذياع. وما إلى غير ذلك من عادات وممارسات جديدة في المجتمع. ولعل توجهات شعراء مثل (الجواهري، جعفر الخليلي، عباس الشيخ، الشيخ كاظم الدجيلي، الحبوبي) وغيرهم كانوا سمة مميّزة الظهور في المدينة. إن أهم الأمكنة بتقديرنا هي وادي السلام، الذي شكّل علامة فارقة في المدينة من بين المدن الأخرى.

لقد شمل الخروج عن المألوف على التقاليد

الثقافية والمعرفية، متوجهاً إلى تغيير المكان. لاسيّما انتشار أهلها في الأحياء خارج المركز.

المركز والأطراف

لعل هذا التقسيم للمكان (مدينة النجف) يوحي ببؤرة أساسية للمكان، وهو موضع الضريح، الذي التفت حوله الأطراف، حتى حين امتدت المدينة إلى خارج مركزه. مما دفع بالمنظومة الاجتماعية أن تتخلى عن تماسكها بسبب التباعد المكاني في الجديد من الأمكنة. أي من الشارع الضيّق، الذي ينوف على الزقاق الملتوي، إلى الشارع العريض، والحدائق مابين الأحياء. كذلك مساحات البيوت، واحتوائها على أسيجة، ونوافذ مطلة على الشارع. وهي بالتأكيد نوافذ أكثر سعة من نوافذ البيوت القديمة. وهذا يعني انفتاح البيوت على الخارج، مقابل ما كان من ضيق العلاقات بين ساكنيها. وكأن العملية طردية. لقد تطورت المدينة أفقياً، بعد أن كانت ملمومة على نفسها، يجمعها مركز الضريح، وحركة طلاب العلم والزائرين. كما وأن حسابات أبنائها كانت أكثر بعداً في استثمار المجال لتنشيط الحراك الثقافي والمعرفي، وذلك لتوفر بعض المكتبات التي تتعاطى الكتب التنويرية والمجلات الدورية، لاسيّما أن المدينة شهدت جُهداً استثنائياً في اصدار مجلتي (الكلمة) و(عبقر) مما وسّع دائرة المعارف ذات البُعد العلماني. صحيح حدثت ردود فعل إزاء ذلك، ولكن ردود الأفعال كانت محايدة، بسبب التزام المدينة بأعرافها الأسرية.

رؤى ما بعد العودة

أكاد أجزم أن رحلة (زهير الجزائري) عن المدينة، وتوزع وجوده في مدن العالم الشاسع طيلة أكثر من أربعة عقود؛ ساهم في دفعه إلى مركز التشوّق واللهفة لمكان الطفولة. لكنه من خلال مطالعة شكل المدينة وإنسانها، وجد نفسه في منفى جديد داخل الوطن. وهذا مرده إلى صورة المدينة التي فقدت هويتها التي أسستها على التقارب والمواجهة المباشرة بين أجزائها، وبالتالي بين حيواتها. ولعل قوله وهو ينظر إلى المدينة بعد تجوّال طويل، دال على صرامة المواجهة، وصورتها المخيبة للآمال (قبل أن أراها أطرح السؤال العصي؛ لِمَ هناك وليس هنا ؟).

كما وأنه يندمج في الصورة الحاضرة بقوة، تدفعه صورة الأمكنة التي ترعرع داخلها (لن ألتفت إلى المدينة الأخرى، إنما سأضع المركز كنقطة تثبيت، وقبل أن أعبر الفرات، ألمّ دروب المدينة وناسها حوله، لأعيد تشكيل المدينة وذاتي فيها) وفي موّضع آخر (مدينة حائرة بين حاجتها للخروج من أسوارها. لكنها تُهدم سوراً لتبني سوراً جديداً).

زهير الجزائري / النجف ، الذاكرة والمدينة / دار المدى ٢٠١٥

جدلية الوعي السائد والمتحول في ثلاثية نجيب محفوظ

د. صبيح الجابر

ناقد وباحث وأستاذ الادب الحديث والمعاصر، تولد 1949 بالبصرة، نال الدكتوراه عام 1991 من جامعة بخارست عن اطروحته في الفن القصصي. عمل أستاذا في جامعة سرت الليبية وجامعة صلاح الدين بأربيل وحاليا في جامعة بغداد.
أصدر: مدخل في القصة القصيرة 1999 ليبيا، الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى 2007 بغداد، الغربة والحنين في الشعر العربي 2014 بغداد، الادب والفن وحوارات في المفاهيم والتقنيات والوظائف 2014 بغداد. وسيصدر له قريبا: التناص بين عهد الامام علي لمالك الاشتر والرسالة الخامسة لسعدي الشيرازي.
عضو اتحاد أدباء العراق والنقابة الوطنية للصحفيين ونقابة المعلمين. يعمل الآن في جامعة بغداد/ مركز احياء التراث العلمي العربي

الرواية بين وعي الكاتب والوعي السائد

إن وعي نجيب محفوظ، هو وعي عقلاني: والوعي العقلاني كما يذكر أحمد الجباعي: (هو وعي يعتمد العقل منطلقاً ووسيلة، مستبعداً الرؤى المثالية، أو الاشراقية التي تزعم مقدرتها على فهم الواقع دفعه واحدة عن طريق الكشف أو بوسائل سحرية أو غيبية، ان السمة العقلانية للوعي هو ضمانة هامة من ضمانات ارتكازه وحدّ من حدوده في نفس الوقت) (1). إن مثل هذا الوعي العقلي يمكن ان يوظفه المبدع لنقد الواقع وما فيه من ظواهر، وتحديد موقفه منها، حيث يستخدم الروائي – مثلاً– شخصياته في النقد والتقويم لتلك الظواهر، أي انه وعي يتجاوز نفسه باستمرار.

اذاً هناك وعي لدى الكاتب، وهذا الوعي، هو وعي فني ينبعث على أساس علاقات جديدة بين الفرد والمجتمع ... أو أن هذا الوعي الفني قد شرع يعيش بجوار التفكير العقلي والمنطقي – وهما ليسا بعيدين عن محفوظ، كما تبين – حسب غيورغي غاتشف – باعتبار (ان الإبداع الفني قادر على التعامل مع المنطق العقلي، وتسخيره لغاياته)(2). وعلى هذا الأساس (فان قدرة الفنان البناءة على خلق مادة جمالية، انما تظهر الان في الوعي، وان تكن لا تزال واقعة، وفي القسم المادي – التعبيري منه)(3). والقضية المهمة التي يؤكد عليها (جورج لوكاش) في مسألة الوعي، هي ان الوعي ملازم للتطور، وهو ليس ابعد من التطور التاريخي الحقيقي، وليس الفيلسوف هو الذي يدخله في العالم، وليس من حق الفيلسوف أن يلقي نظرة متعجرفة على صراعات العالم الصغيرة ويحتقرها(4). ومن القضايا المهمة التي يؤكد عليها (لوكاش)، هي أن أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي إلى العالم لا يمكن أن يكون تاماً، فالنظرة إلى العالم، هي الشكل الأرقى للوعي، والكاتب يطمس العنصر المهم من الشخصيات أو

الشخص القائم في زمنه حين يهـمل النظرة إلى العالم... إن النظرة إلى العالم هي تجربة شخصية عميقة يعيشها الفرد، وهي ارقي تعبير يميز ماهيته الداخلية، وهي تعكس بذات الوقت مسائل العصر الهامة عكساً بليغاً(5).

إن نجيب محفوظ في معظم رواياته وتحديداً في الثلاثية (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية) كان متابعاً دقيقاً لرصد وعي الواقع التاريخي، والواقع المعاش بين أوساط المجتمع، وكان ذكياً في زرع نواتات الوعي في البيئات الاجتماعية، التي تذوي وتغيب فيها مثل هذه النواتات للوعي الاجتماعي... ذلك ان قضية الوعي الاجتماعي من القضايا المهمة التي اهتم بها منظرو الأدب، وقد كان باختين أول من أشار إلى هذه القضية، بعد أن اغفل النقاد وعلماء الأدب هذه القضية، كما اغفلوا أهمية عكس الوعي الاجتماعي بأساليب مختلفة تعبر عن ماهية الذوات المتحدثة عن انحداراتها الطبقية والاجتماعية، وهمومها ورغباتها وطريقتها في التفكير.

فهذه (سوسن حماد) ابنة عامل المطبعة، الشيوعية والصحفية في مجلة (الإنسان الجديد) ترفض الزواج من (احمد) الصحفي والشيوعي وابن (خديجة) وأحد أبناء الجيل الثالث ترفضه (سوسن حماد) لأنه لا ينتمي الى طبقة العمال، وقد كان احمد يذكرها بـ (انجلز) الذي لم يكن من تلك الطبقة، رغم ذلك فان (سوسن حماد) كانت ترى في العقلية البرجوازية تهديداً لزواجهما، بسبب هذا التمايز الطبقي. غير أن باختين يرى أن موقف الكاتب من هذا الصراع هو (الحياد) التام، وذلك ان النص المتعدد الأصوات يعتبر جهازاً تعرض فيه الايديولوجيات نفسها من خلال الحوار (الديالوج)(6) .

لكن هناك مَنْ يختلف مع باختين في هذا الرأي.. فمن يختلف معه ينظر إلى الأدب باعتباره موقفاً من الحياة، وهذا الموقف هو (أيديولوجيا) الكاتب، التي تؤثر في رؤيته وتفسيره للعلاقات بين الناس. ومن هنا (التزام) الأديب بايديولوجيا محددة تؤثر في عمله الأدبي فكرا وفناً، هكذا تقتحم الايديولوجيا النص الأدبي باعتبارها من مكوناته الأدبية، ذلك أنه لا يمكن بناء نص روائي دون استحضار هذه المادة الأولية في ذهن المبدع، وبالتالي في المتن الروائي.

إن نجيب محفوظ حين يعمل على تحييد مادته الاولية الفكرية والايديولوجية فان ذلك يأتي مراعاة لوعيه الفني، المنسجم مع مقتضيات تقنيات الفن السردي، فهو لا يضحي بالقيمة الفنية للنص على حساب انحيازه الايديولوجي، لكنه يمتلك قدرة فنية هائلة يستطيع من خلالها أن يوصل ما يريد من وعي خلاق إلى المتلقي في سياق عمليات السرد والحوار، وفي إطار بنية لغوية مألوفة اجتماعياً.

فاختلاف وعي الأجيال، وتباين رؤاها للواقع المصري تجسد زمنياً في تتابع الأجيال الثلاثة في بيئة (الثلاثية) إذ أن الجيل الأول ممثلاً بالسيد أحمد عبد الجواد، وزوجته أمينة وأصدقائهم يختلف عن وعي (فهمي) طالب الحقوق وياسين وكمال.. فقد عاد فهمي مرة إلى البيت بعد اشتداد المظاهرات، والخوف من غضبة الانكليز، وكانت أمينة بانتظاره، وهو غاضب ومتجهم، فسألته: (ماذا بكَ يا بني ؟! ، فهتف فهمي متأففا:

– اكره أن أرى هؤلاء الجنود.

فقالت المرأة بإشفاق :

– لا تبدِ لهم الكراهية.. إن كنت تحبني فعلاً) (7) .

إن ما جسّده محفوظ لا يخرج عن وظيفته، وتحديداً وظيفة الراوي والرواية، وهذا ما

أكده عبد الرحمن منيف حين قال: يفترض في الروائي المعاصر – وكل مبدع أيضاً أن يكون جزءاً من حركة تاريخه ومجتمعه، وهذا لا يتم إلا من خلال الالتصاق بالناس والإحساس بمعاناتهم، ومعرفة مشاكلهم وهمومهم، وأيضا من خلال (وعي العصر) الذي نعيش فيه، والإلمام بالأفكار والتيارات والانجازات، التي تتحقق هنا وهناك.

وفي هذا السياق يضيف (فان أوكونور) في كتابه حول إشكالية الرواية الحديثة: (من أجل أن يكون الإنسان وفياً لفنه، يجب أن يكون وفياً لعصره)(8).

الوعي بوظيفة الرواية

حين نشر محفوظ الحلقة الأولى من الجزء الأول من الثلاثية (بين القصرين) قدم لها: (لا تعتمد على (الحدوتة) الطويلة، بل تعتمد على تسجيل دقيق لواقع حياتنا يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ويعتبر كل فصل فيها صورة مستقلة قائمة بذاتها... أي انه يحرص على التفصيل، لان موضوع تسلسل الأجيال يقتضي في ما يقتضي أحداثا تأريخية وسياسية ووطنية وأغنيات شعبية، وتصوير لمظاهر الجنس واللهو)(9) .

في قول محفوظ آنف الذكر تأكيد على الواقع التاريخي، وهو ينسجم مع ما كشفه بيلينسكي عن سرّ الفن الواقعي بطريقة رائعة، (فالمثال لا يظهر مباشرة، بل من خلال العلاقة، التي تقوم بين الأبطال والعالم.. إذ أن من بين رسائل الفن المهمة، انه يعطي الإنسان، أو يعيد إليه إحساسه المباشر بطبيعته الاجتماعية.. ان ما يذكر الإنسان بطبيعته الاجتماعية، وبأنه مادام يعيش في المجتمع لا يستطيع ان يكون متحرراً منه، هو آلية الإنتاج الاجتماعي عن نفسها)(10).

وفي هذا السياق يرى ـ لوكاش – بأن فلسفة وأدب التنوير يجدان أساسهما في هذه الحالة الاجتماعية، في علاقة حَمَلة الثقافة هذه بالشعب.. من هنا نجد ان محفوظ كان قد اعتمد الفلسفة التنويرية، وهي مجال اختصاصه الجامعي، وكذلك أدب التنوير كوسيلة للوصول بهما إلى الشعب. فالتحول نحو الشعب – كما يقول لوكاش– يعني الكفاح من اجل فن منسوج بحياة الشعب، ويعبر عن أعمق أشواقه، وأفراحه وآلامه، والسعي لإيجاد هذا الفن يعني في الوقت نفسه الكفاح من اجل تراث الماضي العظيم، الذي تريد بربرية الفاشية المعادية للشعوب أن تبيده أو تزوّره.

ولذا فان جورج طرابيشي في كتابه الأثير (الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية) يرى (أن الشيء الوحيد الذي نملك أن نؤكده اليوم هو ان نجيب محفوظ لم يكن في (حكاية بلا بداية ولا نهاية) مجرد مؤرخ، بل كان أيضا صاحب رؤيا، ولذا فإننا نصحح ونقول: إن نجيب محفوظ لا يعيد كتابة تأريخ البشرية فحسب، بل يحاول أيضا أن يتصور مستقبلها)(11).

وقد يكون العلم من القضايا المهمة التي اهتم بها محفوظ، بمتابعته، وبثه في ثنايا معظم رواياته، إذ ان موقفه من العلم لم يكن – كما يقول طرابيشي– موقفاً من الطبيعة فحسب، بل موقف من المجتمع ايضاً. ولهذا فان الوفد الذي يقدم لمقابلة مولانا محمود الأكرم في (حكاية بلا بداية ولانهاية) باسم الجيل الجديد للتفاهم على سبيل إصلاح الأوضاع في الحارة لا يطرح مشكلة الخرافات وحدها، بل أيضا مشكلة (الظلم الاجتماعي) ، (سألهم الشيخ محمود: ماذا تأخذون على طريقتنا؟ فقال احدهم: الحياة في حارتنا معاناة أليمة، وقال الآخر: إنها صحراء مليئة بالأكاذيب.

وقال علي عويس (وهو زعيم الجماعة): صغار المريدين، وهم الكثرة الغالبة، حفاة خانعون. فقال الشيخ محمود: إنهم راضون، والرضا مطلب روحي مضنون به على غير أهله. فقال الشاب: لا يملكون حيال قوتكم إلا الرضا والا ماتوا جوعاً، ولكن لاشك انهم يمرون حيارى بهذا البيت الكبير، الغارق في الرفاهية .

فالعلم عند نجيب محفوظ يتسع ليشمل لا العمليات الرامية إلى تغيير الطبيعة فحسب، بل ايضاً العمليات (الرامية إلى تغيير المجتمع. إنه علم وأيديولوجيا معاً، نيوتن وماركس معاً، التكنولوجيا والاشتراكية معاً)(12).

الإحداث الأولى للرواية بدأت باحتفالات شعبية في حارات وأحياء القاهرة وخاصة في (بين القصرين) وحين سأل أحدهم عن أسباب هذه البهجة الشعبية، أجابوه: اليوم تولى الأمير، احمد فؤاد أو السلطان فؤاد العرش، وكان ذلك الحدث عام 1917، أي عام بداية أحداث الرواية.

وكان كمال، الأخ الأصغر، هو الأكثر قرباً من الأم، والأكثر والأقرب في حواراته مع الأم، وهو الأبعد مسافة زمنية بين عمره وعمر الأب أو الأم، وخلال هذه المسافات الزمنية تكون قد ترسخت قناعات ونماذج من الوعي السائد في تلك الفترة الزمنية عند جيل الآباء. فكمال (حين رأى أحداث الثورة الوطنية في الشارع، وفي المدرسة، تساءل عن الثوار، هل هم متهورون، كما تقول أمه؟ أم فدائيون كما يقرر أخوه فهمي؟ ورأى الدماء، وتمثل الموت، وأحس به حين استشهد أخوه، فأحضر عصفوراً ميتاً وكفنه ووضعه في حفرة في فناء المنزل، ثم كشف التراب عنه بعد مرور اسبوع، فشم رائحة مقززة، فسأل أمه: هل ما يحدث للعصفور يحدث للميتين من البشر؟)(13) .

وهذا يعني أن في عقل طالب مدرسة ابتدائية راح ينمو وعي آخر يختلف عن وعي أمه، ممثلة عن الجيل الأول، وفي هذا السياق يرى (لوكاش) بأن الجهل هو أبو الفعالية العملية، كما هو أبو الخرافات. ويقول بنظرة متشائمة: (إذ استمر التطور على هذا النحو صنعنا شعباً من عبيد، ولم يعد لدينا أي مواطن حر)(14).

اعتقد أن ما قاله (بول لافارغ) حول تقييم ماركس لبلزاك جدير بالإشارة هنا، لوجود أثر لبلزاك في نتاجات محفوظ الروائية، وخاصة في ما يتعلق بروايات الأنهار أو روايات الأجيال، فقد قال ماركس: (إن بلزاك لم يكن مؤرخ عصره فحسب، بل إنه خالق شخصيات تنبؤية كانت لا تزال في زمن لويس فيليب في وضع جنيني، ولم تتفتح إلا بعد موته في ظل حكم نابليون الثالث تفتحاً كاملاً) (15) .

فهل ما قاله ماركس إزاء بلزاك نجد صدى له اليوم في أعمال نجيب محفوظ وشخصياته، وخاصة في الثلاثية؟! وهل أن ما قاله لوكاش حول نظرية الرواية: بانها نتاج نموذجي لاتجاهات علوم الروح.

إن الثلاثية تعد نظرياً من الروايات التي تتجسد فيها خارطة التقنيات الفنية، التي رسمت معالمها نظريات الفن الروائي، وهي النموذج التقليدي لمنهج تدريس الرواية العربية الحديثة في اقسام اللغة العربية وادابها في الجامعات العربية وغير العربية..

فمع نشوء الروايات الاجتماعية – كما يقول لوكاش – أصبح هذا التكيف اكثر ضرورة، والسبب أن العلاقات المتبادلة بين نفسية الناس، وظروف حياتهم الاقتصادية والمعنوية قد أصبحت على درجة من التعقيد بحيث تحتاج الى تصوير واسع جداً لهذه الظروف والتفاعلات.

ولكن ما يهم الرواية التأريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الايقاظ الشعوري للناس، الذين برزوا في تلك الاحداث، وما يهم هو ان نعيش مرة اخرى الدوافع الاجتماعية والانسانية، التي ادت بهم الى ان يفكروا، ويشعروا ويتصرفوا، كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي.

وعي الحوارات وحوارات الوعي

حوارات ونقاشات أبناء الجيل الثاني في (بين القصرين) تشير الى بدايات تحول لهذه البنيات الاجتماعية، وتفتح لأذهان الشباب من أبناء هذه البنية الاجتماعية، وذلك من خلال حركة ما يطرحون من تساؤلات محرجة، وما يدور بينهم من نقاشات تتناول مجمل ما يعتمل في واقع الحياة أليوميه المعاشة : المعتقدات الدينية، والسياسية، والفكرية والعادات والتقاليد وبعض المعتقدات الاسطورية، فضلاً عما يتحقق من شواهد علمية في مسيرة التطور والتقدم العلمي، الذي يجد قبولاً اجتماعياً، كما انه يحقق تأثيراً واضحاً في وعي فئات اجتماعية واسعة وخاصة بين أوساط الشباب، ولم يقتصر طرح التساؤلات المحرجة على جانب واحد من جوانب الحياة، وقد ذكرنا في ما سبق بعض العينات السردية، التي تطرح التساؤلات في الحقبة الزمنية التي عالجتها (بين القصرين) كما ان مجريات الحرب، وخاصة الكونية الأولى كانت قد طرحت أسئلتها الخاصة بين أوساط هذا الجيل ، منها مثلاً هذا الحوار الذي دار بين رموز الجيل الثاني، أبناء السيد احمد عبد الجواد. وكان فهمي طالب الحقوق ، أكثر الأبناء وعياً في السياسة، وكثيراً ما كان يدخل في حوارات ونقاشات مع أخيه ياسين وغالباً ما كان ياسين يشفق عليه ، ويتفق معه في الرأي مجاراة لآرائه فقد قال ياسين مرة: (مضى أربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام !! فقال فهمي برجاء وإشفاق:

–لكل حرب نهاية، ولابد أن تنتهي هذه الحرب، ولا أظن الألمان ينهزمون !

– هذا ما ندعو الله أن يتحقق، ولكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الانجليز؟

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

– المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز، وأن تعود الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهداً.. وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة:

–ولماذا تحبون الألمان، وهم الذين أرسلوا (زبلن) ليلقي قنابله علينا؟!

راح فهمي يؤكد – كعادته – إن الألمان قصدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين)(16) .

البنية الاجتماعية لأبناء الجيل الثاني تكاد تكون مشغولة بالهم الوطني، وبأمور السياسة، ولم يكن أبناء هذا الجيل بمعزل عن الجيل الأول (جيل الآباء) في (بين القصرين) فقد شكلت الطليعة الواعية من أبناء الجيل الأول الأحزاب السياسية والحركة الوطنية المناهضة للاحتلال الانجليزي، الذي قضى على ثورة أحمد عرابي وبسط سيطرته على مصر أواخر عام 1881. فالسيد احمد عبد الجواد، رغم انشغاله نهاراً بعمله في (الوكالة) وليلاً في (العوامات) ومع (العوالم) وتلبية رغباته الجنسية، واحتسائه الخمر خارج البيت كل ليلة، الا انه كان يمتلك سلطة صارمة، ويطبق مع أسرته نظاماً شديداً، نظام العائلة الملتزمة التزاماً دقيقاً بكل ما يخص العادات والتقاليد، وأوامر الأب وتوجيهاته، وسيادته المطلقة على البيت ومن فيه، وخاصة من النساء، الزوجة والبنتين (امينة وخديجة وعائشة)، أي انه كان يعيش حياة مزدوجة،

حياة الورع والتقوى في حرم البيت، والتهتك والعري خارج أبواب البيت المقفلة، لكنه رغم هذه الازدواجية في السلوك ظل هاجس الوطن المصري والوطنية يراوده طيلة حياته، فقد جاءه ذات يوم إلى الوكالة صديقه محمد عفت، وبسط أمامه صحيفة كانت مطوية بيمينه، ثم قال: (لم اعد ناقل أخبار فحسب، ولكني بت رسولاً أحمل اليك والى غيرك من الاكرمين هذا التوكيل السعيد، وأعطاه الصحيفة، وهو يغمغم مبتسماً (إقرأ) فتناولها السيد، وقرأ: نحن الموقعين على هذا قد (أنبْنا) هنا حضرات سعد زغلول باشا، وعلي شعراوي (...) ولهم أن يضموا إليهم مَنْ يختارون في ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا المسعى سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تاماً (...) فتهلل وجه السيد، وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصري الذين سمع بهم فيما سمع من أبناء الحياة الوطنية، التي ترددها الألسن، وتساءل: ماذا تعني هذه الورقة؟ فقال الرجل بحماس: ألا ترى هذه الإمضاءات (...) وقع تحتها بإمضائك، (ودع جميل الحمزاوي – عامل وكالة السيد) ليوقع بإبهامه ايضاً، هذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليوقعها الشعب، فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية (...) أمسك السيد بالقلم ووقع يامضائه في سرور تجلّى في تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة تنم عن شعوره بالسعادة والخيلاء، إذ يوكل عن نفسه سعداً وزملاءه)(17) .

وإذا كانت أمينة تمثل صورة المرأة المصرية (ربة البيت) فان مواصفات هذه الصورة، التي رسمها محفوظ لأمينة، استناداً الى الواقع السائد – آنذاك – فانها في الوقت نفسه تمثل صورة المرأة العربية (ربة البيت) في كل بيئة من بيئات المجتمع العربي بشكل عام، لذلك فاننا حين نرى أمينة بتلك الصورة التي رسمها محفوظ بالكلمات وبتلك الموصفات والوظائف والآراء والأفكار، فإننا نرى أمينة موجودة في كل بيت عربي تقريباً.

الوعي بين الثبات والتحول
(وعي الجيل الثاني)

صعود الجيل الثاني ونضجه المعرفي في (قصر الشوق) كشف بوضوح مستوي الوعي بالواقع، واستطاع أن يتبنى أيديولوجيات حديثة، وطموحات كبيرة تمكنه – كما يعتقد– من ترسيخ خطواته في هذا الاتجاه، وإحداث تحول كياني بين بنية الجيل الأول (جيل الآباء) وبنية الجيل الثاني (جيل الأبناء).

إن الترسيخ الوجودي لبنية الجيل الثاني في المجتمع المصري ساعد على تشخيص الصراعات الطبقية بين أبناء الجيل الثاني، وبنيته الاجتماعية التي أفرزت طبقة وسطى، وفئات ارستقراطية سرعان ما تجسّد صراعها من خلال طبيعة الجدل، ونسق الحوارات التي كانت تدور بين أبناء هذا الجيل في (قصر الشوق).

فابراهيم الارستقراطي زوج خديجة في (قصر الشوق) لم يسعه إلا أن يقدّر نشاطها حق قدره، فكان يقول لها مداعباً: (الحق انك لقيه يا غجرية)، على الرغم من ان رأي أمه في هذا النشاط التي كانت تقول لخديجة ساخرة: (وهذه فضيلة الخدم لا الهوانم)، فترد عليها خديجة: (وأنتم ناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب.. سيد البيت الحقيقي مَنْ يخدمه)، فترد العجوز: (لقنوك هذا الكلام في بيتك كي يخفوا عنك أنك لم تكوني تصلحين في نظرهم إلا للخدمة)(18) .

وهناك عينة أخرى يعرضها محفوظ في سياق الثلاثية لعوائل مصرية أرستقراطية فـ

(عايدة) الارستقراطية – كما يقول محفوظ – رغم أنها من أبناء الجيل الثاني لكن مشاغلها وتطلعاتها تختلف عن زملائها من أبناء جيلها ورغم ذلك أحبها كمال، ولم يوفق في الزواج منها، بسبب رفضها الزواج منه بعد أن تعددت اللقاءات والحوارات والنقاشات في مجالات مختلفة في الثقافة وقراءة الكتب والروايات وسماع الموسيقى التي تجيد عزفها (عايدة)، ففي واحدة من هذه اللقاءات تحدث (حسين) وهو واحد من أبناء هذه المجموعة، قائلاً: (الأمر بالنسبة إلي لا يعد مشكلة، إني أقرأ قصصاً ومسرحيات فرنسية، مستعيناً بعايدة على فهم الصعب من نصوصها، واستمع معها أيضاً إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو، وقد طالعت أخيراً كتاباً يلخص الفلسفة الإغريقية في يسر وسهولة، لست أبغي إلا السياحة للعقل والجسم، أما أنت – مخاطباً كمال – فتريد أن تكتب، وهذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف) (19).

عانى أبناء الجيل الثاني في الثلاثية من صعوبة إقناع الآباء حتى في مسألة حرية اختيار الوظيفة أو المهنة، التي يعدون أنفسهم لمزاولتها، وهذا الأسلوب في التعامل بين الآباء والأبناء ورغم مرور قرابة المائة عام على ممارسته، فإننا نجد اليوم عينات كثيرة منه في مجتمعنا العربي مازالت تمارسه، وتضغط بقوة للحفاظ عليه وتجديده مع تجدد الحياة وتطورها.. رغم أن معارضة هذا الأسلوب ليست بجديدة فقد حصلت على مقولة للإمام علي (ع) يخاطب فيها الآباء بقوله: (علّموا أبناءكم على عصر غير عصركم)، ولم أعثر على هذه المقولة بحثياً وإنما وصلت مشافهة، وهي حتى وإن لم نتثبت من نسبتها للإمام علي (ع) فان تداولها شيء مهم ومفيد وتعني أن هناك وعياً متحولاً عبر العصور، وثقافة متجددة وعلوماً تتطور.

تحولات الوعي وتطور البنى المعرفية

في الجزء الثالث من الثلاثية احتدم الجدل، إذ تمكن الكاتب من إيصال هذه التراكمات المعرفية، التي بدأت مع بداية الجزء الأول إلى الذروة في نهاية أواخر الجزء الثالث، بعد أن تجذرت وتشعبت، ووجدت لها حوامل وموصلات أحدثت حركة واسعة من الجدل في شتى أمور الحياة: مكانة المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، الى التعليم العام، وخاصة تعلم المراة.. وكل هذه التحولات مهدت لتشكيل الاحزاب السياسية، التي تعمل بشكل علني بعد أن كان حزب الوفد قد أشاع روح الحياة الحزبية بين اوساط المجتمع المصري.. وكان لمحفوظ الدور الابرز في زرع جوهر الفكر السياسي والواقعي أدبياً من خلال السرد القصصي، في الوقت الذي نما فيه بوادر الوعي الطبقي، والنزوع نحو تشكيل الشخصية الواعية لدورها في حياة المجتمع، فقد عرض نجيب محفوظ بشكل تفصيلي طبيعة حياة عينيات من حياة أبناء الطبقة الوسطى، وعينات من حياة العوائل الارستقراطية، كحياة (عايدة) وأسرتها، وحياة أسرة زوجي (خديجة وعائشة) وتربيتهما الارستقراطية. وكان واقعياً في عرضه، ووصفه السردي لشخصيات أسرة السيد أحمد عبد الجواد في بيت الأسرة في (بين القصرين) لكنه لم يعرض غرفة أمينة، الشخصية الرئيسة في الثلاثية، ولم يعرف القارئ شيئاً عن هذه التفاصيل، لا تفاصيل أثاثها، ولا نوعيته، وما هو مهم وغائب، ويثير جملة من التساؤلات: هل أن أمينة بعد هذه الحياة الطويلة في البيئة الشعبية لا تمتلك

شيئاً من (المقتنيات) الثمينة أو غير الثمينة، ذهبية او فضية، او أنها لا تمتلك مقداراً من المال الخاص بها؟!

تفسيرات عديدة أثيرت حول هذا الموضوع، أبرزها: ردَّ السبب في ذلك الى ان أفكار وأيديولوجية نجيب محفوظ لاتريد أن تنمي مبدأ التملك والاستحواذ في عقلية ووعي الشخصية، التي يريدها محفوظ أن تكون نموذجاً وقدوة حسنة أو ان أمينة (ابنة الطبقة الوسطى) ربة بيت تنتمي الى هذه الطبقة حالها كحال أبناء طبقتها لا تمتلك مثل هذه المقتنيات بسبب متوسط حالها، إذ أن إمكانيات الأسرة المادية جعلت غرفة أمينة بهذا المستوى المتواضع، الأمر الذي ينسجم مع طبيعة الفن الروائي الواقعي، الذي (يرتبط عضوياً بالوسط الاجتماعي) لأنه يعيش فيه، ويتصل بشرائحه، ويصدر عن (وعيه) ولكنه في الوقت نفسه يخضع لقواعد (البنية) المتميزة فيه، ومن تطابق البنية الفنية والمكونات الموضوعية ينشأ مشروع المنهج النقدي، الذي يعتبر المبدع مجرد واضع الصياغة الفنية المناسبة (للوعي) الجماعي، الذي يعتمل في ضمير الجماعة، التي ينتمي إليها، أو الطبقة التي يعبر عنها .

أمينة هي الجدة، وأم حنفي خادمة عائلة السيد احمد عبد الجواد، وهنّ يمثلن الجيل الاول، إذ أن النظرة الى تعليم الفتيات، تختلف عن النظرة إلى تعليم الفتيان حتى من قبل النساء.. غير ان تعليم الفتيان صار مدعاة للفخر من قبل أسرهم: ((وكلهم هؤلاء الأحفاد يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو إلى الفخار)(20).

وفي هذه الجلسة العائلية كان كمال يستمع الى ما يدور من حديث عن المستقبل بين الأحفاد (أبناء الجيل الثالث) في السكرية، جيل رضوان وعبد المنعم، وأحمد وكان رضوان ياسين يقول: (كلنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلية جديرة بالاختيار إلا الحقوق) (21).

في الجيل الأول بدأ واضحاً تدخل الآباء في اختيار الكلية أو الوظيفة التي ينبغي أن يدرس الأبناء فيها، أو الوظيفة التي يطمحون في أن يشغلها الأبناء، وكانوا يصرون على إجبار ابنائهم على الالتحاق بنوع الدراسة، أو الوظيفة.. أما أبناء الجيل الثاني، فقد تركوا لأبنائهم حرية الحوار، واختيار الكلية او المهنة التي ينبغي أن يعملوا فيها اعتماداً على رغبتهم وميولهم الشخصية، وهذا تحوّل واضح في الوعي من جيل الى جيل آخر، وخاصة ابناء الجيل الثالث، ومن الذكور فقط، ومن أبناء الطبقة الوسطى.

عند أبناء (السكرية) أبناء الجيل الثالث نجد أن وعيهم قد تجاوز قضية التعليم والالتحاق بالعمل أو في وظائف الدولة إلى قضية المساواة، وهي قضية تنطلق لأول مرة، وتحمل معان جديدة على المجتمع المصري، وأفكارا تحركها أيديولوجية حديثة ومعاصرة تستفز العقل المحافظ في تلك الفترة، وتدفعه إلى تكفيرها، لخروجها على التقاليد والعرف السائد غير أن هذه العقول التقليدية لا تستطيع أن توقف مثل هذه الأفكار، التي بدأت تتغلغل في وعي الشباب، وتحقق بلبلة أو فتنة وعي اجتماعي، وتثير جدلاً ساخناً بين المؤيد والرافضين، وتطرح جملة تساؤلات محرجة بين الوعي القائم (السائد) والوعي المتحول .

في احدى المرات سألتْ سوسن حماد، احمد: لماذ اخترت الصحافة؟ فأجاب لم أدخل الجامعة لأتوظف، ولكن عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها. فقالت: أما انا فلم أدرس في الجامعة، او بالاحرى لم تتح لي فرصة دخول الجامعة، وهي متخرجة من

مدرسة الأستاذ عدلي كريم ، الذي هو والدها، ورئيس عمال المطبعة، وأوضحت سوسن حماد لأحمد، إنك أحسنت اختيار الصحافة بيد أنك تنفس عن أفكارك عن طريق غيرك، أعني بالترجمة. وقد توصل في الأخير إلى انه سيكتب المقالة، لكن سوسن حماد لم ترها مطلباً سهلاً لذلك – كما قالت – يضطر الأحرار إلى التعبير عن آرائهم بالمنشورات السرية.. ولكن الشعر، القصة المسرحية، وتحديداً القصة فهي ذات (حيَل) لا حصر لها إنها فن ماكر، وقد غدت شكَلاً أدبياً شائعاً سوف تنتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير.

وكثيراً ما يدور الحوار بين سوسن حماد واحمد في السياسة والنظريات السياسية والايديولوجيا السياسية، وكذلك في أجواء الحرب العالمية الثانية، ومايجري في العالم من ويلات، كما تناول حوارهما الألمان والانجليز، وذات مرة ذكرت سوسن في هذا الحوار: (من المضحك أن الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم!! أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والأخوان والرجعية في الداخل، وكلاهما شيء واحد (...) قاطعها احمد: لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر الاخوانية فكرة تقدمية، تزدري بالاشتراكية المادية)(22).

(1) الايديولوجيا والوعي المطابق / احمد الجباعي / مجلة الوحدة / العدد (75) ك-1 1990.
(2) ينظر: الوعي والفن/ عالم المعرفة / غيورغي غاتشف / ت:نوفل نيوف / 146/شباط 1990/ص114.
(3) ينظر: المصدر نفسه / ص 132.
(4) ينظر: التاريخ والوعي الطبقي / جورج لوكاش / 75.
(5) ينظر: دراسات في الواقعية / جورج لوكاش /24
(6) ينظر: المصدر نفسه / ص140 – 141.
(7) نجيب محفوظ / المؤلفات الكاملة –مج2/ بين القصرين : 522.
(8) نظرية الادب / رينيه ويليك- أوستن دارين /129.
(9) الفن القصصي بين جيلي طه حسين ونجيب محفوظ / د.يوسف نوفل / 120.
(10) الوعي والفن /251.
(11) الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية / جورج طرابيشي / 129 – 130.
(12) ينظر : المصدر نفسه : 110.
(13) المؤلفات الكاملة –مج2/ بين القصرين : 437.
(14) دراسات في الواقعية / جورج لوكاش/6.
(15) المصدر نفسه : 144 – 145.
(16) المؤلفات الكاملة – مج2/بين القصرين – 354.
(17) المؤلفات الكاملة –مج2/ بين القصرين – 490.
(18) المؤلفات الكاملة – مج 2/ قصر الشوق :600.
(19) المصدر السابق : 679.
(20) المصدر نفسه / 820.
(21) المصدر نفسه /821.

رفرفات من المشرق

عادل مردان

شاعر، تولد البصرة 1955 ، **يعمل مدرس كيمياء في التعليم الثانوي.**
له :فضاءات شرقية - دار ألواح – مدريد – أسبانيا 1999، **عزلة من زمرد (مجموعة مشتركة) البصرة** 2005، **من لا تحضره السكينة - البصرة** 2006، **إنشاد حامل الجمر – دار أزمنة – عمان - الأردن** 2008، **دائما في صباح العالم - دار تموز – دمشق** 2012.

طائر الشرق منشداً

أكثرُ الأحيان ينقّحُ ديوانَه البِكر
بزيِّ الرعاة يخرجُ الى الجمهرة
قارئاً من حسهِ عن الإعصار
يدندنُ مع اللازمة
حيثُ تنطلقُ الفراشات
: لستُ جِلفاً
لستُ نقّارَ خشب
ما أنا إلا غرّيدٌ فاتحُ اللون
أتوجهُ الى غدير
إنني صوتٌ يُعتقُ في البريّة
ما أدهشني
ريشهُ المنفوش طيلة الإلقاء
عندما أضحكني مقطعٌ
عن ربيعِ الكوارث

المرفّرفة

إستيقظتُ رائقَ المزاج
وكأنّي فراشةٌ على غصن
عيوني مركّبة
قرونُ الإستشعار فائقةُ التحسس
سعيدةٌ جدا
وأنا أتمتعُ في دوحةِ النخل
لقد تخلصتُ تماما
من
القيلِ والقال
موازنةِ الحياةِ اليومية
كتابةِ المطوّلاتِ المملّة
صارتْ لي أبجديةٌ أخرى
هسهساتٌ لا تزعجُ أحدا
تشرحُ لنا فراشةٌ شاعرة:

الجميع هنا يكتفي بالنسيم
القلقُ
ما يزالُ
في
عالمي
يا ابنة أمي المرفّرفة
ماذا
لو داهمتني
قصيدةُ الليل

مشهدٌ على الطريق

بين أيدي ثلاثةِ قرويين
العجلُ الفتيُّ يرفرفُ
ظهيرةٌ غائمة
والنجومُ التي تُشيّعُ المشهد
ما تزالُ غيرَ مرئية
هكذا أحاطوه بغتةً
هو الذي لا يريدُ
أنْ يجودَ بنفسه
بين الأيدي الخشنة
العجلُ الفتيُّ
يرفرفُ
يرفرفُ
حتى
أغمي
عليه

بعيداً عن الأرض

في المكانِ الذي يضيقُ بنا
أرتقي هكذا
أخططُ وجه الزمن على الإمتداد
لا أدري
لكنْ
أحياناً أشردُ مع الريح
يهمسُ النهرُ ولا ألتفتُ إليه
هل تراني سابحاً في النسيم ؟
بارداً في أبجده المنتشي
ليتكَ تأتي معي
على إرتفاعٍ ما
عصافيرُ على جسدي الهش
ستموتُ مع المناقير:
إطمئنْ
يصيح البلشون بجناحين عظيمين
أنا معك
كلّما إرتفعنا
في الممرات الباردة
ثمةَ مهاجرونَ جدد
من قيامةِ المشرق

فَائضُ الشّاعر

واثق غازي

شاعر وكاتب، 1970 البصرة.
صدر له : جنوب يبتكر المطر ، كتاب مشترك (شعر)، شأن (شعر)، اقتفاء المعنى (نقد).
رئيس تحرير مجلة (تكست الثقافية).

في الطريق الى النجف، لموارات حسين عبد اللطيف الثرى، كنت كلما شعرت بالعطش مددت قنينة الماء البارد خارج نافذة السيارة، وصحت في نفسي: اشرب، أضناك المسير إلى النهاية، ولم أذق ماءً طوال الطريق .

إلى: حسين عبد اللطيف 10 / 7 / 2014

الإمسَاكُ في حَضرةِ المَورد اسْتزادَة :

قُلتُ هَات مَكانَك، فَبَطنُ الطَريق تُرجرج بَقايَا النَسغ، فَيَفرُ وَهَجٌ أعرفُ يَتراءى لِي فأطبقُ ، لَعَلَهُ أطوَلُ حَديثٍ نُنشئ خلالَهُ وثيقَ الصّلَة، ولا يَرقبهُ مَاردٌ ولا يَشكُ فيه المَارةُ، لا مرقاةَ إليكَ فلا سَبيلَ سوى أن أدنوَ من أنين الرّيح تَمرُّ بكَ، فأشمُ احتشادَ الدّواة بماء القَول يَغصّ خَلفَ حَنجَرة الطّائر مَربوطاً إلى غائرةٍ في اللّفح، ما أقسى أن أدلُقَ قوليّ وأردُ فأسمَعهُ، قاربني إلّهَ المَحو، ما بيني وبَيني أشدّ على مقبض بَاب روحيَ: انفرجْ، لَعَلهُ يُخاطبُني، لَعَلهُ نَسيَ أن يُرشدَ حَرَفاً صَوبَ مَلاذ الصّمت، فألزُّ أصابعي خَلفَ الرّيح لئلّا أُفلتَ شَاردةً، قَفزَتْ مَفازَتنا عن موئلَ للطيّور، فأخَذتُ أُخاتلُ ثَلجَ الزّوادة، كأنّي أذرّي فوائضَهُ وأصيحُ اشرَب، أنّتَ تُدركُ خواءَ الزّمن، حينَ يُدَسّرُ الشّعرَ فصومَ الخَلقِ، فلا حَائلَةَ دونَ ارتوائك، فقد بَدأت الرّحلةُ وآثرتَ أن تُنصتَ، وتُهمهمَ حينَ يَنتَفخُ السّؤالُ فلا أتقنُ إطلاقَهُ، ولا يَجدَ طريقَهُ في عُصابَة البَياض فَيَندَسُ برأسه ليشُدَ كلانا سَاهمَةً الرّفقةَ إلى مَبعَدة عَن شَواغلنا، حَتى تَهوي الأكُفُ خَلفَ الزُّجاجِ إيذاناً بِفَهمِ الكافِ والنّونِ...

قصص (فرج ياسين) القصيرة جدا.. قصة (أفواه) إنموذجا

جمال نوري

تولد 1958 ديالى، يعمل مدرسا للغة الانكليزية في ثانوية تكريت للمتميزين، بكالوريوس لغة انكليزية 1980 جامعة الموصل – كلية الآداب، له مجاميع قصصية: الجدران – مجموعة مشتركة مع القاصة لمياء الالوسي 1985، ظلال نائية – 1995، البئر – 2000 ، أفق آخر – 2002، شمس خلف الغيوم 2010، غورنيكا عراقية 2010، فضلا عن العديد من المقالات الأدبية والمترجمة والعروض النقدية التي قدمها ياسم (النرجسة والجداول)، أسهم في تحرير الصفحات الثقافية في الصحف العراقية، منها: (تكريت)، (البداية)، (مجالس) و (النبراس)، وفاز بجوائز عديدة.
رئيس سابق لاتحاد الادباء في صلاح الدين، عضو الهيئة الاستشارية في دائرة البيت الثقافي في صلاح الدين.

عن دار رند للطباعة والنشر صدرت المجموعة القصصية (واجهات براقة) للقاص فرج ياسين وهي تضم بين دفتيها قصصا تنوعت في آلياتها الفنية مما دعا القاص إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام سأتوقف عند القسم الأخير الذي كرسه لفن طالما أثار الحديث والاحتجاج في أواسط المثقفين والقراء، ولست هنا بصدد الحديث عن هذا اللون السردي الذي وصفه جاسم عاصي بأنـــه (فن صعب) ولا بما ذهب بعض المنظرين حين وصفوه بأنه (جنس أدبي حديث يمتاز بقصر الحجم والإيحاء المكثف والنزعة السردية الموجزة والقصدية الرمزية والتلميح والاقتضاب والتجريب والجملة القصيرة الموسومة بالحركية والتوتر وتأزم المواقف والأحداث وربما كان فرج ياسين متفقا مع (ادغار الن بو) الذي اعتقد جازما ان للغة دورا مهما واساسيا في القصة القصيرة جدا لضرورة احتواء هذا الجنس على اللغة الشعرية، إذ ينبغي إن لا يكتب كلمة واحدة لا تخدم غرض الكاتب وربما اتفق فرج ياسين ايضاً مع (أج.تي .يست) في كتابة القصة القصيرة الحديثة حين وصف همنجواي بـ (الرجل ذي الفأس الذي يقتلع غابة كاملة من الاطناب).

ولهذا نجد ان القاص فرج ياسين يحرص اشد الحرص على اللغة ومستوياتها ودلالاتها الشعرية وربما كانت اجواء قصصه لا تخلو من هذا التوظيف العالي للمفردة وهي تؤدي دورها السردي المتنامي في حين تتوهج بإشعاعها الشعري الذي يضيء النص ويمنحه امتياز انتمائه إلى هذا الشكل السردي الذي بقي ضمن مساحة التجريب والتمرين التي اشتغل عليها القاص العراقي خاضعا لمزاجية وتوجس في الاشتغال على هذا اللون السردي الجديد .. وربما غاب عن الكثير ممن جرب الكتابة

واستسهل ولوج هذا العالم الذي قد يوحي للوهلة الأولى بأنه مجرد مفارقة يبتكرها الكاتب، وغاب عنهم أهمية اللغة التي أشار إليها القاص الراحل (موسى كريدي) مؤكدا على خطورتها القصوى حين قال (ومشكلة قصاصينا ايضاً أنهم لم يفهموا بعد عبقرية اللغة وطواعيتها، لم يدركوا ادراكا واعيا قدراتها على الأداء والتعبير) ولعل ما جعل قصص فرج ياسين المشحونة بالشعرية ان تمتلك حضورها الإبداعي هي لغتها المؤثثة بوعي مبتكر من فهم اللغة ومعطياتها وسأتوقف عند قصة برع فيها فرج ياسين أيما براعة.

في قصة (أفواه)، يستهل قصته بهذه الجملة (لم يفه بكلمة وهو يلج البيت) والصمت وحده يُشفر لأشياء كثيرة قادمة ستضيئها القصة لاحقا ولعل ما انطوت عليه جمله الاستهلال في هذه القصة تنسحب على معظم قصص فرج ياسين التي يفتتحها بجملة استهلالية زاخرة بالدلالات والمفاتيح التي ما إن يمسك بها القارئ حتى يستطيع بالتالي ان يلج إلى مغاليق النص ويمسك بخيوط السرد التي تقوده الى فهم حقيقي لواقع استطاع القاص بفنية بارعة ان يجسده وان يعلن في الوقت ذاته عن صوته المدوي في إدانة كل ما هو لا انساني ولاسيما الجوع الذي فتك بهذه الأسرة التي عجز معيلها عن جلب القوت واستعان بالغناء عله يكون بديلا عن هذا الجوع الذي يطحن البطون ويحجر المآقي المستفهمة عن سر هذا الخواء والياس.

لم يكن بوسع الرجل ذي القامة العصلاء إن يعيد بابتسامته المغتصبة شيئا من الحبور والحركة والحياة إلى الأفواه المتطلعة إلى ما يبعث في أوصالها دبيب الحركة والتواصل.. لقد مثل فرج ياسين في هذه القصة المكثفة التي اختزل عبر الصمت وحده كل مستويات الاحتجاج والرفض بمتابعة لأدق التفاصيل التي أسهمت في تثوير النهاية الفجائعية وهي تؤكد عقم الحياة في هذا العالم المحاصر بالجوع والاستلاب والموت المجاني.

يرى اوجين يونسكو ان (كل أدب جديد هو عدائي: العدائية تمتزج بالأصالة وهي تقلق ما اعتاد عليه الناس من افكار)، وهكذا يصبح المعادل الموضوعي الرمزي عاملا محرضاً وفاعلا في الإدانة والإشارة لما يريد القاص ان ينهض به ضمن بناء قصصي متقن.

قصة قصيرة
أفـواه

فرج ياسين

مواليد العراق - تكريت – 1945، دكتوراه في الأدب الحديث والنقد، أستاذ مساعد في كلية التربية للبنات /جامعة تكريت، عضو اتحاد الأدباء العراقيين، أول رئيس لاتحاد أدباء صلاح الدين، عضو اتحاد الأدباء والكتاب العرب، عضو الهيئة الاستشارية للتأليف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة العراقية.
له من المجاميع القصصية: حوار آخر 1981، عربة بطيئة 1986، واجهات براقة 1995، رماد الأقاويل 2006، ذهاب الجعل إلى بيته 2010، بريد الأب / قيد الطبع.
وله من الكتب النقدية: توظيف الأسطورة في القصة العراقية الحديثة2000، أنماط الشخصية المؤسطرة في القصة العراقية 2006.
كُتب عن منجزه ما يزيد عن ستين بحثا ودراسة ومقالة نقدية وعرب، فضلا عن عدة رسائل ماجستير.

لم يفه بكلمة وهو يلج البيت، بقامته المديدة العصلاء. يطرف بأجفان غادرها البريق! ويغتصب ابتسامة شاحبة يرشها فوق وجوههم المريضة بالانتظار واليباس، في الصباح أوقع في نفوسهم بأنه سوف يأتي اليوم بالكثير من الطعام. إلا أنه عاد بكفين خاليتين. وانتظر أن يبدأ الغناء، بيد أن أحداً من الصغار لم يفعل، فتناول إناء معدنياً، ونقر عليه، ثم أتبع ذلك، أنينا محشرجاً ومهّد بصفير طويل عميق يوقّع لحناً مما يتعاطون إنشاده كل يوم. فأعنقوا وفغروا أفواههم.

كانت عيناه تمتصان أسى الصغار وتذيبانه في وهج الصفير، الذي أفغم المكان، واقتحم قشرة التحمل الرهيفة التي ضربها الجوع حول محاجرهم. ثم طوّف روح جائر في الارجاء، بينما ظلت القدور والأواني والكؤوس في أماكنها نظيفة مجلوة تستدر اللعاب. وآلت أوراق الزهور التي قام بجمعها من الحدائق العامة في أوقات سابقة، إلى نثار باهت أبلس من ألوانه. لكن النقر والصفير استمرا رغم كل شيء. جعلا يطوفان حول مسامع الصغار، ويدغدغان شهيتهم لكنهم كانوا يتضورون جوعاً، ولم يفقد الأمل في أن يراهم وقد بدأوا بالغناء، بين لحظة وأخرى.

لذلك ظل يصفر محتملاً وخزات الزفير الجاف لشفتيه وباطن حلقه. بيد أن أحداً لم يفتح فمه. لقد سد اللعاب الصمغي المتخثر مسالك الصوت، وقلحت أسنانهم بالعصارة الصفراء المتحلّبة عن تهوع الأمعاء الخاوية !

شخصية الطفل
بين المكان الأليف والمكان المعادي
قراءة في قصة "الطائر ذو الرأس الأصفر" لعمار الناجي

محسن ناصر الكناني

معلم متقاعد، مواليد 1947 واسط/ قضاء الحي، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، أصدر: اللامبالي ـ مجموعة قصصية ـ بغداد 1968، تلك الليالي ـ مجموعة قصصية ـ بغداد 2000، سحر القصة والحكاية ـ دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب 2000، حنجرة العندليب ـ مجموعة قصصية ـ بغداد 2008، الديكة تهزم الملوك ـ قصص للاطفال 2008.

ينفتح النص على مشهد استهلالي، يقع حدثه في الصف. ويمكن إيراد نموذج من المشهد الاستهلالي (المكون من 75 كلمة بينها 16 فعلا) لقراءته، والتقرب من لغته السردية، وثيمته الأساسية، وتفحص بنيته السردية، وتأثير المكان على حركة شخصياته.

المشهد الاستهلالي:

(حدث اضطراب غير مسبوق في أروقة المدرسة، وبدأ التوتر واضحا على أستاذ اللغة الانكليزية، الذي لم يكمل الدرس، واسقط من يده قالب الطباشير، وسحقه بحذائه كمن يسحق عقب سيجارة).

دخل معاون المدير وبيده قائمة أسماء، يصطحبه مرافق، يصوب نظرات لا تبعث على الارتياح، تلى أسماء بعض الطلاب، وأمرهم بالتوجه إلى حجرة الإدارة مع حقائبهم، حدث بعض اللغط، لكن بعض الصبية وأستاذ الانكليزية الذي أضنته المحاولة اليائسة في إخفاء صرير أسنانه، تراسلوا بلغة العيون رسائل مغزاها، أنهم دخلوا الدوامة من جديد).

من قراءة المشهد، نلاحظ كيف تحول المكان الأليف (الذي يمثل مكان العلم والتربية) إلى مكان معاد طارد للتلاميذ، فالاضطراب غير المسبوق في أروقة المدرسة، ظهر تأثيره في الصف، وامتد إلى أروقة المدرسة، وفي الشارع والبيوت، مرسلا (رسائل مغزاها أنهم دخلوا الدوامة ! من جديد) والدوامة هي فعل التهجير. يعني أن الصف، والمدرسة، والشارع، والبيوت، تحولت من أمكنة أليفة تشعر الإنسان بالأمان والطمأنينة، إلى أماكن معادية، طاردة، باعثة على الاضطراب، فالاضطراب في الصف، ظهر أثره جليا على المدرس، (الذي لم يكمل درسه واسقط من يده قالب

الطباشير، وسحقه بيده كمن يسحق عقب سيجارة، وتصاعد اللغط بعد استدعاء معاون المدير يصطحبه مرافق يصوب نظرات لا تبعث على الارتياح، وأمرهم بالتوجه إلى حجرة الإدارة مع حقائبهم(.
هذه الأفعال الساندة من قبل المعاون ومرافقه، عززت الفعل التدميري، الساند لفعل التهجير، إذ تحول المكان الأليف إلى مكان معاد، وظهور شخصيات ساندة (المعاون- المرافق- السلطة)، بالضد من الشخصيات الأخرى (الطلاب) تركت أثرها على الطلاب، حركتهم، وأفعالهم، في الصف والرواق.....، مما ينذر بحدوث الدوامة، (فعل السلطة).
يعني أن البنية الصيانية، ظهرت في صراع، وتصاعد، وانعكست في شعور الصبي، ونفسيته، وامتد أثره في مجموعة الصبيان والجدة وإلام.
أول التلاميذ الذين تأثروا، هو الصبي أكرم الذي (انطلق مع صوت الجرس، ممتطيا صهوة غضبه، مسرعا يجتاز الممرات والسلالم، وبقفزة تلتها أخرى، كان خارج سياج المدرسة).
هذا الاضطراب الكبير، وتحول المكان الأليف إلى مكان معاد، طارد، ظهر جليا في سلوك الشخصيات، وتحولهم من شخصيات صيانية إلى شخصيات تدميرية تهدم ما بنت بصمت، يؤذن بقيام عاصفة، وفعلا وقعت العاصفة.
يمكننا القول، إن البنية الصيانية قد انهزمت أمام البنية التدميرية، تجلت في نسيج النص ولغته، وشخصياته.
البنية الصيانية: تمثل بالشخصيات المحورية الفاعلة في النص، (الصبي أكرم، صديقه امجد، المدرس، إلام، الجدة، مجموعة الطلبة). يقابله البنية التدميرية: تمثل بـ (المعاون، المرافق، والسلطة). وقد لعب الصبي، دورا محوريا، إذ ظهر شخصية فاعلة، مركبة، من خلال فعله، وتحريكه لجموع الطلاب في الشارع إلى نهاية النص (عاد إلى الشارع، رغم ممانعة أمه الشديدة، اجتمع ما تبقى منهم عند ناصية الشارع، تحدثوا عن الآخرين، وكيف أخذوهم، لكن نبرة التمرد كانت تقودهم وتمنحهم طاقة خفية، توشك على الانفجار، ومن غير اتفاق مسبق، أخذتهم جهة (الموكب) الذي بذلوا فيه مع أصدقائهم الغائبين، جهدا لا يستهان به، وبحركة موحدة، راحت الأيدي التي (بنت) وهي مزهوة، (تهدم) الأعواد المهلهلة، بصمت، كأنه الذي يلي العاصفة.
حاولت أن اربط المشهد الاستهلالي بالنهاية، لأثبت حجم، ودور شخصية الطفل "أكرم"، كشخصية محورية، لها ثقلها الكبير في الإحداث.
وثمة ظاهرة أخرى، عززت من نسيج النص، هي استخدام القاص، للجملة الفعلية، فمن مجموع (75 كلمة) نجد 16 فعلا، في المشهد الاستهلالي، وهذا يدلل على سرعة الحركة، والإيقاع الخارجي، اضطراب وحركة شخصية الطفل "أكرم"، وتأثيرها على الشارع وحركة الصبيان. وبرز في النص، تقنية البناء الأفقي، فالأحداث تقع في الصف، وتمتد إلى الشارع، والبيوت، بحيث لا تدع للشخصيات أن (تحلم أو تتأمل). وغاب الخيال، والصور الخلفية، وحضر الاضطراب، قويا، بحيث لم يستطع الناس (لملمة) حاجياتها، بل تركت (مبعثرة) في البيوت.
لكن الصبي"أكرم"، الذي ارتبط بـ (الطائر ذو الرأس الأصفر)، يعود إلى صديقه "امجد"، يغافل أمه، في القسم الثاني من القصة (الذي يحتوي على أكثر من

ثلاثين سطرا، بـ 415 كلمة)، هذا القسم، يمثل انطلاقة كبرى في الشخصية، وقوة ارتباطها بالخيال، (إذ دفعه فضوله إلى زاوية برج الحمام، وراح يتأمل الحمامات، وذهب بخياله إلى حدث ترسخ عنده، هو مغامرة مسكه الطائر ذا الرأس الأصفر، في مغامرة خطرة وشاقة، ويمكن الرجوع إلى النص الذي تميز بلغة الخيال،، والوصف والارتباط بالطبيعة، وبدأ النص يخط لغة جديدة، لغة سردية واقعية وجملة صورية، مكثفة، تقترب من لغة الشعر، واستطاع في النهاية، تحرير الطائر، وهو ينم عن رفض الصبي للقيود والأقفاص المكبلة لحركة الطائر، ومحاولة تحريره في النهاية.

في تركيزه على قيمة الحرية، من خلال تحرير الطائر، يعني ان الطفل، قد وجد نفسه في المكان الأليف، فاندماجه في مغامرته الناجحة في اصطياد الطائر، تعني ان المكان الأليف، يوسع من الخيال، واستطاع القاص أن يمد النص بدم جديد، دم جملة الصورة السردية – الشعرية.

وأخيرا، ماذا أضافت شخصية الطفل لنص يقوم على ثيمة القمع، ويعيش في مكان معاد، وشخصيات ساندة للفعل التدميري، تحول الطفل من شخصية صيانية، إلى ىشخصية تدميرية، إذ قادته نبرة التمرد، فاتجه مع جماعته إلى جهة "الموكب"، وبحركة موحدة راحت الأيدي التي "بنت" وهي مزهوة "تهدم" الأعواد المهلهلة بصمت كأنه الذي يلي العاصفة..

(الموكب) بأعواده المهلهلة، هدم، وسقط أمام جماعة التمرد!

يعني أنهم قد هدموا (المقدس) الذي لم يستطع حمايتهم في أوقات الضيق.

الطائر ذو الرأس الأصفر

عمار الناجي

موظف في وزارة الصحة، مواليد 1969 واسط/ قضاء الحي، أصدر: ثنائيات ـ مجموعة قصصية مشتركة 2011، دراين فيلية ـ مجموعة قصصية ـ شبكة الإعلام العراقي 2013، سوزلي ـ رواية ـ دار ميزوبوتاميا 2016.
له قيد الطبع: ثلاث نساء . . ثلاث سكاكين ـ مجموعة قصصية.

حدث اضطراب غير مسبوق في أروقة المدرسة، وبدا التوتر واضحا على أستاذ اللغة الانكليزية الذي لم يكمل الدرس، وأسقط من يده قالب الطباشير وسحقه بحذائه كمن يسحق عقب (سيجارة).

دخل معاون المدير وبيده قائمة أسماء، يصطحب مرافقا، يصوب نظرات لا تبعث على الارتياح، تلى أسماء بعض الطلبة وأمرهم بالتوجه إلى حجرة الإدارة مع حقائبهم ، حدث بعض اللغط، لكن بعض الصبية وأستاذ الانكليزية الذي أضنته المحاولة اليائسة في إخفاء صرير أسنانه، تراسلوا بلغة العيون، رسائل مغزاها أنهم دخلوا الدوامة من جديد.

انطلق أكرم مع صوت الجرس، ممتطيا صهوة غضبه مسرعا يجتاز الممرات والسلالم، وبقفزة تلتها أخرى كان خارج سياج المدرسة. بقبضتيه المضغوطتين بكل قوة ممكنة تمنى أن يحطم شيئا ما، ربما وجه ذلك الشخص الذي اخذ بعضا من زملائه وحشرهم في سيارة (الأمن)، كان الهمس بين الطلاب يحمل رائحة التهجير من جديد ، تذكر عبارة عمّه بعد إن استمع إلى نشرة الأخبار "إنهم يضمرون لنا شرا".

ومضت بخاطره حادثة تحطم زجاجة اللبن بين يديه ظهيرة أمس وصوت جدته يكرر:)اسم الله.. اسم الله..... إن شاء الله خير... غدا شرها..... غدا شرها...).

لم يفهم لحظتها تلك النظرات الغامضة الفزعة التي تبادلتها أمه وجدّته وبقعة اللبن المندلقة على الأرضية.

تلامع الزغب الذهبي من فوق علبته البيضاء، تحت شعاع الشمس المخاتلة لغيوم نيسان الرمادية الهابطة، شعر بأنفاسه المتسارعة تحز رئتيه، توقف عند التقاطع المؤدي إلى بيتهم، وألم حاد يطعن خاصرته، التفت إلى الخربة التي نصبوا فيها أعوادهم، إحساس غير مريح انتابه، وامحت تلك الطمأنينة التي كانت تلفهم جميعا وهم يشيدون صرحهم، من الأعمدة والخرق البالية، وكل ما جادت به خلفيات منازلهم، من أشياء نصف مستهلكة تصلح أن توضع في (موكبهم)، الذي سيحيون تحت سقفه الليالي العشر من محرم، وليلة عاشوراء التي يحيونها تحت سقفه حتى الصباح، مختبرين قوة إرادتهم

التي كثيرا ما تنهار في البقاء يقظين حتى الصباح، بسبب النعاس ودخان السجائر التي تخدرهم بدل أن تبقيهم بصحو كما يتوهمون.

لم يشأ أن يصدق انه لن يرى أصدقاءه مجددا، ولم يعرف ماذا يفعل، أخيرا وجد نفسه يتوسط ناصية التقاطع، بين أربعة شوارع، شارع المدرسة حيث عاد وشارع مركز الشرطة حيث أودع أصدقاؤه، وشارع (موكبهم) وشارع البيت. فز لمنبه سيارة الأمن (اللاند كروزر) البيضاء التي لا تخفى على احد، تبعتها سيارة الشرطة الـ (بيك آب) الخضراء التي يطلق الناس عليها تندرا (العلوية) محملة في الخلف صبية وأطفالا ونساء ورجلا شيخا، انهم عائلة أمجد (أبو راس الأصفر) كما كانوا يلقبونه. كان الرجل مطرقا واجما كأنه تمثال حشر في زاوية قبو مظلم، بينما الصبية والأطفال كانوا مسرورين مرحين وكأنهم في نزهة، والآخرون المركونون في المقعد الخلفي لسيارة الأمن البيضاء هم أخوته الكبار. ترى لماذا عزلوهم!؟.

ارتاب لمرأى بابهم موصدا على غير العادة، فتحت أمه الباب، على اثر طرقاته العنيفة العجولة، أول ما رأته قالت:

"الحمد لله انك أتيت... تعال وساعدني".

كانت الفوضى تملأ البيت، الكل مسرع في حركته وفي حيرة من أمره، كأن البيت سينهار وعليهم أن يقرروا بأسرع ما يمكن ما الذي يستحق إنقاذه أولاً وما الذي يترك.

غافل أمه التي منعت الخروج لأي سبب كان وصعد إلى سطح البيت، وبقفزة تلتها أخرى كانت السطوح المتلاصقة الهابطة لمنازل جيرانه وأصدقائه خالية أمام عينيه، نزل سلالم بيت صديقه أمجد (أبو راس الأصفر) الذي كان يشاركه المقعد نفسه، قبل أن يأخذه رجل الأمن، اتجه إلى برج الحمام، شاهد الفوضى تعم المكان، أبواب مشرعة، ملابس متناثرة، طعام لما ينضج بعد، في القدور المفجوعة، أوراق مبعثرة في كل مكان، صوت تدفق الماء من صنبور الحمام. دفعه فضوله للبحث في الخزنات الخشبية، راودته خيالات شبقة، تبخرت حين سمع تكسر زجاج تحت قدمه، رفعه والتقط من تحته صورة صديقه وقد شوهت ابتسامته الماكرة بفعل تكسر الزجاج والغبار، شعر بخجل مرير من نفسه، من رغباته المحمومة، من نظراته المختلسة، لكن من يستطيع أن يقاوم إطلالة (هدى) وسحر جسدها النافر شهوة، حين تخرج من الحمام وقطرات الماء تنزل من شعرها متسللة إلى الأسفل في ذلك العالم السري الذي يحرق الخيال ولا يطفئه.

هرب خارجا باتجاه السلم لكنه لمح برج الطيور أسفلا منه، حشر نفسه في البرج، وراح يتأمل الحمامات المنشغلة بهمومها الصغيرة، كم تمنى أن تكون له مجموعة مثلها، انتبه إلى الطائر (ذو الرأس الأصفر) كما كان امجد يحب أن يسميه، مسكه ونظر في عينيه طويلا، تذكر يوم مسكاه سويا، كان طائرا غريبا، والكل على الأسطح يستخدم أساليبه الخاصة للإيقاع به، لكن الطائر الغريب أبى إلا التحليق عاليا، وذهبت هباءً كل محاولاتهم وخدعهم، واستسلم الجميع وبالتدريج لحقيقة عجزهم أمام هذا الطائر العنيد، مشفقين على أنفسهم لما عانوه من جهد وما كابدوه من غضب أمهاتهم.

كان الوقت غروبا حين لمح الطائر مختبئا داخل برج مدخنتهم، متأهبا يتلفت حذرا، لكن من يصعد إليه!؟، وكيف السبيل إلى الإمساك به؟ وهو في مكان يستحيل الوصول

إليه، إلا عن طريق التسلق من خارج البيت إلى أعلى الطابق الثاني، وهي محاولة خطرة وشاقة، لكن ليس على امجد الذي ينافس القطط بخفة حركته، فلطالما أوقع بهن وهن خادرات في أعالي الأسطح. اجتمع حشد كبير من الصبية والأطفال وبعض المارة، يراقبون بقلق مكبوت عملية الإمساك التي توقعوا لها الفشل، فزّ الطائر حين اقترب منه امجد وكذلك قلوب الحاضرين. سكن الجميع وحبس أنفاسه، احدهم حاول الصياح لإفشال العملية، لكنه فوجئ بيد متصلبة تطبق على فمه، مضت لحظات سكن بعدها الطائر، نظر امجد للأسفل، وبغمزة من عين أكرم انطلقت كفه للأعلى ولطمت الطائر الساكن بين فتحات المدخنة، ليسقط إثرها إلى الداخل وليزداد الموقف تعقيدا.

عليه الآن إقناع أمه للدخول في ذلك الثقب المسود بالسخام، لكن حيلة الساعة الجديدة التي سقطت من ساعد امجد وهو يحاول إمساك الطائر، كانت كفيلة بان تفلّ سلاسل الممانعة لديها، كم كان المنظر مضحكا، حين خرج امجد عريانا إلا من السخام، وبيده الطائر المسكين، متحيرا فقد لوّث السخام هيبة ألوانه النقية، وابتسامة كبيرة بالنصر شقت وجهه إلى نصفين.

.... فرد أكرم أجنحة الطائر، وأزال الدبابيس التي شبكت ريشاته. خرج به إلى الفناء وأطلقه بهدوء إلى الأرض، تلفت الطائر يمينا ويسارا وصفق بجناحيه كأنه يتأكد من تحررهما، أمال رأسه متفحصا السماء الملبدة بالغيوم، تريث قليلا كأنه غير مصدق، وبدفعة واحدة انطلق صعودا حتى تلاشى وراء غيومها ولم يعد يرى. بعد ذلك أطعم الطيور، وملأ صحن الماء، ثم عاد إلى الشارع رغم ممانعة أمه الشديدة.

اجتمع ما تبقى منهم عند ناصية الشارع، تحدثوا عن الآخرين وكيف أخذوهم، لكن نبرة التمرد كانت تقودهم وتمنحهم طاقة خفية توشك على الانفجار، ومن غير اتفاق مسبق، أخذتهم جهة (الموكب) الذي بذلوا فيه مع أصدقائهم الغائبين جهدا لا يستهان به، وبحركة موحدة راحت الأيدي التي بنت وهي مزهوة، تهدم الأعواد المهلهلة بصمت كأنه الذي يلي العاصفة.

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

بمناسبة مرور 400 عام على وفاته
شكسبير من وجهة نظر ماركسية

لا يوجد شكسبير واحد. يوجد لدينا فتى ستراتفورد الذي تبقى حياته الشخصية مجهولة نسبيا برغم السير العديدة، وبالنتيجة يبقى السؤال هل يمكن لهذا النكرة أن يكون هو الكاتب المسرحي والشاعر الذي عُدّ إنجازه بمثابة قمة إيفرست الأدب، ولو كومنا مطبوعاته لكانت جبلا من الكتب. يوجد لدينا أيضا الكاتب الذي تنظر المؤسسات التعليمية الى نصوصه بوصفها امتحانا ضروريا يغذي أجيال الأطفال الذين لن يتمنوا غالبا قراءتها أو مشاهدتها على المسرح... موطنه الطبيعي والأساسي. ثم يوجد لدينا الأيقونة الوطنية الذي يمكن لاسمه أن يحرك المشاعر الوطنية وقت الحاجة. وفي كل حال يبقى قاموسه الهائل والإبداعي وشعره حيّين في مجرى دم اللغة. يمكن له أن يكون ملائما حتى للحديث في الحياة اليومية بحيث أن الكولونيل (تيم كولنز) سعى الى إثارة حماس جنوده قبيل معركة الكويت بحديثه عن "عصبة أخوة"، وذلك الرقيب من المارينز الذي تمثل بقول هاملت "تخلص من هذه الفوضى الفانية" قبل أن يجهز على الأسير الأفغاني الجريح. لقد استحوذت المسرحيات على المخيلة وخاطبت الاجيال في المسرح، وفي السينما، على مدى السنوات الأربعمائة المنصرمة منذ أن مات، وقد حاولت كتب كثيرة أن تجيب على سؤال لماذا تحظى أعمال شكسبير بهذا الاهتمام؟

حلل المختصون في الأدب شعره وشخصياته، فيما استكشف المخرجون والممثلون أبعادها المسرحية والثيمية على كل أنواع المسارح من قاعات القرى الى المسرح الوطني ومسرح شكسبير الملكي، ومهما عنت الأعمال في العصور القديمة، وكيفما أخرجت، سواء أخرجت بشكل هزلي في القرن السابع عشر أو أخرجت الى جانب الأعمال الإيمائية وفعاليات السيرك في القرن التاسع عشر، فقد كانت مرتبطة بفطنةٍ خاصة بعالمنا الحديث المضطرب.

إن فكتور كيرنان (1913-2009) واحد من أفراد تلك المجموعة البارزة من المؤرخين الماركسيين أمثال (إريك هبزبوم) و(إد

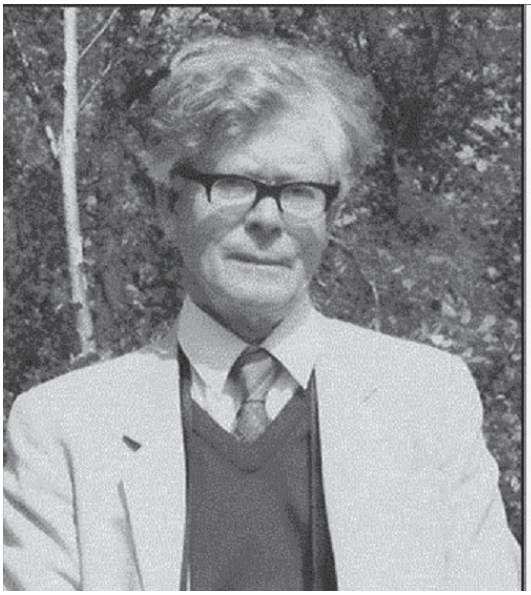

المؤرخ فيكتور كيرنان وصورة غلاف كتابه (شكسبير الشاعر والمواطن)

تومبسون) وقد قضى خمسين عاما في دراسة القرن السادس عشر الذي يشترك مع عصرنا هذا بأزمة هي خاصية من خصائص التحول الجذري. في ذلك العصر كانت الحركة من الإقطاعية الى الرأسمالية تمتحن كل عنصر من عناصر الحياة فيما كانت شيفرات السلوك والأخلاقيات والقوة الطبقية والإقتصادية تدخل مرحلة تغيرات بنيوية. لا يمكن إلا لقلة منا نكران أن عالمنا اليوم يدخل تقلبات تقوده من ما بعد الرأسمالية الى مستقبل مجهول، وقد كانت ثمرة بحث كيرنان المستقصي كتابه الذي صدرت طبعته الأولى عام 1993 بعنوان (شاعر ومواطن)، وكان عند صدوره في الثمانين من عمره، وأعيد طبعه الآن بمناسبة مرور 400 عام على وفاة شكسبير.

إن معرفته المفصلة بالمسرحيات وبالمرحلة التي خرجت من رحمها تمنح مصداقية عظيمة لتحليله للقوى التي تفعل فعلها في هذه المسرحيات. إنه يغطي جميع الأعمال حتى السوناتات والكوميديات ولكن تحليله للتواريخ مركزي. مفهوم أن كيرنان بوصفه مؤرخا مهتم بشكسبير المواطن أكثر من اهتمامه بشكسبير الشاعر، ويؤمن بأن "كل النقاد الجيدين مؤرخون" لا يمكنهم فصل الأدب عن العالم الاجتماعي–السياسي الذي أثمره. إذا كان يؤمن بأن السونيتات لم تكن لتحظى بهذا الكم من القراءات لو كان كاتبها غير شكسبير فإنه يجدها أكثر إثارة للإهتمام في تضميناتها الإجتماعية والسياسية، وكمثال على هذا التوظيف المجازي لمفردة "lease" التي تعني "الإيجار أو مدته" في السطر "إيجار الصيف قصير المدة" والتي تذكرنا حسب قول كيرنان بأن "الإيجارات قصيرة الأمد كانت آنذاك سلاحا بأيدي المالكين

الذين كانوا منشغلين بطرد المستأجرين الفائضين عن الحاجة". يؤكد كيرنان بأن "شكسبير خلبت لبّه الأحداث السياسية للعصر السابق لعصره منذ البداية بشكل جلي بحيث يصعب علينا أن نتصور أنه لم يكن مهتما بأحداث عصره السياسية".

وضع كيرنان نصف مسرحيات شكسبير ضمن سياقها التاريخي، بضمنها التراجيديات العظيمة التي حللها بعمق في كتابه (ثماني تراجيديات لشكسبير)، وأمسك تحليله المركزي لدورات التاريخ الانكليزي على مساحة القرنين الرابع عشر والخامس عشر من فوران أهلي خلال حكمي ريتشارد الثاني وريتشارد الثالث، أمسك هذا التحليل بجوهر فهم شكسبير الغريزي للقوى الفاعلة في السلطة والسياسات الشخصية، القوى التي تبرز في أعماله كلها.

إن مسرحيات شكسبير "تمنح إطارا إنسانيا لموجات من التغير غير شخصية". لكن كما يصيغها كيرنان "كل شاعر أصيل معلم"، وشكسبير بالنسبة الى جمهوره الحديث يعكس صورة درامية عن الماضي "لكي نفهم الحاضر بشكل أفضل ونستشرف المستقبل على نحو أصوب".

غوردنبارسونس/ جريدة "مورننغ ستار" البريطانية الاشتراكية

الكتاب:

SHAKESPEARE POET AND CITIZEN
BY VICTOR GORDONKIERNAN

منظور شكسبير للتاريخ في مسرحية ريتشارد الثالث

(إن شتاء كدرنا الآن/ قد تبدل صيفاً بهياً بشمس يورك هذه...)

هكذا تبدأ مناجاة دوق كلوسيستر لنفسه وكان قد أصبح لتوه ملكاً بإسم ريتشارد. هنا يلاحظ القارئ بعض خواص لغة شكسبير، المجاز ولعبة الألفاظ والمعاني مثل شمس/ إبن(sun/son). يقدم كلوسيستر نفسه خلال حديثه بوصفه مشوها، قبيحا، غير منتظم الجسم، ويقول: "أنا أقبح من أن أكون محبا فقررت أن أكون شريرا"، وفي الواقع لقد تم اكتشاف جثة ريتشارد الثالث عام 2012 وفُحص الهيكل العظمي فتبين وجود انحراف في العمود الفقري كما تصوره الشعب الانكليزي خلال أربعة قرون بفضل شكسبير. ألف شكسبير مسرحية (ريتشارد الثالث) مبكرا وربما كانت هي المسرحية الأولى التي استشعر فيها قدراته. هنا نتعرف على المؤلف وهو يلقي علينا بلاغة مُقْنعة، ونشهد أول المظاهر لشخصية مركزية تتلاعب بالشخصيات الأخرى كما لو كانت تدير المسرحية. برغم أن هذه المسرحية تمثل مستقلة فإنها في الحقيقة جزء من رباعية (حرب الوردتين).

ينتسب ريتشارد الى عائلة يورك الكبيرة، الوردة البيضاء، وخلال المسرحية يحاول أن يكون ملكا بتصفيته لمنافسيه من آل يورك (بما فيهم شقيقه وأبناء شقيقه الصغار)، وأفراد عائلة لانكستر، الوردة الحمراء. مع أن كلوسيستر ينتصر في هذا الصراع ويصبح ريتشارد الثالث ولكن المسرحية تنتهي باعتلاء هنري السابع للعرش الذي يوحد العائلتين. هكذا يبتدع شكسبير نوعا جديدا هو نوع المسرحيات

(كيفن سبيسي) بدور ريتشارد الثالث

التاريخية جنبا الى جنب مع تراجيدياته وكوميدياته. تاريخ البلاد منظورا من خلال عدسة التراجيديا. يستطيع ريتشارد تصفية أعدائه ولكن أعداء جددا يظهرون له وينتهي به المطاف أن يصرخ وهو محاط بأشباحه: "حصان! حصان! أتنازل عن مملكتي كلها مقابل حصان" ليهرب به، ولكن النهاية حلت ولا نجاة.

اعتمد شكسبير على مصادر تاريخية مطبوعة ولكن ما فعله هو مقابلة مفهومين للتاريخ، قديم وحديث، في القديم تكون الإرادة الإلهية هي المتجلية في النبوءات واللعنات وفي أحلام اليأس كالذي راود ريتشارد قبل المعركة، وفي المفهوم الحديث يكون مكيافيللي هو السائد حيث لا عالم إلهيا أو خارق للطبيعة فوق عالمنا أو تحته، وريتشارد هو مكيافيللي، وإذا كان يشكل فردا من سلسلة من الشخصيات الشريرة التراجيدية التي جعلت الشر جذابا، ويعكس بعضا من تراث المسرح الديني، فإنه يجسد التفسير الحديث للسلوك فهو قد شهد مقتل أبيه وأخيه الأصغر خلال طفولته، وكانت أمه تكرهه دائما. يمكننا أيضا أن نقول أنه يمتلك العديد من خصائص مؤلفه، يتحدث بلغة شعرية مليئة بالمجاز، ويؤمن بالسلطة الهائلة للأحلام المسرحية. لم يكن لقاتل أو طاغية أبدا هذا السحر فوق خشبة المسرح في عصر إليزابيث، سحر يأسر حتى (الليدي آن) التي قتل أباها وزوجها الحبيب. في الوقت نفسه فإن شكسبير يجعلنا نرى فيه، برغم براعته في التدبير، شخصا فارغا، أجوف.

لقد اجتذبت هذه الشخصية نجوم التمثيل في السينما الأنكلو- سكسونية من لورنس أوليفييه الى آل باشينو في فيلمه (بحثا عن ريتشارد)، والمسرحية نفسها لقيت إقبالا في زمن شكسبير كمسرحية "روميو وجولييت" ومسرحية هاملت"، ولقد صمم شكسبير الدور خصيصا لممثله الرئيس (ريتشارد بربيج) في العام 1591 تقريبا.

نيل فورسيث/مجلة لو تون (الزمان) السويسرية

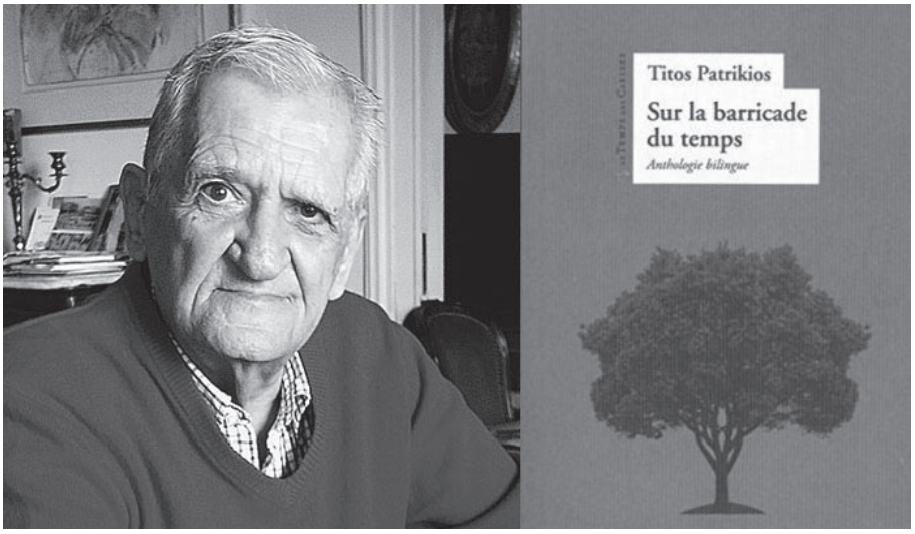

شعر:

الشاعر اليوناني تيتوس باتريكيوس على متاريس الزمن

"لا تأتِ بعد الى كوخي إن لم تكن تحمل قصيدةَ. ألم تفهم أن الشعر هو قدرك؟"

استلم الشاعر اليوناني تيتوس باتريكيوس في المركز الوطني للكتاب جائزة ماكس- جاكوب للكتاب الاجنبي عن مختارات من شعره (على متراس الزمن). نعود بالزمن الى العام 1952 حيث لا يزال الناس في اليونان يعيشون إضطرابات الحرب الأهلية برغم أنها إنتهت رسميا عام 1949. تم اعتقال الشاعرين يانيس ريتسوس ورفيقه تيتوس باتريكيوس وإرسالهما الى جزيرة يُسجن فيها الشيوعيون والجنود غير المرغوب فيهم. يقول باتريكيوس بأن "ريتسوس قد لعب دور الأستاذ بالنسبة الى مجموعة الكتاب الشباب التي كنت احد أفرادها، وقد ساعدنا بالاستماع الى معاناتنا وقراءة مخطوطاتنا وإبداء النصح لنا". إن المقاومة شعرية بقدر ما هي سياسية كما تثبت المختارات ثنائية اللغة (باليونانية وترجمتها الفرنسية- م) لهذا الشاعر الثمانيني والتي ترجمت بمثابة "تحية لهذا الشاعر الراوي لتاريخ اليونان الحديث". يقول باتريكيوس في هذا المقطع الذي يبلور طموحه الشعري: "لن أكتب بعد/ ليكون الورق بديلا عن البنادق/ أحاديث ثرثارة وجوفاء/ بل لإخراج الحقيقة من ركنها/ لإلقاء شيء من الضوء على حياتنا المنتحلة".

يلعب الضوء مع الظلال، ومض بين الأنقاض، وسط المناخ الخانق الذي فرضته الطغمة العسكرية والصراعات الداخلية من جانب ومقاومة جبهة التحرير الوطنية اليونانية من جانب آخر:

"لا نملك شيئا/ لقد سرقوا منا كل شئ/ ولم يبق إلا الطين في الفم/ نحن مكسوون بجلد رقيق/ يتمزق بسهولة/..."، و"كل ما مررت به/ يعطيني الحق بأن أسقط مجنونا". هنا التاريخ يحترق تحت كل قصيدة: "في الزنزانة المظلمة/ كنت أتوق لأن أعانق شجرة، أي شيء حي/ تغوص نظراتي في الجدران الرطبة/ في وداعات يائسة، في أسماء المعدومين/ المحفورة في الملاط". مع ذلك ما دامت "الطبيعة تبدأ بي/ لن يستطيع الحراس سلبي أي شيء".

يصور باتريكيوس حالة المرأة التي كانت تقف على رصيف الميناء تترقب عودة زوجها المرحّل: "رأته يوما يخرج من القارب/ كان هو الأخير، مترددا، ويضم بقوة اليه/ حقيبته وكيسا كما لو كانا طفلين/ عندها شعرت فجأة أنها لم تكن تحبه/ وستعيش بقية حياتها مع شخص آخر". يرسم لنا شعر 1957 لقاءات صعبة مع الواقع بـ "الشعر الذي يهدد النظام القائم" لأن الثورة لم تمت فـ "الأحداث لم تختف/ بل غُطيت لا أكثر/ مثل سكك حديد مدفونة في الإسفلت"، ويصور يونانه الحبيبة "وحيدة، منسية" تتسكع "بشعرها المحلول/ تبيع الزهور في الحانات الليلية". برغم كل شيء فاليونان ستبقى: "لا تنين.. تتجددين/ وسط صخب الحرية/ وينبثق جسدك ماثلا بكامله/ كما لو كان خارجا من الأمواج للتو".

المختارات:

Barricade du temps, par Titos-Patrikios. Le Temps des cerises, 360 pages

• نيكولاس دوتون/ جريدة لومانتيه (الإنسانية) الفرنسية

سرد:

رواية (بعد الصمت)... شاهدة على قبر عمالي

تبدأ رواية الكاتب ديديه كاستينو (مواليد 1966) بحدث عادة ما تنتهي به روايات أخرى، بموت الشخصية الرئيسية، العامل لويس كاتيلا البالغ من العمر 43 عاما، مسحوقا تحت سبعة أطنان من الفولاذ المصهور يوم 16 تموز 1974. نسمع في القسم الأكبر من هذه القصة صوت إبن هذا العامل الذي كان منذورا جسدا وروحا للمصنع الذي دخله عندما كان في الثالثة عشر من عمره. كان ممثلا نقابيا وشيوعيا ومؤمنا بالله، حتى أنه كان يقول "الله طليعة الطبقة العاملة"، ولم يكن هذا يروق بالضرورة لمن يحيطون به. هذا الرجل الوسيم والقوي يدرك تماما بأن المصنع "يلتهم كل شيء، إذا دخلته فلن تخرج منه بعد"، لا يحب

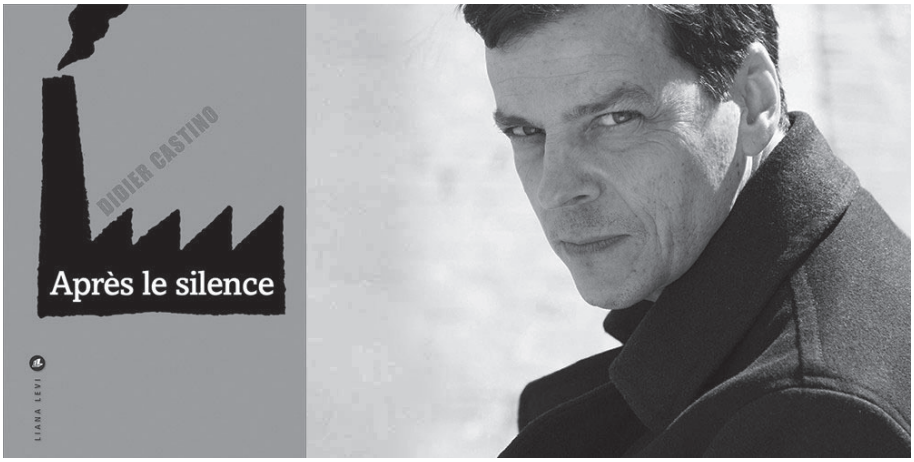

البرجوازية ويكره رب العمل، متزوج من روز وله منها ثلاثة أطفال عليه أن يطعمهم. يتحدث الأب الى ولده الثاني الذي كان عمره سبع سنوات وقت الحادث والذي سيأخذ دوره في الكلام فيما بعد راسما بمهارة ملامح تلك الفترة، نهاية السبعينيات، والعمال المحبطين بعد أن قضوا خمسة أسابيع وهم يحتلون المصانع عام 1968 ثم آلت جهودهم المضنية الى الفشل. إن المصنع ينهك الرجال جسديا وأخلاقيا، وقد خاضوا صراع أيار 1968 من أجل الإعتراف بهم والأمان لهم ولعوائلهم...تلك السنوات كانت أيضا سنوات الإجتماعات في البيوت، والملصقات، وسجائر الكولواز الأزرق، وجولات المغني جوني هاليداي، ورئاسة جيسكار ديستان.

إن ديديه كاستينو الذي يدرّس مادة الأدب في مارسيليا يكشف لنا، كلما توغلنا معه في الأحداث، أنه هو الإبن الذي أعاد خلق أبيه منذ البداية وتكلم بلسانه بعد صمت اختفائه. نادرة هي الكتب من هذا النوع الذي يجعلنا في مواجهة الحقيقة الاجتماعية، دون غموض، خلال مجرى الكتابة والتي لا تستثني الإحساس الجمعي وتذكرنا بمجموعة من الرجال والنساء المجروحين بالأمل وتحملنا على التعاطف معهم. يسرد كاستينو كما لو كان يؤدي واجب الابن نحو أبيه الذي يخاطبه قائلا: "تتحدث كما لو كنت تريدني أن أتحدث، لا يوجد شيء حقيقي فيما تروي، أشياء قليلة جدا. تخترع حياتنا، حياتي، حياتك، ولكن انظر الى هذا الموجود، الذي أمامك. كل شيء هناك. ما هو حقيقي هو الموت وما أنت عليه الآن". الميزة الثانية في الرواية هي انها تعيد الى الواجهة عالما اختفى طويلا عن الفن الروائي، هذا العالم المستعاد هو الحياة اليومية في المعامل والصراع الطبقي، عالم العمال وآمالهم.

الكتاب:

Après le silence,Didier Castino

ميشيل أبيسكا/ جريدة "لو فيغارو" الفرنسية

كتاب:

الرأسمالية... قصة أشباح

طبعت (أروناداتي روي) عام 2014 كتابا مهما إتخذ له مكانا بارزا بين كتبها المهمة الأخرى هو (الرأسمالية: قصة أشباح)، ومثل كتبها السابقة حُمّل هذا الكتاب بكلمات صريحة مباشرة ملؤها الإستياء من الظلم والتمييز وإساءة السلطة في شبه القارة الهندية. إن ما يطلع عليه القارئ عن مستوى التمييز الإقتصادي- الإجتماعي بأسلوب روي يعصر القلب، فأعمالها غير الأدبية لا تقل روعة عن تحفتها الأدبية (إله الأشياء الصغيرة) □صدرت سنة 1997 وفازت بجائزة البوكر والجدير بالذكر أن روي أعادت الى الحكومة الهندية جائزة فازت بها احتجاجا على قتل العلماء والمثقفين من قبل الرجعيين المتطرفين في ظل فشل الحكومة في حماية طليعة ونخبة المجتمع المثقفة وتواطؤ أحزاب ومؤسسات- م○، وعاطفتها نحو الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر عنصر ملازم لكل مطبوعاتها، وفي الوقت نفسه فإن موقفها الصارم ضد القمع يستحق الثناء.

إنها تبين أن الرأسمالية هي التي تركز الثروة بيد حفنة من الناس وتترك ملايين الناس العاديين تحت وطأة الفقر، بلايين الدولارات تدخل خزائن بضعة هنود فيما يتوجب على حشود هائلة من الناس أن يكدحوا الى آخر قطرة عرق ليحصلوا على وجبتي طعام لا أكثر، ووفقا لما تعرضه روي فإن حوالي ربع مليون فلاح يرزحون تحت الديون أقدموا على الإنتحار خلال السنوات القليلة الماضية ليتخلصوا من العذاب والمهانة لأنهم لم يوفقوا في تسديد ديونهم التي أخذوها من وكالات وملاكين، وهؤلاء الفلاحون لا يمثلون سوى جزء بسيط من ملايين أصبحوا بلا مأوى وملايين أخرى دمرت حياتهم مشاريع خاصة أو حكومية واضطروا الى العيش في العشوائيات في ضواحي المدن الكبرى بعد أن سلبت منهم أراضيهم. يأخذنا كتاب روي عبر "أشباح" الأنهار الجافة والغابات المجرّفة. يجري تجريف الغابات في الهند بإسم الخصخصة والتقدم، وهذا الهجوم على الموارد البيئية يؤدي الى كوارث، ولكن السلطات المعنية لا تعير التفاتا للأضرار التي تلحقها المنشآت بالغابات والتلال.

تطلعنا روي على تهديد آخر للهند هو حجز المواطنين دون تهم واضحة أو حتى معرّفة للمحتجزين، وتقول: "مئات الناس حبسوا بتهمة الإنتماء لمنظمة ماوية تحت قوانين وحشية غير ديمقراطية"، والسجون تغصّ بأناس ليست لديهم فكرة عن سبب احتجازهم، وتضرب مثلا بمعلمة من وسط الهند اعتقلت للتحقيق معها وعذبت لتعترف أنها ماوية تنقل رسائل التنظيم، ولم تتخذ الحكومة الهندية إجراء حتى عندما انكشف الأمر وتداولته وسائل الإعلام بل كرمت الضابط الذي تولى التحقيق معها.

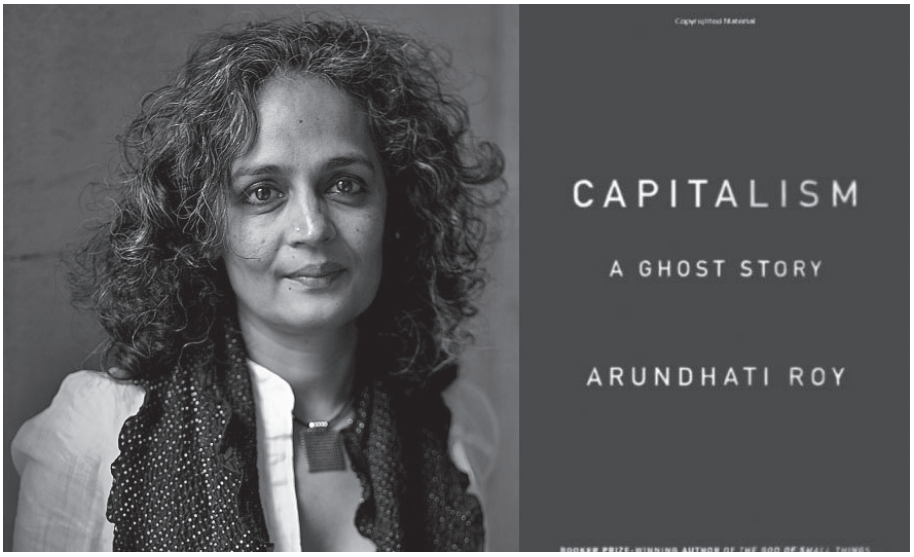

أروندااتي روي وكتابها (الرأسمالية... قصة أشباح)

توجد أمثلة أخرى في كتاب روي الآخر (الإصغاء الى الجندب).

تتطرق روي كذلك الى بعض السياسات الخارجية وتناقشها فهي مثلا لا تحبذ أن تلعب الهند دور الوسيط بين الولايات المتحدة والصين ولا أن يمسح صانعو السياسة الهنود على أكتاف أصحاب القرار في الحكومة الأميركية، وتستذكر الدور المشابه الذي لعبته باكستان في زمن الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وترى أنه يجب أن تكون لكل دولة قيمها الفردية ومبادئها التي تقرر سياساتها وحكمها ومسيرتها.

الكتاب:

Capitalism: a ghost story, Author: Arundhati Roy || Published in 2014 by Haymarket Books, USA, Total Pages: 128,

محفوظ الحسيب/ جريدة "ذي ديلي ستار" البنغالية التقدمية

سينما:

ثمار اليوسفي

عرض الفيلم الأستوني (ثمار اليوسفي Mandarines) أو (ليمون يوسف أفندي) في فرنسا اعتبارا من نيسان 2016. المخرج (زازا أورو شادزه) جيورجي، والممثلون أستونيون، وحرب أبخازيا بمثابة خلفية للقصة التي تداوي جروح الماضي المؤلمة. (ثمار اليوسفي) كما علق المنتج الأستوني إيفو فيلت عام 2015 غداة مراسيم الأوسكار حيث رشح الفيلم لجائزة أفضل فيلم أجنبي ورشح أيضا لنفس الجائزة في مهرجان غولدن غلوب، وهو الأول من عاصمة أستونيا (تالين): "فيلم يروي كيف تبقى إنسانا في ظرف صعب هو ظرف الحرب". يبدأ الفيلم مع انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1992، ويرفع الأبخاز الذين يسكنون ضمن جورجيا السلاح للإنفصال عنها، فيجد الأستونيون الساكنون هناك منذ 150 سنة أنفسهم محاصرين بالظروف الجديدة، ويفر الكثير منهم. في القرية المهجورة التي شكلت كادرا للفيلم لم يتبق غير إثنين... ماركوس الذي بقي ليجمع محصوله من اليوسفي، وإيفو النجار الذي كان يصنع الصناديق لجمع الثمار. تشاء أقدار الحرب، فيما كانت المعارك تشتد حول القرية، أن يعثر إيفو

على قوقازي جريح اسمه (أحمد) فيحمله ويخفيه في بيته، ويعثر ماركوس كذلك على جيورجي جريح أيضا تُرك ليموت في ميدان المعركة فيأخذه أيضا الى دار إيفو فيجتمع تحت سقف واحد جنديان جريحان من معسكرين متحاربين، ويتوجب على العجوزين أن يلعبا دور الوسيط بينهما. إن خاتمة الفيلم تؤكد على ان الإنسانية تتوصل دائما الى اختيار جانب التسامح والتصالح. فيلم مفيد ونبيل يرفع من قيمة السينما التي تدفع الإنسان الى التأمل المحب للسلام.

الممثل الأستوني المعروف جيدا في الإتحاد السوفييتي سابقا ليمبيت اولفساك (67 عاما) قال في مقابلة أنه ترك سيناريو الفيلم على الطاولة ولم يفتحه إلا بعد أشهر ولكنه ما أن قرأ منه عشر صفحات حتى أشعل سيجارة ليستطيع تمالك نفسه. يعلق الناقد الأستوني أهتو لوبجاكاس على تويتر مازحا: "هذا الفيلم جيد الى درجة يكاد المرء أن يقول معها أنه ليس أستونيا". وتقول الناقدة تينا لوك أن الإرث السوفييتي المشترك للأستونيين والجيورجيين قد لعب دورا في تصافي الأنفس، فرغم الإختلافات يشتركون بميول مشتركة وثقافة مشتركة موروثة من ماضيهم السوفييتي.

كاترينا كيسا/ مجلة كوريه أنترناسيونال (ساعي البريد الدولي) الفرنسية

هندسة معمارية:

فندق صديق للبيئة مبني وسط الصحراء

تكثر الأبنية غير الإعتيادية في الإمارات العربية المتحدة كالأبراج القريبة من السماء وممرات التزحلق والجزيرات العائمة. أطلقت مجموعة (إيكو ريسورت غروب) مشروعا سينفذه مكتب الهندسة المعمارية (بهاراش للعمارة) وهذا المشروع هو مجمع ذو استثناء بيئوي على شكل نجمة يحمل اسم (أوزيس إيكوريسورت) وسيقام في ليوة جنوب "أبو ظبي" ويكلف تقديرا 21 مليون دولار (18400000 يورو). في المجمع 84 غرفة لها ممشى خارجي ومفتوحة المنظر على الكثبان والأشجار حولها، وتحيط الغرف واحة ستكون بمثابة قلب المجمع. سيتوفر للزبائن كذلك قاعة للرياضة بتجهيزات ذات تقنية عالية. تبلغ مساحة الألواح الشمسية على السطح 157 ألف قدم مربع تزود المجمع باحتياجاته من الطاقة فيما يُسحب الماء من بئر عميقة، ويخطط المعماريون لإعادة تدوير المياه المستعملة لسقي المزروعات. يعتبر المصمم ان هذا هو المشروع الأكثر بيئوية

الذي نفذته المجموعة حيث ان السياحة التقليدية غير المسيطر عليها تؤدي الى مضار بالبيئة مثل التلوث وانجراف التربة وانقراض بعض أنواع النباتات والحيوانات، وسيساعد المشروع في التعريف بالقيم البيئوية بفضل برامج وتجارب تعليمية. يوجد في موقع العمل عالم بايولوجيا مختص بالحيوانات البرية وفريق محترفين سيسهرون على سلامة الحيوانات في المنطقة. من المتوقع أن يقدم المطعم والبار منتجات طازجة جرى جنيها من الموقع على يد مختصين من الأهالي ومطعم عالمي، وستوفر القرية المجاورة مأكولات محلية مثل اللحوم والفواكه والخضراوات الطازجة.

أود غودفرد/ جريدة ذي ديلي ميل (البريد اليومي) البريطانية

فيديو وتنصيب:

(منى حاطوم) في مواجهة الظلم السياسي والاجتماعي

منى حاطوم وخلفها أحد تنصيباتها (بقعة ساخنة) ٢٠٠٦

تقدم لنا منى حاطوم فنا عن السياسة والوضع البشري بلا مواعظية جافة ولكن ببراعة لاذعة وأناقة وحذق. ولدت منى في بيروت سنة 1952 لأبوين فلسطينيين. أصبحت محتجزة في لندن سنة 1975 لا تستطيع العودة الى لبنان بسبب الحرب التي اشتعلت هناك، وكانت قد جاءت الى لندن لدراسة الفن ثم استقرت فيها فيما بعد. تطور عملها عندما كانت تحضر دروس ستيوارت بريسلي الراديكالية التي عمقت المحتوى الإجتماعي- السياسي ووسعت وسائل الفنانة لتشمل الإداء والتنصيب والفيديو والفيلم ووسائل الإعلام المطبوعة، وقد وظفتها منى أواخر السبعينيات للتحرر من القمع الجنسي وتقاليد سيطرة الرجل على الرسم والنحت.

بعض الأعمال تتعلق بأحداث محددة حين انضمت الى الحركة المعارضة لسياسة تاتشر سنة 1985 والتي تطورت الى اضرابات وعصيان فكان عمل منى المتمثل

لن تمر الا على جثتي ١٩٨٨

لقطة ساكنة ١٩٩٥

فلسطين معلقة ٢٠٠٩

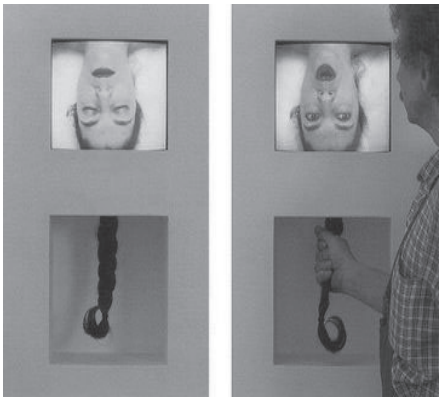

إسحب ٢٠٠٧

بالقدمين الحافيتين المربوطتين بجزمتين في سوق بريكستون وهاتان الجزمتان عادة ما يرتديهما رجال الشرطة، وكما في بوستر (على جثتي) الذي عرض عام 1988 ويمثل لعبة جندي صغيرة وهو يوجه بندقيته مهددا ولكن منى تضعه على أنفها باستخفاف ناظرة اليه بغضب، وغيرها من اللوحات والتنصيبات التي تنم عن مخيلة خصبة وتفتح ذهن، تبتكر منى أشكالا مختلفة لتعبر عن الأفكار التقدمية وتقدم أجوبة للعالم بأحكام أخلاقية وسياسية حادة ممتزجة بالفكاهة والجمال. إن قاعة (تيت مودرن) باحتضانها هذا المعرض تنصف حقا هذه الفنانة وهي على قيد الحياة، وهو معرض لا تُفوّت مشاهدته بوصفه واحدا من المعارض المعاصرة المثيرة التي اقيمت في لندن.

أقيم المعرض في قاعة تيت مودرن، بانك سايد، لندن (معرض الفن الحديث) ويستمر حتى 21 آب 2016.

كريستين لندي/ جريدة «مورننغ ستار» الاشتراكية البريطانية

مناسبات:

«نشد قلوبنا على راياتنا ونمضي الى الأمام»
ذكرى إضراب عمال المناجم البريطانيين 1984 - 1985

تحتفل الصحافة الشيوعية واليسارية الفرنسية وفي مقدمتها اللومانتيه (جريدة ومجلة وملاحق) بمرور 80 عاما على تشكيل الجبهة الشعبية سنة 1936 (طبعة خاصة بعنوان الجبهة الشعبية 1936، عندما تدخل الشعب)، كذلك فإنه قد مرّ على تأسيس جريدة اللومانتيه 112 عاما (سنة 1904)، مؤسسها القائد الإشتراكي جان جوريس الذي أغتيل سنة 1914، وهي الآن تمرّ بضائقة مالية صعبة ورفضت عروضا كثيرة للتمويل لأنها ترفض تدخل الجهة الممولة في رسم سياسة الجريدة، ولكن مثل هذه الظروف الصعبة ليست جديدة عليها فقد مرت في ظروف أصعب طوال تاريخها وخرجت منها أصلب عودا.
(الصور لإصدارات لومانتيه في مختلف المراحل: غلاف العدد الخاص في العام 2016 في ذكرى الجبهة الشعبية التي أقامتها الأحزاب الإشتراكية واليسارية بدعم قوي من الحزب الشيوعي عندما لاحت بوادر صعود الأفكار الفاشية وكذلك الخشية من استلام اليمين للسلطة وإقامة حكومة مشابهة للنموذج الإيطالي الفاشي. فازت الجبهة في الإنتخابات وأصبح الرئيس الإشتراكي ليون بلوم من سنة 1936 الى سنة 1938 وخلال هذه الفترة تم تشريع العديد من القوانين التي تهدف الى معالجة المشاكل الإقتصادية والمالية ومكاسب للعمال والموظفين ولكن بلوم قدم استقالته حين لم يحصل على الأصوات اللازمة لبرنامجه المالي فتولى الرئاسة بعده المتطرف بالاديه وبذلك انفرط عقد الجبهة، وعدد من سنة 1934

مؤتمر السلام والتقدم العالمي في باريس/ حزيران ٢٠١٦
برعاية الحزب الشيوعي الفرنسي

بمناسبة مرور عشرة أعوام على وفاة لينين (مع لينين الى الأمام نحو النصر) وفي ذكرى إعدام روزا لوكسمبورغ، وعدد خاص من سنة 1953 عندما توفي ستالين تتصدره عبارة (حداد لكل الشعوب التي تعبر في خشوعها عن حبها البالغ لستالين العظيم) ويذكر العدد قطع المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي الفرنسي أعماله وكذلك نص برقية التعزية من اللجنة المركزية الى نظيرتها السوفييتية). كذلك رعى الحزب الشيوعي الفرنسي (عدد أعضائه 120 ألفا) بداية شهر حزيران 2016 مؤتمرا عالميا للسلام والتقدم في العالم حضرته 88 منظمة من 56 بلدا لمناقشة القضايا الملحة كقضية اللاجئين والمناخ والحريات وتصاعد العنف وغيرها).

ختان البنات

عرض: سلام القريني

ختان البنات في المجتمعات الإسلامية
بين الرفض والفرض
(المجتمع العراقي انموذجا)
الباحث: حسين علي الجبوري

يقع الكتاب في 179 صفحة من القطع الصغير، ويضم مقدمة و38 عنوانا الى جانب كلمة الختام وكلمة الشكر والإحالات وهوية المؤلف الشخصية وأعماله، وهو من إصدارات دار الحدباء 2015.

يقول الباحث الجبوري في مقدمته: ان الشيعه والسنة في العراق، لا يعرفان هذا التقليد الذي كان يمارس في الجاهلية على بناتهم، وبقي حتى مجيء الإسلام .

الختن معناه (القطع) والذي تجريه امرأة يطلق عليها اسم (الخافضة) او(المبضرة) او (المعذرة)، فلا تجري الشيعة الامامية عملية الختان على بناتهم استنادا الى أحاديث وردت عن أئمتهم وهي أحاديث لا تجيز ذلك. في حين اعتبر كثير من الفقهاء ان هذه السنة تقع ضمن سنن النبي ابراهيم التي اطلق عليها مصطلح (سنن الفطرة). اما ما جاء عن المفسرين الأوائل فلم يذكروا سنة ختان النساء. ومن الفقهاء المعاصرين فقد صرّح شيخ الازهر السابق سيد طنطاوي ان الاسلام لا يفرض علنا ختان البنات، كذلك الفتوى الرسمية للدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية المصرية الذي جاء فيها: (تحريم ختان الاناث شرعيا واعتباره مجرد عادة لا علاقة لها بالإسلام)، كما هناك فتوى للدكتور محمد سليم العوا نائب رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين تقول: (ان الحكم الشرعي لختان الانثى ليس بواجب ولا سنة ولا مكرمة).

اما رأي السلفيين في العصر الاوسط ، فيذكر الذين اوجبوه واشهرهم هو الامام الشافعي ، فالختان عنده واجب على الرجال، اما ابن قيم الجوزي فانه قال في تحبيذ ختان النساء .

خلاصة اقوال الفقهاء القدامى الذين يعتقدون ان الشيطان يختفي في غلفة الذكر والأنثى غير المختونين، فقد اختلفوا في تحديد اعمار المختونين والأهم من كل مما تقدم انه لم يرد ذكر الختان في القرآن الكريم بنوعيه إطلاقا وإنما ورد فقط في الحديث النبوي .

الختان، واصل الكلمة (سامي) قديم، وهو نوع من العبادة الدموية التي كان الانسان يقدمها الى اربابه وتعد أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة وتمارس الختان قبائل عديدة منها الجالا والفلاشا والبانتو والبولينزيا وفيجي وكليدونا الجديدة، كذلك كان معروفا في حوض نهر الامازون وغيرهم وكل هذه الشعوب وثنية الديانة بما فيها المصريون الفراعنة الذين كانوا يختنون قبل 1400عام قبل الميلاد.

التقرير المثير جاء من منسق منظمة

(وادي) أرسله كمذكرة لمجلس النواب العراقي والخاص بانتشار ظاهرة الختان في وسط وجنوب العراق (منطقة الاهوار اواسعة الانتشار التي تدخل حدود ايران والبصرة والعمارة والكوت) وطالب الحكومة والبرلمان الاتحاديين بتشريع قانون يمنع انتشار هذه الظاهرة وعدم الاكتفاء بقانون العقوبات العراقي الذي صدر عام 1969 .

مدن اخرى تناولها الباحث حدثت فيها ممارسات الختان ومنها كربلاء وتحديدا في طويريج وشفاثه فالختان المتبع لدى النساء الشفائيات، هو ختان تعبدي لاعلاقة له بالعفة والخيانة الزوجية او المتعة الجنسية ، كما في نساء طويريج الذي مورس بينهن هذا الفعل نتيجة لتواجد البدو . وكردستان العراق ايضا لها قصة مع هذه الممارسة حيث ينظر في بعض القرى والقصبات للمرأة غير المختنة مثلما ينظر للرجل غير المختن فهو نجس كالكلب الاغرل . في مدينة دهوك غير موجودة، اما في مدينة السليمانية فهي منتشرة في الاحياء الشعبية لاسيما بين الاسر الفقيرة والوافدة الى المدينة من مناطق اخرى على حدّ قول النائبة بخشان زنكنه. ولو انتقلنا غربا نحو مدينة الموصل التي سقطت بيد داعش الارهابي وما جرى لها بعد 10 حزيران 2014 حيث حذرت الامم المتحدة عبر تقرير بثته cnn من ان اربعة ملايين امرأة في العراق يواجهن خطر تشويه أعضائهن التناسلية بعدما أمر تنظيم داعش بختن جميع الفتيات والنساء.

الجدير بالذكر ان الباحث الجبوري ذهب بعيدا حيث ناقش عملية الختان في بعض الدول العربية خصوصا في مصر لدى العائلات الريفية فالنسبة تصل الى 98 % ومن المهم (ايراد النضال الذي خاضته الدكتورة نوال السعداوي لأكثر من 30 عاما ضد هذه العادة الخطرة التي تودي بحياة الفتيات جراء الخطأ او الالتهابات الدموية الحادة). هذا وثمة انتشار آخر في القارة السوداء اذ يصل عدد الفتيات اللواتي يختتن الى 3 ملايين طفلة وصبية سنويا وعلى رقعة 28 دولة افريقية.

كلمة الختام كانت بليغة كونها عرجت على ان اغلب القادة السياسيين الذين وصلوا الى السلطة بالوسائل الديكتاتورية ولكي يضفوا الشرعية على حكمهم كانوا يتساهلون في محاربة هكذا فتاوى جاهلة وغير إنسانية، طمعا في كسب ودّ وعاظ السلاطين ورغبة في تعميم الجهل وافشاء التجهيل.

ان القضاء على طقسية (ختان البنات) الشريرة منوط بتوجيهات القادة الروحانيين المتفتحين والقوى السياسية الوطنية المتنورة ومنظمات المجتمع المدني المعنية والإعلام المرئي التنويري لاسيما الفضائيات المؤثرة.

مطبوعات وصلتنا :

- د. فلاح اسماعيل حاجم، أساسيات الدولة الفيدرالية المعاصرة، دراسة مقارنة – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015.
- تحرير وتقديم أ.د. لاهاي عبد الحسين، أ.د.محمود عبد الواحد القيسي – علي الوردي منظورات متنوعة،بقلم مجموعة من الباحثين – دار أوما – بغداد 2016.
- د. عودت ناجي الحمداني، صندوق النقد الدولي ودوره في تعميق أزمة الديون الخارجية للبلدان النامية (خصوصية ديون العراق) – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2014 .
- د. حسن البياتي، كتبوا عني ... وكتبن – دار الحكمة، لندن 2016.
- ياسين طه حافظ – وردة النار في العصور – شعر – منشورات الطريق الثقافي – بغداد 2015.
- كاظم اللايذ، بوابات بصرياثا الخمس – شعر – وراقون للنشر والتوزيع – البصرة 2015.
- عبد الواحد نصيف القطراني – أحلام – رواية – دار ضفاف للنشر – بغداد 2014.